سلسلة الآثار الكاملة ـ ٢ ـ

معرفة الإسلام

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة حيدر مجيد

مراجعة حسين شعيب

دار الأمير

معرفة الإسلام

إسم الكتـاب : معرفة الإسلام

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : حيدر مجيد

تنضيـد وإخـراج : محمد شراد الناصري

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-10-4

الطبعة الأولـى : ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافة الحقوق محفوظة ومُسجّلة قانونياً للناشر بالإتفاق مع ورثة المُؤلف

التوزيع في العراق:
دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579

دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . .، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

معرفة الإسلام. . . .

الكتاب الذي شُنّت عليه الحملات في إيران، وتُرجم وطبع بعشر لغات حية خارجها، ونُشر منه أكثر من ثلاثمائة ألف نسخة حول العالم.

معرفة الإسلام. . .

الكتاب الذي قُذّف مؤلفه بشتّى أنواع التهم التي يستطيع اللسان ان يلهج بها وينطق.

فبعد ان اتهم شريعتي بأنه ماركسيّ، صدر البيان الشهير ضده وضد حسنية ارشاد ليعتبره وهابياً. . .

حتى كتابة هذه المقدمة لم اتعرّف إلى رجل تعرّض لمثل هذا النقيض من التهم. . اللهم إلاّ علي شريعتي، هذا الأمر يأخذنا للتساؤل التالي: هل كان شريعتي هو المقصود بشخصه ـ على قاعدة الحسد ـ إذا ما نظرنا إلى الآلاف المؤلفة من الجامعيين والشباب التي كانت محاضرات الدكتور وخطبه النارية ـ الواعية ـ تستقطبهم. . ؟

قطعاً هذا التساؤل منطقيّ وفي محله أيضاً، ولكن لم يكن هذا الاستنتاج كل ما في الأمر، لأن أكبر وأخطر تهمة كانت توجّه لشريعتي انه وفي وقت مبكر جداً كان من مقلدي الخميني، وللحق

والتاريخ نذكر هذه الحادثة:

صعد أحد خطباء مدينة مشهد المنبر، وأخذ يذكر الدكتور شريعتي بسوء، وأهم «سيئة» ركزّ عليها هذا الخطيب انه قال حرفياً: ألا تعلمون أيها السادة ان شريعتي من مقلدي الخميني...؟ فكيف تستمعون له...؟ وعندما وصل الخبر للدكتور قال: انظروا إلى حماقة ما يسمّى بالخطيب، انه بدل ان يذمني أثنى عليَّ بأحسن الثناء، ولو اني منحت أحداً مليون توماناً ـ عملة إيران ـ جزاء ان يصرّح على الأشهاد، بأن شريعتي يقلد الخميني، لما فعل ذلك، ويضيف شريعتي: انه فخر لي واعتزاز أن أكون مقلداً له، وكيف يمكنني أن أتخذ غيره مرجعاً لي؟ هل باستطاعتنا أن نكون له مقلدين؟ وهل لنا الأحقية في ان نطلق هذا اللقب «الخمينيون» على أنفسنا؟[١]. المتتبعون لمجريات احداث الثورة الإسلامية في إيران، خاصة الأعوام التي تلت انتفاضة «خرداد»، ١٩٦٣ م يعلمون جيداً ان المشكلة كانت ولم تزل مشكلة قيمية، مُؤَسَسٌ لها على أساس فكري وفقهي وأحياناً عقائدي، فهناك منهجان في الوسط الديني، الأول مُوَظَّف عند الدين والناس ويعمل لخدمتهم ويدفع حياته وكل ما يملك في هذا الطريق، والثاني يوظف الدين والناس ليقوموا بخدمته وخدمة مصالحه ومشاريعه باسم الدين، حيث أن التهم التي كانت تنهال على رأس شريعتي من الأوساط ـ الدينية ـ كانت تنهال أيضاً على رأس البهشتي والمطهري والطالقاني ومفتح وخامنئي وغيرهم من رجالات الثورة المضحين، حتى أن هذه التهم انهالت على رأس

(١) مجلة دافتاب كوير ـ الذكرى السنوية لاستشهاد علي شريعتي والمؤتمر الذي عقد حوله في عام ١٩٩٨ ـ ص٥٥ .

الإمام الخميني بشكل أو بآخر، وهذا ما يؤكده قول الإمام حرفياً: **إن الضربات التي تلقيتها من مدعيً القداسة والمعممين ـ الذين يرتدون الزي الديني ـ السُذّج، كانت أشدّ وقعاً عليَّ مما تلقيته من امريكا وإسرائيل**[١].

بعد هذا نرى بشكل واضح ان المشكلة هي مشلكة منهج بما تعني الكلمة من الناحية العلمية والفكرية، هذا مع الاعتراف أن أصحاب كلا المنهجين قد تختلف رؤاهم في كثير من التفاصيل، ولكن هذا الإختلاف لا يفسد الخطوط العامة للمنهج.

وهنا نلاحظ ان شريعتي لم يكن مقصوداً بشخصه بقدر ما كان المقصود الخط الثوري التغيري الذي انتمّى إليه بكل طمئنينة واخلاص، ودفع حياته وشبابه ثمناً لنجاحه، حتى ينتصر هذا الخط ـ النهج ـ بعد وفاته.

وبعد كل ذلك يأتي من يحاول فصل شريعتي عن الثورة، ليكمل ما بدأ به غيره بُعيّد انتصار الثورة ـ أوائل الثمانيات ـ وهو تيارٌ معروف اليوم ولا يخفى على متتبع، ولكنه يتلّون مع كل مرحلة بألوانها، ليختار منها الأجذب للنظر، تارة يرفع شعار التشيع وأخرى شعار الولاية والآن اكتشف تهمة جديدة أطلق عليها «المنهج الإلتقاطي»، وعليه فإننا نقول لهؤلاء ونذكّرهم بأن تاريخ الشرفاء وفكرهم ـ وإن اختلفنا معهم في بعض التفاصيل ـ لا يمكن شطبه بجرة قلم هنا، أو شعار مصلحيّ هناك، وان الدماء التي سفكت على مذبح الدين والحرية والوعي، لا يمكن أن يُدنس طهرها وإشراقها الغوغاء والمنتفعين على الدين وباسمه.

---

(١)صحيفة النور ـ الجزء ٢٢ ـ صفحة ٢٠٠.

ولا يفوتني هنا أن أعود إلى الكتاب ـ معرفة الإسلام ـ لأشير إلى نقاط أهمها:

١: أن شريعتي تناول في إبحاثه شخصية الرسول الأكرمﷺ من منظار عَالِم الاجتماع الموضوعي، وليس كرجل من اتباع هذا النبي العظيم، لذا نراه أحياناً يتعمد ذكر الرسول الأكرمﷺ كأي شخصية تاريخية، حتى يصل بالقارىء في نهاية المطاف إلى أن هذه الشخصية العملاقة (النبي محمدﷺ) تستحق أن تكون بذاتها طبيعياً وموضوعياً النبي والمُرسل والقائد والقدوة، وأخيراً الخاتم والمؤتمن على رسالة لا يحدها المكان ولا يفسدها الزمان.

٢: إن شريعتي كثيراً ما استعمل مصطلحات ـ غربية ـ أو على الأقل لم تكن من صلب الخطاب الديني ذلك الوقت، وبعده ليصبح بعده الكثير من هذه المصطلحات والمفردات من صميم ذلك الخطاب، وحتى من نسيجه المعرفي، وهذا ما استُخدم أيضاً في الحملات الظالمة على شريعتي، حيث أضيف إلى تهمه السابقة(ماركسي ـ وهابي) أضافوا إليه تهمة اسمها (المستغرب) ولما أصبحت كل هذه المصطلحات من أولويات الخطاب الإسلامي فيما بعد... يكون هذا بمثابة اعتراف ضمني من النُخب التي جاءت بعده بأن شريعتي كان له قدم السبق في تثوير النص الإسلامي في عقول ونفوس الجيل الصاعد، وذلك باستخدام تلك المصطلحات، وأخيراً نسأله سبحانه أن يقينا شر الجهل، وأن لا ينعم علينا بفضائل لا تنفع الناس، أنه سميع مجيب.

محمد حسين بزي

بيروت في ٣/ ١١/ ٢٠٠٣م

كلمة الناشر ـ الطبعة الفارسية

يشتمل الكتاب الماثل بين يدي القارئ الكريم على محاضرات الأستاذ الشهيد (د. علي شريعتي) في كلية الآداب بجامعة مشهد، للعام الدراسي ١٩٦٦-١٩٦٧م، والتي سبق أن تم نشرها تحت عنوان (معرفة الإسلام). غير ان الطبعة الحالية من الكتاب صدرت مع إضافات وتعديلات أجراها المؤلف إلى النص المطبوع، ومن هنا تعدّ هذه النسخة أكثر نسخ الكتاب قيمة واعتباراً. وللمزيد من الاطلاع على هوية الكتاب ومشخصاته، بمقدور القارئ الكريم أن يراجع مقال التمهيد (مع القارئ) في بداية الكتاب. ومن المناسب هنا الإشارة إلى عدة نقاط:

* في موارد معدودة بالأصابع وجدنا من الضروري إضافة بعض الكلمات لإيضاح المعنى وقد وضعناها بين حاصرين. وسوى ذلك سيعثر القراء الكرام على عبارات مترجمة من قبل المؤلف نفسه لآيات وروايات وأشعار عربية.

* في بعض الموارد التي تصدى فيها الأستاذ لاحقاً لإجراء تغييرات على النص المطبوع كانت هناك كلمات غير مقروءة فوضعنا بدلاً منها علامة(*) .

* على غرار إصداراتنا السابقة، أوردنا في خاتمة الكتاب ملحقين: الأول يتضمن تصويراً فوتوغرافياً لنصوص محررة بيد الكاتب نفسه، والثاني مجموعة ملاحق أعدّت وأضيفت من قبل نفس المكتب.

❁ ❁ ❁

وفي الختام يلزم التذكير بأن كتاب معرفة الإسلام (سلسلة محاضرات مشهد) والذي سبق للمكتب أن نشره لا يختلف عن الكتاب الحالي سوى في بعض التعديلات التي طرأت على هذه الطبعة، ومن هنا نعتقد أن الكتاب السابق ما يزال محتفظاً بقيمته العلمية خاصة عند من لا ينوون اقتناء جميع كتب الأستاذ الشهيد. . .

مكتب تجميع ونشر تراث
الأستاذ الشهيد د. علي شريعتي
- شتاء ١٩٨٢م -

(*) بعض هذه النقاط أصبحت بلا مورد بعد التعريب.

كلمة المترجم

في تقديمنا لكتاب (التشيع العلوي والتشيع الصفويّ) ألمحنا إلى الخصائص العامة لفكر الشهيد د. علي شريعتي، والدور الذي لعبته أفكاره ومحاضراته في بثّ الوعي الديني بأسلوب معاصر بين الأوساط الثقافية، ما يمكن القول ان الرجل كان من أقوى المساهمين في إعداد جيل الشباب الذي شارك في الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م بقيادة الإمام الخميني الراحل، رغم ان هذا الكلام - كما نوّهنا هناك - قد لا يرضي البعض ممن سعوا إلى إغفال هذا الدور للمرحوم شريعتي بدوافع شتى.

وأريد في هذه المناسبة أن أعرض إلى ميزة أخرى في فكر شريعتي باتت الآن مثار جدل واسع بين الأوساط الثقافية والفكرية في إيران التي تمرّ هذه الأيام في مخاض فكري يصل أحياناً إلى درجة الخناق بين الجيل الأول للثورة والجيلين الثاني والثالث فيها.

فإذا كان المثير - يوماً مّا - في فكر شريعتي، رفضه للإسلام التقليدي القائم على العادة والتقليد الموروث، ودعوته إلى تهذيب الإسلام من المظاهر السيئة التي لحقت به نتيجة الانحراف عن المبادئ الأولى أو ما يصرّ - هو - على تسميته بتحوّل الحركة إلى نظام، فإن التحدّي الجادّ الجديد، الذي يتعرض له فكر شريعتي، يرتبط بميزة أخرى من مزايا فكر الرجل تتمثل بنزعته نحو أدلجة الفكر الإسلامي والتوفّر على خطاب تعبويّ يدعو إلى إعادة الأمجاد وعدم الانبهار بالقادم من الغرب والدعوة إلى الالتصاق بالماضي، التصاقاً إيجابياً؛ يحفظ الهوية ولا يرفض العلم وآلياته الحضارية الحديثة، بل يتطلع نحو الجمع بين الأمرين والنهوض بالمجتمع المسلم، الذي يعتقد شريعتي أنه يتوفر على مقوّمات النهوض الحضاري إذا نجح في العثور على هويته.

ينطلق التحدي الجديد لفكر شريعتي هذه المرّة لا من خصومه التقليديين متمثلين بالوسط الديني المنغلق ومن يصطلح عليهم بـ (الروحانيين)، بل من أناس يمكن القول أنهم تلاميذ مدرسته، ولو بنحو من الأنحاء، أمثال عبد الكريم سروش، الذين ذهبوا إلى أقصى مدى في توسيع مساحة الأسئلة المثارة دينياً، حتى لكأنّه لم يعد لديهم شيء يحظر فيه السؤال. ويعين هؤلاء على قبول آرائهم وإثاراتهم، ما يشبه (ردّة) يتعرض لها الشارع الإيراني سواء على مستوى النخبة أو الجمهور، وذلك

بعد أن عجزت الثورة الإسلامية عن تحقيق الكثير من الشعارات، والتي ربّما لم تكن تتصف - في حدّ ذاتها - بالواقعية.

إن مقارنة عابرة بين منهج شريعتي في التفكير الديني ومنهج المفكرين الدينيين الجدد الذين يكاد يجمعهم التشكيك في صلاحية الأديان، بما فيها الدين الإسلامي، لمواكبة الحياة.. يُفترض بهذه المقارنة أن تقود الوسط الديني التقليدي إلى التفكير بـ(التكفير) عن موقفه السابق حيال الشهيد شريعتي وإعادة النظر جدياً بالأحكام القديمة، وبذل الجهد في دراسة فكر شريعتي دراسة موضوعية جادة تهدف إلى استخلاص النقاط الجوهرية فيه بعيداً عن التشبّث بالقشور، وهو الأمر الذي يحذر منه شريعتي في البحث الديني، وهو - في رأي المترجم - أحد الأمور التي أدت إلى حصول ما عبّرت عنه - مجازاً بالطبع - بأنه (ردة) من نوع جديد..

حول الكتاب الحاضر

يقترن اسم شريعتي بكتابه (معرفة الإسلام) الذي يضمّ جوهر أفكاره الموزّعة على قائمة طويلة من الكتب والكراريس وأشرطة التسجيل. ويوجد كتابان لشريعتي بهذا العنوان، يمثل الكتاب الحالي، الأقدم منهما، ويضمّ محاضرات الرجل في جامعة مشهد مطبوعة بمعية كراس (سيماء محمد) في كتاب

ضخم يعرف في الوسط الثقافي بـ(اسلام شناسي مشهد). وأما الكتاب الآخر فهو يشتمل على محاضرات الدكتور شريعتي في حسينية الإرشاد بطهران والتي مثّلت - حينها - مركز التنوير الديني في إيران، وقد واجهت معارضة عنيفة من قبل التيار الديني التقليدي، ومرّت بأيام عصيبة يشير إليها شريعتي في مواطن من كلامه في كتبه الأخرى. ويعرف ذلك الكتاب بـ(إسلام شناسي إرشاد)، وقد طبع في ثلاثة أجزاء، وهو الشائع تداوله أكثر، كونه يأتي في مرحلة زمنية متأخرة، ويشتمل بطبيعة الحال، على أفكاره الأحدث، إلاّ ان ذلك لا يلغي دور كتاب مشهد، خاصة وأن دار الأمير تعهّدت بتعريب ونشر مجمل كتب الشهيد، ولما سننقله من نص الأستاذ حول الفرق بين الكتابين ما يجعل الاطلاع على الاثنين بالترتيب، أمراً مفيداً في مواكبة القارئ، زمنياً، للتطور الحاصل في فكر الرجل. . .

يقول د. شريعتي في تقديمه لكتاب (إسلام شناسي إرشاد):

(دروس (معرفة الإسلام) مصطلح يتداعى منه إلى الذهن كتاب (معرفة الإسلام) الذي يضمّ محاضراتي الشفهية في جامعة مشهد قبل خمسة أعوام، ولاشك أن ثمة أفكاراً تبدلت وتطورت لديّ في غضون هذه الفترة، وانبثقت تصورات وأفكار جديدة من خلال التدريس والممارسة والتأمل. وسيكون ما ألقيه عليكم كدروس في معرفة الإسلام مكملاً لما جاء في الكتاب السابق.

أقول إنه مكمل لما سبق، ولا أعني من ذلك، سيكون مجرد توضيح وتفسير لما فيه، بل يمكن القول إن (معرفة الإسلام) التي أريد أن أشرع فيها، تختلف كلياً عن معرفة إسلام مشهد، وإنها جهد وعمل جديد سواء في المنهج أوفي المضمون. وأقول انه غيره ولا أعني بذلك أنه ينفي ما فيه أو يدحضه، حتى تقرّ عيون خصوم (معرفة الإسلام) فيقولون إن صاحب (معرفة الإسلام) لا يعتقد بنفسه بما جاء فيه، كيف: ذاك وأنا أشعر أنه كلّما تقدّم بي الزمن وانهالت عليّ انتقادات أكثر، كلّما ازدادت قناعتي رسوخاً بصحة الأفكار الواردة في الكتاب المذكور).

يتألف كتاب معرفة الإسلام / مشهد/ من قسمين رئيسيين؛ الأول كرّس للتعريف بالإسلام كرسالة ومبادئ والثاني حول حياة النبي محمد ﷺ وسيرته كمصداق كامل لتلك المبادئ وتجسيد حيّ للرسالة. وقد طبع بمعيّة هذا الكتاب بحث للمرحوم شريعتي بعنوان (سيماء محمد) لم نورده هنا لأنه مترجم ومطبوع على حدة. كما إن القسم الثاني الحاوي لسيرة النبي كان يتألف من شطرين أحدهما خاص بحياة النبي بالمدينة والثاني يستعرض حياته بمكة.

ونظراً لضخامة حجم الشطر الأول من القسم الثاني، بما يعادل ضعف حجم الكتاب الحالي..

ولأنّه في الغالب استعراض سرديّ لوقائع تاريخية حصلت

في الفترة من هجرة الرسولﷺ إلى المدينة حتى وفاته، وقد لا يحمل للقارئ العربي شيئاً جديداً . . ولإمكان الاستغناء عنه بالكتاب الصادر عن دار الأمير للمؤلف نفسه تحت عنوان (محمد خاتم النبيين) والذي يحتوي على المادة نفسها مع قدر من التهذيب والاختزال . .

لهذه الأمور، آثرنا حذف هذا القسم من الكتاب في الترجمة، تمكيناً للقارئ الكريم من مطالعة الأهمّ من كتب الشهيد بأقلّ وقت وجهد وتكاليف.

ملاحظة: بعض أحداث السيرة الموجودة في الكتاب لم نوردها بأصلها العربي أو لم نذكر مصدرها الدقيق، وذلك لأنّ المؤلف استلّها من مواطن عديدة في الكتب الرئيسية التي اعتمد عليها في نقل السيرة، من قبيل كتاب تاريخ الطبريّ والطبقات لابن سعد والسيرة النبوية لابن هشام. وبالتالي ربما كانت القصة الواحدة موزّعة على اكثر من كتاب، أو على أكثر من موضع في الكتاب الواحد. مضافاً إلى أن للمؤلف طريقةً في تناول الأحداث لا تخلو من متعة وفائدة. وسيجد القارئ أنّ كلّ الأمور التي ذكرها أو احتجّ بها المؤلف لا تخرج عن دائرة الكتب المذكورة وهي موجودة فيها في موضع أو آخر . .

حيدر مجيد

قم - شتاء عام ٢٠٠٣ م

بسم الله..

أودّ تقديم هذا الكتاب،كما صنع طه حسين، إلى :

الذين لا يعملون شيئاً ويغيظهم أن يعمل الآخرون..

علي شريعتي

معرفة الإسلام

(محاضرات جامعة مشهد)

للأستاذ الشهيد الدكتور علي شريعتي

مع القارئ !

بعيد انهيار الخلافة العثمانية في مارس ١٩٢٤م، انحسر الإسلام عن واقع الحياة كقوة سياسية واجتماعية كبرى ومركز لتصدير الأفكار الجديدة والمشاعر اللاهبة، وبدا أن الدين الذي تكفل بقيادة تحول ثوريّ عظيم في العالم، راح ينكمش من ميادين العمل والمواجهة الساخنة ليختبئ في زوايا المساجد، وليواصل حياة (الموت) مع جيل مهترئ شارف على الانقراض وإن بقي وفياً للإسلام التقليدي، بالرغم من كل شيء.

ثمة شواهد عديدة تدعم هذا التصور، إذ الهزيمة التي مني بها العثمانيون لم تكن مجرد هزيمة سياسية وعسكرية فحسب، بل إن الانحطاط الثقافي والانكسار المعنوي والروحي والفكري الذي قاسى منه المسلمون، وتبدُّل الإسلام إلى أفيون للشعوب وطلّسم حافظ لمصالح أهل الجاه والثروة والنفوذ، ومبرّر لهيمنة العنصر التركي واستعلائه على سائر المسلمين . . . هذه الأمور جعلت تلك الهزيمة تبدو زوالاً حتمياً للإسلام ككيان سياسي اجتماعي.

ومن ناحية، كانت المسيحيّة؛ الندّ التقليدي للإسلام، تفيق لتوّها من غفلتها وتتنامى قوّتها عبر إقرار مبدأ التعايش السلمي مع الحياة وإنهاء حالة الخصام القديمة مع عدوّها الثلاثي اللدود: القوة والثروة والشهوة . . .

ولقد استعانت المسيحية على ذلك بعصر النهضة وتحجيم قدرة البابا ونبذ الخرافة وتغيير نمط البحث والتحقيق، وجهود جبارة أدّت إلى تحطيم الجدر المغلقة في محيطها الجغرافي والديني والفكري والاجتماعي، وكذلك الثورة الفرنسية الكبرى والثورة الصناعية في إنجلترا. . .

وعبر الهبوط من سماء (علم الكلام) إلى تخوم الأرض وقعر البحار والمحيطات وداخل المصانع والمختبرات، والسياحة شرقاً وغرباً، لا في العالم الهرقلي بل على وجه البسيطة، طلباً للعلم والمعرفة والانتفاع، تمكنت المسيحية، عبر ذلك، من إزاحة كل الموانع والعراقيل بوجه التطور العلمي والمادي، وفجأة وجد العلم - الذي ظل قابعاً في المعابد والمدارس - نفسه منفتحاً على واقع الحياة وأداة طيعة بيد خصومه التقليديين : القوة والثروة والشهوة، فصنع من المسيح قيصراً، ومن مسيحية التصوف والرهبنة والارتياض دجلاً في الفعل وإلحاداً في الشكل، معمّداً بالحرص والطمع وإراقة الدماء!

لقد أخذت المسيحية بيدها حراب القتل وطفقت تمسح، بالسوق والأعناق، سائر الأمم والشعوب والأديان والثقافات والفنون ومصادر الثروة والعزّة في هذا العالم، خاصة العالم الإسلامي الذي ما زالت تختزن حياله أحقاداً دفينة وعقداً قديمة أفرزتها وقائع كثيرة من قبيل تحويل كنيسة (أياصوفيا) الكبرى إلى مسجد، وتسمية القسطنطينية بإسلامبول، وقذف المسيحية إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط. . .

المسيحية ما زالت تصغي لقرقعة سيوف خالد وطارق وصلاح الدين والسلطان محمد الفاتح وغيرهم من صناديد الحروب الصليبية، يتلألأ بريقها من فلسطين إلى إسبانيا، وتمعن في إذلال المسيحية عبر انتصاراتها المتوالية والتي يأبى التاريخ إلاّ تذكّرها إيغالاً في إيلام المسيحية وتأجيج حقدها تجاه الإسلام والمسلمين.

أما الآن فقد آن أوان الثأر والانتقام والتشفّي، وهاهي المسيحية تقطّع أوصال العالم الإسلامي إرباً إرباً بنصل القومية، وهاهو الإسلام يحاول عبثاً الانتصار لنفسه، ولكن هيهات! فهو مثخن بالجراح ومبتلى بصنوف الأمراض، ولا يقوى على مقاومة هذا التحدي الكبير. . .

وأنىّ لبطولات المجاهدين وبسالتهم وتضحياتهم أن تقف بوجه دسائس العلم وحيله وأساليبه الماكرة. أما مساعي

الزعماء المسلمين لتجنيد فنون الغرب واستخدام أدواته في إصلاح الأوضاع فقد باءت بالفشل إذ جاءت متأخرة جداً، وكانت النتيجة أن لملم الإسلام ذيوله ورفع راية الاستسلام بوجه المسيحية التي سحبت بقوة - على ما يصف توينبي[١] - الحبل الذي أحاط برقبة الإسلام قروناً مديدة، ولكن لم يكن ثمة من يجرؤ على جرّه ليضيق الخناق على المارد الإسلامي المريض ويقضي عليه، وهذا ما حصل بالفعل.

هاهنا جاء دور الاستعمار ليدور بحماره أصقاع الوطن الإسلامي، يتقدمه من يسمى بـ(المستنير) آخذاً بلجام حمار المستعمر يدور به حيث يشاء ويدلّه على من يريد، بذريعة الرغبة بالتجديد والخلّو من التطرف والتعصّب حيال كل ما هو تقليدي ومحلّي، جامعاً حوله قطعاناً من المنبهرين بالقادم الجديد، زارعاً عبوات التقليد للأجنبي والانقياد له، منادياً : أيها الملأ ! صيروا إفرنجيين من هام الرأس إلى أخمص القدمين[٢].

واليوم، وبعد مرور زهاء قرن على انفجار قنبلة (التقليد والانقياد) ووصول شظاياها الجارحة إلى كل معاقل

---

(١) Le Monde et L'occident , P48.

(٢) من أراجيز المرحوم السيد حسن تقي زاده من مشاهير (روّاد) التنوير، ولم يكن من المتطرفين، وإذا صادف ان يفجر عبوة فهي عبوة تقليد وانقياد وتسليم!

التعصب والاستقلال والشرف الإنساني، وبعد كل الدمار والتخريب الذي نجم عن ذلك الانفجار المهيب، يعتصرنا الألم والمرارة ونحن نكتشف الآن أننا أصبحنا متجددين ولم نصبح متحضرين، وبعد أن علمنا - ولو متأخرين - أن بين الاثنين (التجدّد والتحضر) فرقاً كبيراً!

ورويداً رويداً أخذ يظهر بيننا، عدا (سائسي الحمير) الذين كنّا نحسبهم (مستنيرين) بينما تعتبرهم أوربا (متشبهين)[1]، رجالٌ من نمط آخر يصفهم سارتر بمقولته الغريبة: (ثمة في العالم الثالث أناس يتحدثون دون استئذان منا !).

وذلك لعمري حدث عظيم!

لقد وثب العالم الثالث - أو الثاني بمعنى - من سباته العميق، وجرّاء تلك الوثبة، وقعت مسؤولية جسيمةٌ على عاتق المستنيرين الحقيقيين في هذا العالم، تتمثل في أول مظاهرها بضرورة الاقتراب من واقع المجتمع، والسعي الحثيث لمعايشته

(١) assimile (الشبيه) - ويطلق الأوربيون هذا الوصف على الشعوب غير الأوربية من السود والصفر والعرب والترك والبربر وغيرهم ممن ينزع نحو التشبّه بالأوربيين بأفعالهم وأمزجتهم وسلوكياتهم. فإذا ما دخل المستعمر الأوربي بلداً آسيوياً أو أفريقياً انقسم أهل ذلك البلد إلى فريقين : الأصليين الذين يحافظون على أصالتهم وتقاليدهم، والأشباه وهم زمرة من أبناء الشعب يتشبّهون بالمستعمر. والمدهش أن الحديث النبوي (من تشبّه بقوم فهو منهم) جمع في ثناياه جوانب هذه القضية على مستوى الاصطلاح وعلى مستوى الفلسفة والمضمون.

وتحسس آماله وآلامه. (واقع المجتمع) هذا المفهوم الغامض، والمجهول الصرف الذي طالما يتشدق به المستنيرون دون أن يفقهوا شيئاً من معناه.

الأمة، عندهم، عبارة عن تلك الأجساد المعذبة والهياكل المغمورة في أرجاء البلد. ورغم كل الحماس التعبوي والمشاعر الثورية والإنسانيّة التي تعتريهم حين مخاطبتهم للجمهور بكلمة (تودة)(*) فهم لا يعلمون أنها ترجمة للفظ اللاتيني Masse !

إن محاولة التعرف على الإسلام اليوم ليست مجرد أداء لفريضة دينية أو نوع من الفروع العلمية في دراسة الدين، بل هي - في الوقت ذاته - بوابة للتعرف على حضارة عريقة وتاريخ غني حافل بالمفاجآت والمعاجز، والعثور على السرّ أو الأسرار الكامنة وراء رقيّ وانحطاط مجتمعاتنا الحاضرة، وبالتالي التوغل والنفوذ في ضمير المجتمع ووجدان شعب نشعر بالمسؤولية أمامه. ومن هنا نجد أنفسنا الآن بحاجة ماسة إلى تكوين معرفة علمية دقيقة وتحليل شموليّ موضوعيّ عن الإسلام، ويمثل هذا الكتاب خطوة أولى في هذا الاتجاه.

الكتاب الماثل بين يدي القارئ، يتألف في معظمه من

(*) لفظة يكثر استخدامها في أدبيات اليسار الإيراني خاصة ما كان يميل منه نحو الاتحاد السوفيتي آنذاك. ويعنون منها الأمة أو الشعب أو الجماهير(المترجم).

دروسي ومحاضراتي التي ألقيتها على الطلبة في كلية الآداب بجامعة مشهد للعام الدراسي ٦٦ - ١٩٦٧م، وقام صديقي العزيز السيد شجاعي بتسجيلها ومن ثم تفريغها على الورق، صائناً بذلك جهداً كان من حقّه أن يضيع شأنه شأن سائر دروسي ومحاضراتي.

يجدر بي التذكير بأن الهدف من وراء هذه المحاضرات هو إبراز الوجه الحقيقي للإسلام واستيحاء مقاصده الأصلية. ومن هنا فقد عمدت في القسم الأول من الكتاب إلى إيراد الأساس العقائدي للإسلام كمذهب، وفي القسم الثاني سلّطت الأضواء على جوانب وأبعاد شخصية محمد[١] التي هي تجسيد حيّ للإسلام، ولم أكتف لهذا الغرض بتحليل شخصيته نفسياً أو بيان مزاياه الأخلاقية أو بنيته التربوية فحسب، بل تعرّضت لبيان دقائق سيرته في (المدينة) التي خاض فيها تجربة حياتية مكثفة ومضغوطة

---

(١) كان اكثر تركيزي على حياة النبي في المدينة بحثاً وتحليلاً، بينما اكتفيت بالمرور العابر على حياته في مكة، اعتماداً على ما بيّنته في كتابي (محمد خاتم النبيّين)، ولأنني ربما عاودت التطرق إلى جوانب من حياته فيها خلال بحثي لموضوع معرفة محمد، فلم أفصّل هنا تفادياً للتكرار.

المترجم: نلفت نظر القارئ الكريم الى أن ما وصفه الأستاذ الشهيد بمرور عابر وإجمالي قد استغرق من حيث الحجم أكثر من نصف الكتاب الأصلي. وقد ارتأينا حذف هذا القسم الكبير من الكتاب رأساً لأنه كان في الغالب، وكما بيّن المؤلف، مجرد استعراض تاريخي سريع، ربّما كان الأستاذ مضطراً له بحكم كونه جزء من المنهج الدراسي للجامعة ، ولأنه لا يحتوي بالنسبة للقارئ العربي =

ومكتظة بالأحداث والعبر، ولا يخفى أن اهتمامي بالوقائع الجزئية لم يكن على النحو الذي يقوم به سائر (المحققين الأفاضل)، من أن الغزوة الفلانية وقعت قبل الحادث الفلاني أو بعده، وفي سنة كذا أو كذا. . . ومعروف أن سرد الأحداث وحكايتها شيء، والعمل على استخلاص كنهها شيء آخر مختلف تماماً، وبه فقط يمكن استشراف روح الواقعة والحدث التاريخيّ من صميم التفاصيل وجزئيات الأحداث المحتفّة به، وطبيعة وشكل العلاقات القائمة بين الأفراد فيما بينهم من جهة، وبين وقائع الحدث من جهة أخرى، وبذلك يأخذ المحقّق بيد القارئ إلى زمان الحدث ومكانه وبيئته وأناسه.

يمثل الكتاب الحالي خطوة أولى تخطوها اللغة الفارسية في طريق التعرف على الإسلام بأسلوب علمي منهجي تحليلي، وأدعو جميع المتطلعين إلى التعرف الحقيقي على الإسلام، والمستنيرين حقاً، ممّن يمتلكون الجرأة اللازمة للتفكير بحرية دون استئذان أوربا ولا تقليد الأوربيين وترجمة ما يدور في عقولهم ترجمة حرفية، أدعو أولئك القادرين على إصدار أحكامهم على الأشياء دون رغبة

= على أكثر من ما هو موجود في كتب التاريخ المعروفة كالطبري وغيره . . . من هنا آثرنا حذف هذا الجزء من الكتاب ونرجع الراغب بمطالعة ذلك، الى كتاب (محمد خاتم النبيين) الصادر عن دار الأمير نفسها لوفائه بالغرض.

للتشبّه بأحد. . . أدعو هؤلاء وأهيب بهم تحمّل عناء خطوات أخرى في هذا الطريق، وأن تكون تلك الخطوات أكثر طولاً وثباتاً، خاصة مع ما يبدو ظاهراً من لزوم أن يكوّن الباحث التاريخي، لنفسه، صورة عن الإسلام؛ الدين المتين ذي الأبعاد المتعددة، والذي لا يسع أيّ مفكر مستنير أن يستغني عن التعرّف عليه بدقّة، في شتى المجالات الإنسانيّة، وفي أكثر المنعطفات التاريخية خطورة وحساسية، خاصة ما يرتبط منها بالشرقين الأدنى والأوسط.

وأرغب في نهاية حديثي معك - قارئي الكريم - أن أتلو لك جانباً من رسالة بعثها إليّ، في آخر أيام حياته صديقي العبقريّ، وصاحب أكرم وجه رجوليّ في عصر شحّت فيه الرجال؛ أعني البطل الثائر (فرانتز فانون)، حيث يقول في الرسالة:

(لقد تصدّى الإسلام للغرب والاستعمار أكثر من أيّة قوة أخرى في آسيا أو إفريقيا وأمريكا اللاتينية، ونال من هذين الخصمين اللدودين جراحاً أثخنته روحاً وجسداً، فهو معبّأ إذن بضغائن وأحقاد حيال هذين العدوّين القديمين، اللذين أنزلا به ضربات موجعة اكثر من أي عدوٌ آخر. ورغم اني لا أمتلك نفس المشاعر التي تحملها تجاه الإسلام، ولكني اعتمد على كلمتك ربما اكثر منك أنت، حيث تقول: في العالم الثالث -

ودعني أقلْ بدلاً عنك: في الشرق الأدنى والأوسط - يفوق الإسلام كافة القوى والقدرات الاجتماعية والعقائدية الأخرى في نزعة الرفض للغرب والاستعمار . . . وآمل أن ينجح أصحاب الأصالة من مفكّريكم في بثّ هذه الروح مجدداً في الجسد الخاوي للشرق الإسلامي، وذلك توعيةً لجماهير الأمة وتعبئة لطاقاتها في المعركة الدفاعية بوجه الغزو الثقافي الأوربي بما ينطوي عليه من أفكار وتصورات وإشكاليات وأجوبة وحلول مشبوهة، وذلك عبر استخراج الذخائر العظيمة المختزنة في أعماق وجدان المجتمعات الإسلامية في البعد المعنوي والثقافي والاجتماعي، وذلك من أجل تحرير الإنسانيّة وتأسيس حضارة إنسانية بديلة. وتلك رسالة بُعثت أنت وزملاؤك ونظراؤك في الفكر للقيام بها، وأنت مؤهل للقيام بها بقدر ما أنا لست كذلك. أعلم - بالطبع - أن مسعاك في هذا الاتجاه، وعلى خلاف ما يبدو للوهلة الأولى، لا ينسجم مع طموحي بتشكيل أمة واحدة ذات هدف مشترك في بلدان العالم الثالث (بل البلد الثالث في العالم)، بيد إن ما يربطنا الآن ويجمعنا إلى بعض، يقودني إلى القناعة بأنّ ما تسعى وتتطلّع إليه خطوة طولى ومدروسة وحكيمة تصبّ، في النهاية، في ما أصبو إليه أنا أيضاً.

وفي حال أعتقد أن إحياء الروح القومية والدينية تزيد من صعوبة وتعقيد مهمتنا الصعبة والمعقدة - بذاتها - في

توحيد شعوب العالم الثالث، ويبعد عن المدى المنظور، طموح تحقّق الأمة غير الموجودة الآن، أو إذا تفاءلنا كثيراً؛ الأمة التي هي الآن في حال كينونة ووجود؛ الأمر الذي كنت أخشاه دائماً.

وأنا لا أستطيع كتمان قلقي من مساعي مجاهدين عقائديين مخلصين، أمثال رجال (جامعة علماء المغرب)، الذين أكنّ لهم شديد الاحترام للدور المؤثر الذي لعبوه في مواجهة الاستعمار المعنوي والثقافي الفرنسي، لكنّ هدفك الخاص من إحياء الروح الدينية وجهودك في تحريك هذه القوى العظيمة - التي باتت الآن ضحية خلافات داخلية عقيمة، وأحياناً ضارّة، ربما أدّت إلى شلّ هذه القوى - وتوجيه هذه القوى في اتجاه نجدة جموع غفيرة من البشرية تغرق، اليوم، في مستنقع الذلّ والهوان والمسخ والاستلاب، وترى أن عودتها إلى الإسلام عودة إلى الذات العمياء المنقرضة، على نحو ما يروّج لذاك أمثال نغور[١] جوموكينياتا[٢] وكاتب ياسين عبر إحياء الوطنية الأفريقية، أو

---

(١) سياسي وشاعر وكاتب سنغالي، صار رئيساً للجمهورية من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠م حيث أقيل من منصبه.

(٢) زعيم كينيا الحديثة، قاد الثورة التي أعلنتها حركة ماو ماو ضد البريطانيين، اعتقل عام١٩٥٣، وأسندت اليه رئاسة الوزراء عام ١٩٦٣ ثم رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٤ وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٧٨م.

هنري آليس[١] عبر إحياء المدرسية، إنه طريق سلكته أنت وأضرابك، ورغم كوني أختلف معكم في تبنّيه، وربما كنت على النقيض منكم في ذلك، لكن أعلم أننا سنلتقي معاً في خاتمة المطاف، هناك، حيث يعيش الإنسان حياة حرة كريمة...)[٢].

---

(١) (١٨٥٩ - ١٩٣٩) عالم نفس بريطاني، عني بدراسة السلوك الجنسي البشري، واعتبربطل الدفاع عن حقوق المرأة.

(٢) صدرت ترجمة هذه الرسالة في فرنسا، وقد حصلت على نسختها الأصلية حول ترجمة قمت بها لـ(العام الخامس للثورة الجزائرية)، مع رسالتين أخريين كتبها إليّ من (مكتب المجاهد) ، وأعطيت هذه الرسائل (الثلاث) الى السيدة زهرة دريف التي من المقرر طبع مكاتباتها ورسائلها في تونس.

تمهيد

الغرض من دراسة التاريخ الإسلامي

١- تاريخ الإسلام يُمثل حلقة الوصل في المجرى الحضاري والتاريخ الإنساني العام، فقد ورث الحضارات البشرية القديمة في وادي الرافدين ووادي النيل والهند والصين وإيران واليونان والرومان، وصبّها في قالبه الحضاري الخاص، ومن ثمّ عاد وأعاد الأمانة إلى الحضارة الغربية الجديدة بعد أن أفل نجمه وتدهورت مكانته التاريخية والحضارية. وبهذا يكون الإسلام ناقلاً للتجارب المادية والمعنوية للإنسان القديم إلى إنسان اليوم. ودون شك، فالتعرّف الدقيق على الإسلام يعيننا كثيراً في فهم حيثيات هذا الانتقال وكيفياته، وهي قضية مهمة للغاية.

٢- لابدّ من دراسة الإسلام كشرط لدراسة النظرية الشهيرة

القائلة بـ(وحدة التاريخ الإنساني)[1]، إذ بدونه نفرّط بحلقة مهمة في سلسلة الحضارات، وسينعكس ذلك سلبيّاً على طبيعة رؤيتنا التاريخية العامة؛ الأمر الذي نلاحظه في الكثير من كتب التاريخ العام التي يؤلّفها مؤرخون غربيّون ولا يولون فيها اهتماماً مناسباً بدراسة المرحلة التاريخية للحضارية الإسلامية.

٣- إن المعرفة الحقّة والشمولية لدين الإسلام وتاريخه ودوره الحضاري، يعين أيضاً في فهم وتحليل جميع النظريات العامة المطروحة بشأن التاريخ وتقييم الكثير من المذاهب المتنوعة في تفسير فلسفة التاريخ وعلومه ونصوصه.

٤- في الإسلام، يعثر عالم الاجتماع، وبالذات، عالم الاجتماع التاريخي على أكثر المجتمعات التاريخية غناءً وسعة، ذلك أنّ المجتمع الإسلامي وعلى مدى ما ينيف عن ألف عام، كان مركزاً لتلاقي شتّى الاتجاهات القومية والعرقية، وفيه امتزجت التجارب والحضارات المختلفة في مساحة واسعة النطاق،

(١) وحدة التاريخ، نظرية تقول ان المجتمعات رغم تمثّلها عبر التاريخ بصور وحالات متنوعة إلا انها - كما يقول شليغل (Schlegel) - تشترك في الأمور العامة والكلية، وان وراء هذا التنوع والتشكل التاريخي نوع اتحاد خفيّ ومسار متصل عام. وقد تبلورت هذه الفكرة في شكل نظرية محددة في فلسفة التاريخ، منذ زمان منتسكيو وباشوفن وتبلور وماك لينان ومورغان.

وشهد ميدانه الاجتماعي الواسع شتى صفوف الحركات والثورات والنهضات الفكرية والتحالفات والانقسامات ومظاهر الرقيّ والانحطاط. ومن الطبيعي أن علم الاجتماع المعروف بحاجته الماسة للتاريخ، سيعثر هنا على اضخم مختبر علميّ من شأنه أن يقدم له خدمات جليلة في مضمار البحث العلمي والعمل على استنباط القواعد والقوانين العامة لعلم الاجتماع وكشف طبيعة العلاقات الخفية والجوانب المبهمة في منظومة المجتمع الإنساني وعقده وتشابكاته، وذلك لما يتصف به المجتمع الإسلامي من سعة وتنوع وتعقيد، خاصة وأن التاريخ والحضارة الإسلامية أقرب إلينا من سائر الحضارات القديمة ويتحلّى بدرجة أكبر من الشفافية تجعل دراسته أسهل وأجدر بالثقة والاعتماد.

٥- ويتميز التاريخ الإسلامي على ما عداه من التواريخ، بوضوح العلاقة فيه بين الدين والحضارة، الأمر الذي يعدّ اليوم من القضايا الجادة والهامة في العلوم الإنسانيّة، بالذات علم الاجتماع وعلم الإنسان. وهو، أي التاريخ الإسلامي، مؤهل أكثر من غيره لأن يصبح مضمار عمل علماء الاجتماع الديني من أمثال ماكس فيبر[١]

(١) الاقتصادي وعالم الاجتماع الألماني الشهير (١٨٦٤ - ١٩٢٠ م)، وهو صاحب =

ودوركـــهـــايـــم[(١)] ولـــوي بـــرول[(٢)]، وفـــي زمـــانـــنـــا الـــحـــاضـــر لـــوبـــراس[(٣)]، وجـــاك بـــراك[(٤)]،

= نظرية «الأنماط المثالية»، وله تحليل خاص للرأسمالية يعتبرها وليدة المذهب البروتستانتي.

(١) اميل دوركهايم عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر، مؤلف كتاب: (Les formeselementaire de la vie religieuse) له نظرية مشهورة في علم الاجتماع تقول ان جميع العلوم والفنون والفلسفة والرؤى الكونية وليدة الدين، أما الدين فهو عبارة عن تجلّي الروح الجمعية للمجتمع، فالوثن الذي يعبده أبناء مجتمع وثني إنما هو تجسيم خارجي ومادي لتلك الروح. وذلك أن المجتمع يشعر بتبعية كيانه وكيان أفراده إلى وجود ذلك الوثن أو الصنم. وفي الواقع أن الوثنية والطوطمية عبارة عن عبادة المجتمع لنفسه بواسطة شيء.

(٢) Levy Bruhl عالم اجتماع فرنسي معاصر ومجدّد، عرف بعمق دراساته وجدّة تحقيقاته حول المجتمعات البدويّة، ويذهب إلى أن الرؤية البدوية ليست هي المرحلة البدائية لرؤيتنا الكونية الحالية التي تتسق مع العقل والمنطق، والعكس صحيح ايضاً فإن رؤيتنا الحالية ليست حالة تكاملية لتلك الرؤية البدوية، بل إن الرؤية البدوية والحضارية متمايزتان عن بعضهما وغير متجانستين، وكل من الفريقين يعمل في ضوء منطقه الخاص الذي لا يمكن للآخر فهمه واستيعابه. من آثاره: الرؤية البدوية (Mentalite Primitive) والروح البدوية (Lame Primitive)، وكان آخر آثاره وأعماله الفكرية خاطراته غير المكتملة والتي نشرت بعد وفاته بعام في كتيّب حمل عنوان (الشركة = participation) الذي اشتمل على مسائل جديدة في علم الاجتماع الإنساني مع إعادة نظر في بعض آرائه العلمية المعروفة.

(٣) Le bras عميد أسبق في كلية الحقوق بباريس وخبير في علم الاجتماع الديني، نشرت له علمية ودراسات إحصائية في كتاب تحت عنوان (علم الاجتماع الديني)، نشرت له بحوث علمية ودراسات إحصائية في كتاب تحت عنوان (علم الاجتماع الديني).

(٤) J . bercque استاذي في الكلية الفرنسية (كلج دو فرانس) ، ورئيس شعبة=

وتوينبي[١]، ممن عكفوا على دراسة الدين كأحد العوامل المؤثرة - سلباً او ايجاباً - في تكوين المجتمع وحركته، وله دور بارز في تحديد شكل وطبيعة العلاقات الاجتماعية القائمة وجوهر البنى التحتية للمجتمعات القديمة، وقد وضع هؤلاء نظريات في هذا الحقل أو هم بصدد اكتشاف هكذا نظريات. وأعتقد أنهم سيعثرون في حقل التاريخ الإسلامي على أفضل أرضية لذلك، وبوسعهم ملاحقة هذا الفرع العلمي الجديد، والذي يزداد التوجه إليه في نطاق العلوم الإنسانيّة يوماً بعد يوم. إن الحكم الذي أصدرته (القرون الحديثة) في أوربا تجاه الدين تحوّل اليوم إلى قانون عام متوافق عليه في أوساط النخبة والمثقفين. والتجربة التي اكتسبتها النهضة الأوربية في هذا المجال، تتلخص في أن المسيحية وما أفرزته من هيمنة النزعة الدينية

= (الاجتماع الاسلامي) في مدرسة المتابعات العليا (Ecole des hautes etudes)، التابعة لجامعة السوربون، وهو مؤلف كتاب (العرب؛ أمس واليوم) وعنوانه بالفرنسية: (Les Arabes d'hier et d'aujourd'hui).

(١) أرنولد توينبي، فيلسوف التاريخ والحضارة وعالم الاجتماع التاريخي، والمؤرخ الكبير، ومؤلف رائعة (دراسة التاريخ = study of History) في عشرة مجلدات استقصى فيها جميع الحضارات الإنسانية، ويعتقد توينبي بأن الحضارة يجب ان تسلم زمام أمورها الى الدين، ويعتبر أن الخطر الذي يحدق بحضارة عصرنا الحالي هو خطر الإباحية والتحلّل.

والكنيسة على المجتمع الأوربي في القرون الوسطى، هي التي أوقفت مسيرة الحضارة الغربية، وحالت دون تكاملها وتطوّرها، فيما انطلقت هذه الحضارة واندفعت العلوم مزدهرةً بمجرد إقصاء الدين (المسيحية) عن موقعه الاجتماعي المتسلط وحبسه بين جدران الكنيسة.

وبالتالي فإن الحضارة الجديدة مدينة في تطورها وازدهارها لجهود المفكرين المستنيرين الذين أزاحوا عقبة الدين من طريق الحضارة والتطور العلمي. هذه التجربة الهامة والمدعومة بالحقائق التاريخية، غالباً ما تطرح في الأوساط الفكرية، على نحو يؤكد أن (الدين يتعارض ذاتاً مع العلم والحضارة، ويقيّدهما ويعترض مسار حركتهما). وقد راجت هذه الفكرة في أرجاء العالم كتجربة تاريخية بارزة، وأضحت مستنداً لنهضات فكرية واجتماعية وسياسية كبرى في أنحاء مختلفة من العالم خاصة في البلدان الإسلامية بما فيها إيران.

غير ان تعميم الحكم القاضي بأن الدين عقبة بوجه العلم والمدنية، غير صحيح، لأنه يستند إلى مورد جزئي واحد (الدين المسيحي)، وحكم كهذا يعدّ من أضعف أنواع الأحكام وأوهى أشكال الاستدلال، حيث نعلم أن الأحكام الكلية لا يمكن إصدارها إلاّ بعد ملاحظة واستقراء جزئيات

كثيرة جداً، ومع ذلك نجد أن الحكم الذي استند إلى وضع الديانة المسيحية في القرون الوسطى، يعمّم اليوم على سائر الديانات، وقد أصبح بحكم المبدأ الذي ترك آثاراً نافذة على جميع المستويات خلال القرنين الأخيرين[١].

في التاريخ وفي الحضارة الاسلامية، يبرز الدين شخصيته وحيثيته ودوره الفاعل في بناء المجتمع ورقيّه وانحطاطه. ويكتسب الإسلام أهمية مضاعفة هنا كونه مشيّداً لحضارة ومؤسساً وليس معتنقاً من قبل حضارة، كما هو الأمر بالنسبة للحضارة الرومية التي اعتنقت المسيحية. ولمّا كان الإسلام والحضارة الإسلامية أقرب الأديان والحضارات الكبرى إلى عصرنا الحالي فإن هذه الدراسة ستعطي ثماراً أفضل.

٦- نحن - باعتبارنا مسلمين وباعتبارنا إيرانيين - لنا دور كبير جداً في تشييد صرح الحضارة الإسلامية وصنع الأحداث التاريخية الكبرى على مدى أربعة عشر قرناً. لذا فإن التعرّف على الإسلام - ديناً وتاريخاً وحضارة - هو في

---

(١) ثمة مقولة معروفة للمصلح الكبير الشيخ محمد عبده مفتي مصر، وتلميذ وصديق السيد جمال الدين الأسد آبادي، العالم الثوري المشهور، وموقظ العالم الإسلامي من سباته في القرن الأخير، يقول عبده: ان اوربا تركت الدين فتقدمت وتركناه فتخلفنا! .

عين ذاته، تعرّف على إيران. إن معظم الذين يتحركون على أساس قومي ووطني، ينزعون نحو إبراز عظمة وأصالة العرق الإيراني في التاريخ عبر إحياء مفاخر الإيرانيين القدماء وآثار حضارتهم العريقة (وفي الغالب مع قدر من المبالغة والتهويل)، وبغية إنجاح مهمتهم في هذا السياق، يعمدون إلى التقليل من شأن التاريخ والحضارة الإسلامية ويتجاهلونهما، بقدر ما يستطيعون، وهذا في الواقع سذاجة منهم، ناشئة عن حالة من التعصب الأعمى، وتفضي إلى نقض الغرض والمقصود الأصلي. ذلك أن العنصر الإيراني لم يجد طوال التاريخ حقبة تاريخية يفجّر فيها طاقاته وقدراته الكامنة بقدر ما أتيح له ذلك في غضون القرون التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، وحتى لو فرضنا أن هكذا فرصة قد أتيحت للقومية الإيرانية فيما مضى، فإن الآثار والوثائق الدالة على ذلك لا تتوفر بقدر توفر الدلائل والآثار الدالة على الازدهار والتطور الذي حققه الإيرانيون في القرون التي ساد فيها الإسلام، وبالتالي لا يمكن إثبات ذلك التطور المزعوم قبل الإسلام إلاّ على سبيل الحدس والفرض والمبالغة والتهويل والمغالطة والتحريف، واللجوء إلى الاستهانة بالآخرين والعجب بالذات (كما يصنعون)، وإلاّ

فمن يستطيع إنكار قيمة العرق الذي يصفه المفكر المصريّ عبد الرحمن بدوي (أنه العرق الوحيد الذي استطاع - من بين الأعراق الداخلة في الإسلام - إيجاد نهضة معنوية عميقة في الإسلام). إيران في تاريخ الإسلام هي التي ينظر إليها الأجانب بوصفها (العنصر الآري المتعدد الواهب والملكات الذي تدين إليه الحياة المعنوية للإسلام بكل شيء)[١].

---

(١) إن معارضة المتعلّمين عندنا ومن نسمّيهم خطأ بـ(المستنيرين) - والسبب في ذلك أننا نستخدم هذه الكلمة بدل كلمة Intellectuel - إن معارضة هؤلاء للدين في البلاد الإسلامية ومنها إيران خلال النصف الثاني من هذا القرن شبيهة بمعارضة متعلمي أوربا في القرون الحديثة، والتي انطلقوا فيها على أساس ما أفضت إليه تجاربهم، وفي ضوء الانطباع الذي يحملونه عن الدين والكنيسة في القرون الوسطى، ما دعاهم الى التصدي له ولها. ويعدّ مبدأ مناوءة الدين عند متعلّمينا نموذجاً بارزاً من نماذج التقليد الأعمى للغرب والأوربيين، وإلاّ فإن نظرة هؤلاء ستكون مختلفة تماماً لو كانت لديهم أدنى معرفة موضوعية بالدين الذي ساعد على ظهور الجامعات والحواضر العلمية الكبرى والعلماء الأفذاذ في كل حقل من الحقول العلمية، والذي غمر الشرق بنوره في وقت كانت أوربا غارقة في ظلام دامس، وذلك عبر ما حمله أبناؤه من مشاعل وضاءة في العلم والمعرفة والفن والأدب والفلسفة.

ففي غضون القرون الوسطى، كان الإسلام والمسيحية يتشاطران الهيمنة المطلقة على الشرق الغرب، ونعلم ان التاريخ يطلق على تلك المرحلة في أوربا المسيحية اسم الفترة المظلمة، بينما كانت فترة القرون الوسطى في الشرق الإسلامي هي فترة الحيوية واليقظة والازدهار. وهذا حكم يصدره التاريخ استناداً إلى الوثائق العلمية والحقائق الجلية. وفي ضوء ذلك فإن من ينبرون من =

٧- من خلال التمعّن في معطيات الحضارة الإسلامية نكتشف نحن - كإيرانيين ومسلمين وشرقيين - شخصياتنا وقدراتنا في تكوين حضارة وإدارة شؤونها، وندحض الأحدوثة التي نسجها الغربيّون نظرياً وقرّروها عملياً، حيث قيل: (إن الشرقي وعقليّته لا ينسجمان مع عصر الآلة وسيطرة النظم الإدارية المعقدة اليوم)، ولهذا يجب أن يبقى الشرقي - حسب زعمهم - منتجاً للمواد الأولية ومستهلكاً للمنتجات الصناعية وتابعاً للحضارة الغربية الكبرى على الصعيد الإداري والصناعي[١].

لا تتصوروا أبداً أن هذه (النظرية) المغرضة يروّج لها - فحسب - دعاة التبشير الغربي والاستعماري، لكي يبرروا

= مثقفينا لمعارضة الإسلام، هم في الحقيقة يجهلون الإسلام ولا يعرفون شيئاً عن التاريخ، سوى أنهم أتقنوا لغة أوربية وآراء الأوربيين بشأن دينهم، ومن ثم تقليدها. يا للعجب! إنهم يشبهون بذلك قاضياً يستعيض عن التحقيق في حيثيات قضية المتهم بترجمة حكم أصدرته إحدى المحاكم البريطانية تجاه متهم آخر لمجرّد القناعة بأن هذه القضاء البريطاني متطور للغاية!

ربما يسعنا إصدار حكم عام على الدين ودوره في الحضارة، ولكن فقط في حال ما إذا بحثنا الأديان جميعاً ولم نكتف بالمسيحية، وإلاّ كنّا كمن ينظر الى النعامة فيرى ان لها جناحين ولكن لا تطير، فيعمّم هذا الحكم على سائر الطيور!

(١) راجع: (روح الأمم) لـ زيغفريد، و(الاستعمار) لـ أميه سزار، و(جذور عدم المساواة بين الأعراق البشرية) لـ كنت دوغوبنيو.

استعمارهم وهيمنتهم للعالم الشرقي، بل إن مفكرين من أضراب زيغفريد[١] ذهبوا إلى هذه القناعة، فقالوا إن الشعر والأدب والعرفان هي الأمور المتأصلة في الإنسان الشرقي والمنسجمة مع روحيّته.

ولعلّهم، لأجل ذلك وبغية إثبات زعمهم هذا، يقصرون اهتمامهم على إحياء تراثنا الأدبي والعرفاني، ويكرّسون الحديث عنه في الداخل والخارج متجاهلين الإشارة إلى المنجزات الجبارة التي ينطوي عليها ألف عام من تاريخ الحضارة الإسلامية، على الأصعدة العلمية والتقنية والسياسية، ويشهد لذلك قضية الاهتمام المكثف بشعر خيام كأنموذج (بارز) لحضارتنا وتاريخنا.

٨- إذا كان لدراسة تاريخ الحضارات السابقة وسيرة المجتمعات والأديان والمذاهب الفكرية والتجارب العلمية الإنسانيّة المتنوعة، أثر مفيد ونافع لإنسان اليوم والغد، فإن هذا الشأن يتجلّى اكثر في دراسة تاريخ الإسلام الذي استطاع بفضل كونه واحداً من الأديان الكبرى الثلاثة لأمم وشعوب العالم القديم، أن يجمع الأرصدة والذخائر

---

(١) العضو في الأكاديمية الفرنسية ومؤلف كتاب : (L'Ame des peuples).

المادية والمعنوية لتلك الأمم والشعوب، ويصهرها في صرح حضاري عظيم ظلّ شامخاً عبر أربعة عشر قرناً من الزمن وخاض خلالها شتى التجارب والمخاضات الحضارية.

٩- ورغم أفول نجم الحضارة الإسلامية، ما زالت الروح والحركة والحيوية والنشاط تدبّ في هيكل هذا المارد العظيم، خلال هذا القرن، وخاصة عقيب الحرب العالمية الثانية، حيث ظهرت بوادر صحوة إسلامية واسعة النطاق، وأخذ العالم الإسلامي يدرك مكانته كأحد القوى والعناصر المؤثرة على الصعيد الدولي، أضف إلى ذلك ارتباط الإسلام المباشر بنا، ما يجعل من المهمّ جداً مطالعة الإسلام ماهية وتاريخاً وحضارة، كيما يعيننا ذلك على درك العديد من القضايا الراهنة في دنيا الشرق.

١٠- لقد قدّر لإيران منذ منتصف القرن السابع الميلادي أي نهايات العهد الساساني وإلى يومنا هذا، أن تظل ممتزجة بالإسلام معجونة به، وقد اتحد الاثنان إلى حدٍّ كبير في المسار التاريخي لكل منهما. وبالتالي، فان من العبث بمكان السعي لفهم إيران وتاريخها فهماً حقيقياً واقعياً دون أن يكون للباحث إلمام كاف ومعرفة وافية بطبيعة الإسلام وتاريخه، وهذا النقص ظاهر في كل البحوث والدراسات

التي نهض لها أناس اكتفوا بمطالعة جانب من التاريخ الإيراني أو كل هذا التاريخ، ولكن بمعزل عن البعد الإسلامي فيه.

١١- إن مجتمعنا الحالي ما زال يصنّف في عداد المجتمعات الدينية، وما زال الإسلام حاضراً في صميم هذا المجتمع روحاً وفكراً وسلوكاً، وعليه فان التعرف الصحيح على المجتمع الإيراني، يستلزم الوقوف أولاً على هذه الروح ودراسة خصائصها.

القسم الأول

ما هو الإسلام؟

الأحداث التاريخية على قسمين: الأول منها ناجم عن وقائع ومبررات سياسية واقتصادية كبرى نظير ظهور واستقرار السلوقيين[١] إثر الانتصار العالمي الكبير للاسكندر، أو استيلاء المغول على البلاد الإسلامية عقب حملة جنكيزخان، ومثالها من عصرنا الحاضر؛ الحربان الكونيتان الأولى والثانية اللتان وقعتا على خلفية مشاكل سياسية واقتصادية بين الدول.

والقسم الثاني من الأحداث التاريخية ينبثق من دواعٍ فكرية أيديولوجية تستند إلى مبدأ ديني أو عقائدي أو فكري.

وبموجب قواعد البحث التاريخي لابد من اعتماد منهج خاص في دراسة الأحداث من أيّ القسمين، فالوقائع المصنّفة على القسم الأول تقتضي مزيداً من التدقيق في سلسلة الأحداث

---

(١) أسرة مقدونية حاكمة (٣١٢ - ٦٤ق.م). أسسها في سوريا سلوقس الأول أحد قواد الإسكندر الكبير. بسطت سلطانها في بادئ الأمر على رقعة واسعة من الارض من تراقيا (في شبه جزيرة البلقان) إلى الهند، وما لبثت أن انكمشت.

وتوضيح الظروف والعوامل المادية والاقتصادية، ونوع العلاقات السياسية والاجتماعية السائدة في ظروف الحدث، بينما يتطلب القسم الثاني من الوقائع والأحداث أن تكون هناك معرفة بالمبادئ الأيديولوجية لفكر أو دين معيّن، وذلك أن هذا الفكر أو ذلك الدين هو المنبع والمنطلق الرئيسي لتلك الأحداث والوقائع التاريخية، والتي قد تمهد لظهور عصر جديد أو حضارة جديدة أو ولادة مجتمع يستمّد جذوره ويرسي دعائم وجوده على أساس ذلك المبدأ أو الدين، أو على الأقل يشيّد تركيبته البنيوية في ضوء ما يمليه هذا المبدأ والمعتقد من قيم ومعايير.

ومن اللازم إذن للمؤرخ الذي يبغي التعرف على تاريخ تلك الحقبة الزمنية والعصر المدني أن ينقّب ويبحث في زوايا وخبايا ذلك المبدأ العقيدي أو الديني عن دلائل وأرقام تقوده إلى تكوين فكرة واقعية عن الحدث أو الظاهرة الاجتماعية.

هل في ميسورنا أن نفهم حقيقة كفاح العمال الأوروبيين في إنجلترا وفرنسا وألمانيا إبان القرن التاسع عشر، من دون أن يكون لدينا معرفة وإلمام بأفكار ونظريات سان سيمون[١]

---

(١) Saint Simon عالم الاجتماع الفرنسي وصاحب النظرية المعروفة (المجتمع الصناعي والطبقة الصناعية)، يعدّ من أوائل الممهدين للاشتراكية والماركسية ومذاهب اليسار الاقتصادي.

وبرودن[١] والسنديكالية[٢] والراديكالية اليسارية[٣]، أم كيف نتفهم ثورة أكتوبر في روسيا دون فهم واستشراف عميق لمعنى الماركسية ونظرياتها.

في ضوء ذلك لن يكون بوسع المؤرخ أن يعي طبيعة الحياة العامة لشعوب أفريقيا وآسيا وأوروبا من القرن السابع وحتى الآن ما لم يكن لديه تصور واضح عن حقيقة الإسلام وماهيته وطبيعة أهدافه ورسالاته وكذلك المآل الذي آل إليه، خاصة في مجتمعات يطلق عليها علماء الاجتماع اسم (المجتمعات التاريخية أو الأرشيفية)[٤] والتي ترتسي دعائم

---

(١) Proudhon عالم الاجتماعي السنديكالي الفرنسي الشهير والذي كان لأفكاره أثر ملحوظ وملموس في بلورة الفكر السياسي والاجتماعي لماركس. وهو مؤلف كتاب (ماهية الملكية)، وإليه تنسب المقولة الشهيرة (الملكية شكل من أشكال السرقة). كان له دور فاعل ومؤثر في قيادة الحركات العمالية في فرنسا وألمانيا وإنجلترا. وفي أوج شهرة ونفوذ برودن، كان ماركس لا يزال فيلسوفاً هيجلياً واعداً، غير أنه راح يشتهر فكراً وعملاً، يوماً بعد يوم، حتى أزاح برودن واحتلّ مكانته، فأمكن القول أن برودن مات قبل يوم وفاته بكثير.

(٢) السنديكالية (Syndicalisme) مذهب اجتماعي قائم على أساس الحفاظ على المصالح المهنية.

(٣) الراديكالية اليسارية (Radicalisme gauche) مذهب و حركة اجتماعية تهدف إلى تغيير جذري في المباني الرئيسية للمجتمع والحضارة القائمة.

(٤) المجتمعات الأرشيفية (Archaifue) أو (المجتمع التراثي) ويراد منها المجتمعات البدائية وغير المتحضّرة، وقد تبانى علماء الاجتماع مؤخراً على إطلاق هذه الصفة عليها تأدباً ومراعاة للذوق السليم. أما (المجتمعات التاريخية=

حياتها المعنوية والأخلاقية والأدبية والفنية والكثير من علاقاتها المادية والاجتماعية، على الدين وقيمه ومعاييره، أو على الأقل تتأثر بها تأثراً شديداً.

ويعدّ التعرف على الدين في حالات من هذا القبيل بمثابة المفتاح لفهم المسار التاريخي لتلك المجتمعات وإدراك أوجه نموّها الحضاري.

من هذا المنطلق أرى من الواجب أن نتعرف بادئ ذي بدء على الإسلام فيما لو أردنا دراسة (تاريخ إيران ما بعد الإسلام إلى زمان الحكم الغزنوي)[١] والذي هو محور منهجنا لهذا العام الدراسي. ففي هذه الحقبة الزمنية كان الإسلام يمثل نبض

= (Societe historique) فهي عبارة عن المجتمعات القديمة التي نالت حظاً من الحضارة فلا تصنّف على البدائية ولا تصنّف على المدنيّة الحديثة، وذلك نظير مجتمعات مصر والصين والهند وإيران واليونان. وفي ضوء ذلك تصنّف المجتمعات البشرية إلى ثلاثة أصناف رئيسية:

أ - المجتمعات الوحشية (Sauvage.Soc) أو البدائية (Primitives.Soc) أو الأرشيفية الأثرية (Archaiques).

ب . المجتمعات التاريخية.

ج . المجتمعات الحديثة. (modernes.Soc).

(١) نسبة إلى (غزنة) مدينة ومركز تجاري في الجزء الشرقي من وسط أفغانستان. يرقى تاريخها، في أغلب الظن، إلى القرن السابع للميلاد على الأقل. ازدهرت بخاصة في عهد السلطان محمود الغزنويّ الذي جعل منها مركزاً ثقافياً منافساً لبغداد. سكانها ٦٠,٠٠٠ نسمة.

مجتمعنا وكانت الأفكار والمشاعر والأحاسيس الدينية هي الدماء التي تسري في عروق هذا المجتمع. إن عالم النفس الذي يريد أن يقترب من روح ووجدان المريض الذي يتولى علاجه كي يكتشف نقاط قوته وضعفه، لا يجد مناصاً من الخوض في عقائده وأفكاره الدينية واختبار نزعته الإيمانية وممارساته الدينية ووظائفه التي يحرص على الإتيان بها انقياداً لأوامر وتعاليم الدين الذي يعتنقه، وإلاّ تصبح كل النتائج والأحكام النهائية التي يتوصل إليها سطحية وآنيّة، وسوف يفوّت على نفسه فرصة الكشف عن حقائق كثيرة.

وتعود بداية تاريخ إيران ما بعد الإسلام إلى لحظة انهيار الحضارة الساسانية وحكومتها الامبراطورية أمام الغزو العربي. وعلينا بدءً أن نفهم سرّ انهيار هذه الحضارة، وقبال من حصل هذا الانهيار، وكيف استساغت أمة متحضرة لنفسها أن تستسلم سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعقائدياً أمام أمة بدائية، وتنقاد للدين الذي جاءت به.

هنا لابد من توخي اليقظة والحذر من أن نُسقط تصوراتنا الحالية عن الإسلام على إسلام يومذاك، فبين إسلامنا الحالي وإسلام القرن السابع الميلادي والذي تغلّب على الامبراطورية الساسانية، بون شاسع يمتد على مسافة طولها أربعة عشر قرناً من الزمن، وخلال هذه الفترة الطويلة طرأت على وجهة الإسلام

تحولات كثيرة على الأصعدة الفكرية والعاطفية واكتسبت هويته ملامح جديدة عبر الاحتكاك بثقافات متنوعة، وعلى حدّ تعبير الشاعر قاصداً النبي:

فشتان أولاهما والأخيرة

أهالوا عليه فاتٍ كثيرة

ليس هناك قيمة لدراسة الإسلام الحالي من أجل التعرف على الإسلام في الحقبة التاريخية التي هي موضوع البحث (إيران ما بعد الإسلام إلى العهد الغزنوي).. يجب علينا أن نتعرف على الإسلام الذي اكتسح إيران بعد معركتي القادسية والنهروان وانبرى للقضاء على الديانة الزرادشتية والمانوية[١] والمزدكية[٢] واليهودية وإخضاعها.

وبغية تحقيق هذا الغرض لا مناص من السعي لاعتماد أوثق المصادر التاريخية لتلك الحقبة وأقدمها، والذي يمثل المصدر الحقيقي للفكر والعقيدة الإسلامية.

لقد سعى فريد وجدي في موسوعته (دائرة معارف القرن

---

(١) نسبة إلى ماني (٢١٦ - ٢٧٤ق م): نبي فارسي دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنوية (الملوية= Manichaeus) أسره كهّان فارس الزرادشتيون فمات في أسرهم. يعرف بـ(رسول النور= Apostle of Light).

(٢) نسبة إلى مزدك (توفي عام ٥٢٨ق م): زعيم ديني فارسي. قاد حركة اشتراكية مناهضة للزرادشتية السائدة في عهده، وأسس المزدكية التي دعت إلى المشاركة في الأموال والنساء.

العشرين) وفي مادة (سلم) إلى استنباط الأركان الرئيسية للدين الإسلامي عبر استنطاق النص القرآني. ومن الواضح أن تتجلى في عمله هذا النزعة التجديدية لمفكر مستنير ينتمي إلى القرن التاسع عشر[١]، إلاّ ان الرجل وفّق كثيراً في جعل مستنده الأساس نصوص الآيات والشواهد التاريخية

المروية، وذلك على خلاف المتكلمين الإسلاميين الأوائل الذين حاكموا الإسلام وتعرّفوا عليه عبر ناظور الفلسفة اليونانية، وكذلك الجيل الجديد من المفكرين المتأثرين - مدرسياً - بالغرب والذين وقعوا في الخطأ ذاته لدى دراستهم

---

(١) التجديد المتطرف والعزوف عن كل ما فيه رائحة الماضي أو الدين، والمبالغة في التظاهر بوجود النزعة التجديدية والإصرار على النظر إلى الأمور عبر منظار العلم الحديث، كلها خصائص الرؤية الاجتماعية التي سادت في أوروبا في القرن التاسع عشر وهي الحقبة التي يطلق عليها اسم مرحلة العلمنة(Scientisme)، إذ تزامنت هذه المرحلة مع خروج العلوم الحديثة منتصرة من المعركة مع مسيحية القرون الوسطى، وهي مغرورة بتمكنها من إلحاق هزيمة نكراء بامبراطورية الكنيسة وزعيمها الأعظم (أرسطو).

مضافاً إلى أن العلم كان يطوي مرحلة المراهقة ويعيش إرهاصاتها، فانضمّ غرور المراهقة إلى نشوة الانتصار، وصار العلم أميراً مغروراً أحمق ذا نزعة عدوانية، يتطفل على كل شيء ويداهم كل موضع ويتحدى الجميع ويتعالى على ما سواه، أما اليوم فقد تواضع العلم بشكل لم يسبق له على حد تعبير جورج غورويتش عالم الاجتماع الكبير المعاصر. غير أن العلم مازال في أوساطنا ذلك الفتى المدلل على غرار ما كان عليه إبان القرن السابق، ولم تتسلل إليه لحدّ الآن روحية اللاّجزم والرؤية العلمية المتواضعة للقرن العشرين.

للإسلام فنظروا إليه عبر ناظور الثورة الفرنسية الكبرى والأومانية والديمقراطية الغربية.

حركة في نطاق عصر النهضة الأوروبية قوامها إحياء الدراسات الكلاسيكية، الإغريقية واللاتينية، وتعزيز النزعة الفردية وروح النقد، والتأكيد على ضرورة الانشغال بقضايا الإنسان وهمومه الدنيوية أو اليومية، وبذلك قاومت كثيرا من تعاليم الكنيسة.

وهنا لا أقتصر على إيراد الأركان الإسلامية التي استنبطها فريد وجدي من القرآن، بل أبذل وسعي لتوضيح القضايا ذات الصلة بالصدر الأول للإسلام وأرى أن ذكرها ضروري ومفيد، وذلك وصولاً إلى تحقيق الهدف الرئيسي من بحث الإسلام فكراً وعقيدة، وتمهيداً لغاية الاقتراب من صميم الواقع الروحي والمعنوي للمجتمع المسلم في إيران:

الأركان الرئيسية للإسلام الأول[1]

١. إيجاد علاقة مباشرة بين الله والإنسان:

هناك صنفان رئيسيان من الأسباب والعلل الكامنة وراء ظاهرة التعدد الطبقي في المجتمع؛ الصنف الأول هو الظروف

---

(١) اقتصرت هنا على اقتباس عناوين الأركان من فريد وجدي، أما البراهين والاستدلالات والتفاصيل الأخرى فهي جميعاً منّي. (المؤلف).

السياسية والاقتصادية وطبيعة العمل، وبعبارة أشمل؛ جميع العوامل المادية في الحياة الاجتماعية. أما الصنف الآخر من علل الظاهرة الطبقية وأسبابها، فهو طبيعة العقائد الدينية والمتبنيات القومية لمجتمع معين. ومما يؤسف له أن علم الاجتماع لم يكرّس فيه لحدّ الآن مجال وافٍ لبحث ودراسة الظاهرة الطبقية الناجمة عن عوامل فكرية وعقائدية في المجتمع. وبناء على تصور سياسي واجتماعي خاص، يرى فريق من علماء الاجتماع أن هذا النمط في التعدد الطبقي يعود في النهاية إلى أمور مادية وعوامل اقتصادية أيضاً، وفي الحقيقة ليس هناك صنفان من العلل والأسباب الموجبة لظهور الطبقات في المجتمع. غير أنني أختلف تماماً مع هؤلاء وأرى أن ثمة صنفين من المظاهر الطبقية، وبينهما اختلاف جوهري واضح.

وكلما عدنا إلى الوراء في عمود التاريخ، وأمعنّا النظر في خصائص المجتمعات التاريخية القديمة، سيكون بوسعنا استجلاء هذا النمط الطبقي، وأعتقد أيضاً أن إحدى خصائص المجتمعات القريبة منا - زمنياً - هو ضعف وغياب هذا النمط من التعدد الطبقي، وهذا بدوره يعني أن الإنسانيّة تتجه في مسارها التكاملي نحو تضعيف المظاهر الطبقية المستندة إلى أبعاد وأسس عقائدية، وإحلال المظاهر الطبقية ذات البعد الاقتصادي محلّها، ومن يدري لعل القرون القادمة ستشهد زوال المظاهر الطبقية الاقتصادية أيضاً.

لقد أسهمت الارستقراطية بمعناها الحقيقي[١]، القائم على أساس التمييز العرقي والأسري، في إيجاد طبقة خاصة من الأشراف والنبلاء في المجتمع، ولمّا كان الإيمان بأصالة الدم والنسب موّجباً لظهور هذه الطبقة؛ بالتالي فإن ضعف هذا الاعتقاد واضمحلاله في أذهان الناس، يقود إلى زعزعة الدعائم الاجتماعية للأرستقراطية، ومما شهدناه في السابق ونشهده اليوم على صعيد التاريخ الإسلامي، أن إيمان المسلمين بوجود فضائل خاصة لذرية النبي، وذلك في ضوء تأثرهم بمبدأ قداسة العرق، قاد إلى ظهور طبقية عرقية خاصة لها نفوذ كبير وواضح، بحيث لا يكون بوسع

(١) الارستقراطية (Aristochratie) أو حكومة النبلاء، والمصطلح مركب من (Aristo) بمعنى النبيل و(Chratie) وتعني الحكومة. وبمقتضاها عدم منح الحكومة لمن ينتخبه الناس ويختارونه (الديمقراطية)، بل لابد أن يكون الفرد أو الجماعة التي يراد لها أن تتحكم بمصير المجتمع متحلّية بنوع من الأفضلية والأرجحية بالنسبة لمن سواهم من العوام. وهذه الأفضلية تارة تتجسد بموهبة العلم على حسب ما قرّره افلاطون، أو تبتني على نوع الدم والعرق كما يذهب إلى ذلك الكثير من المجتمعات التاريخية. والارستقراطية الدينية التي وطّأت لها في الحديث تعني أن المجتمعات الدينية يرى أبناؤها أن نفس كون الشيء واسطة بين الخالق والمخلوق يمنحه في نظر الناس فضلاً وأرجحية وكرامة وقدسية، بموجبها تثبت له الحاكمية والتفوق الذاتي والسموّ الطبقي وبالتالي السياسي، وهذا الأمر بحدّ ذاته يمهّد لظهور الطبقة الحاكمة والمجتمع الطبقي ويهدد وحدة المجتمع وانسجامه ومبدأ المساواة العامة في الحقوق السياسية والاقتصادية والقضائية لأبنائه، وسوف يعيق نمو المجتمع وازدهاره ويحول دون سيادة الديمقراطية ليحلّ محلّها الاستبداد والكبت الديني.

المتتبع للتاريخ الإسلامي إلاّ ان يذعن لحقيقة أن السادة، عباسيين وهاشميين وغيرهم من المنتسبين إلى أهل البيت، كان لهم الدور الأكبر في مجمل الحركات السياسية والشيعية، والتي أسفرت عن زوال ملك بني أمية وصعود بني العباس إلى دفة الحكم، ويمكن أن نلحظ أثر هذه الظاهرة بجلاء في الحركة الصفوية، كما يمكن أن نلحظها اليوم في الأوساط الدينية حيث تبرز ظاهرة تكريم السادة المتصلين نسبياً بالنبي، على نحو جليّ لا خفاء فيه. إن واحدة من أكبر الطبقات العقائدية على مرّ التاريخ هي طبقة رجال الدين التي كانت تعدّ الطبقة الفضلى في مجتمعات ما قبل التاريخ وما بعده، وهي الطبقة الوحيدة التي حافظت على مكانتها في الصدارة ونفوذها، عبر التاريخ، ورغم مرور المجتمعات الإنسانيّة بمراحل تكامل مختلفة، وطروّ تحولات تاريخية شتى (بدءً بالمجتمع البدوي فالريفي فالمدني، ومروراً بالمجتمعات الإقطاعية والبورجوازية وغيرها).

الأساس في ظهور هذه الطبقة رواج فكرة أن ارتباط الناس بالآلهة وقيامهم بالطقوس العبادية لا يستقيم إلا عبر وسائط تؤمّن هذا الارتباط وتشرف على عقائد العوام وتصوغ لهم أفكارهم، وظلّت طبقة رجال الدين (على شتى أنواعهم من سحرة وكهنة وأحبار وقساوسة وموابدة)[١] هي الأكثر نفوذاً في حياة الناس،

---

(١) جمع (موبد): لقب رجل الدين في الديانة الزرادشتية.

الاجتماعية عموماً والمعنوية على وجه الخصوص.

ورغم أن ظهور هذه الطبقة من رجال الدين يساعد على بلورة الأفكار والممارسات الدينية لأبناء مجتمع معين، وتحكيم وحدتهم السياسية والاجتماعية ورصّ صفوف المؤمنين، وبالتالي فرض اقتدار الدين وترسيخ دعائمه في نفوس الناس، بيد أن هذه الرسمية والمركزية تقود في الغالب إلى نوع من التحجّر الديني، إذ أن الموقع المتقدم الذي يراه رجال الدين لأنفسهم في المجتمع يؤدي إلى ظهور ضرب من الغرور والتعصب لديهم، يولّد في أنفسهم شعوراً بالمسؤولية للوقوف بوجه أية فكرة جديدة وكل حركة تصحيحية مجددة لا تتّسق - بزعمهم - مع الموازين والمعايير القديمة، ويدينون البدعة(١)(*)، وهي ضرورة

---

(١) البدعة (Noyatio) ظاهرة مرفوضة بين أوساط المسلمين، والجدير بالذكر أن من الماركسيين اليوم من يعتبر التجديد في فكر ماركس (revesionisme , revsion) خطيئة لا تغتفر، وقد ذهب الرئيس اليوغسلافي (تيتو) ضحية هذا المنحى من التفكير.

(*) البدعة بمعنى إدخال ما ليس من الدين في الدين، وهي عندي على نحوين: متوافقة وغير متوافقة، فالأولى المتوافقة مع الدين هي وليدة حتمية الزمان، وهي مورد قبول لدى المجتهد الحقيقي، الخبير والمحقق الواعي بالإسلام، العارف بشؤون المجتمع وحاجاته وتطلّعاته.

ومما لا شك فيه أننا نرفض البدعة بمعناها الاصطلاحي وهي الأمور الطارئة على الدين مما لا تتوافق مع روحه ومضامينه. وما عرضت له هنا هو السبب الذي أفضى إلى انحصار لفظ البدعة في المعاني الانحرافية ووجود نفس هذه=

ملحة للحياة والكمال والسنن التي لا تتبدل. وفي ضوء ذلك، نجد أن الدين الذي كان في بدء ظهوره حركة ثورية تجديدية وفكرة إبداعية، بات يتخذ لنفسه قالباً جامداً متحولاً إلى (مؤسسة لرجال الدين) ذات نزعة محافظة ومتحجرة، وينتحل صفة شرطي يدافع عن مظاهر الكبت والخنق والسكون والسلفية، ويحارب كل قادم جديد. وها هنا نعثر على أوضح الأمثلة وأجلى المصاديق لنظرية المعارضين لمبدأ الـ (Institutionnalizme)[١] والمؤمنين بأن كل حركة (Movement) تحمل في صميم ذاتها ونظامها البنيويّ (Istitution) ما يعيق حركتها ويقودها نحو الركود والجمود. فالمسيحية كانت في باكورة نشوئها حركة نهضوية، وبمجرد وصولها إلى موقع السلطة تبدّلت إلى هيكل جامد راكد يدعى (مؤسسة الكنيسة والجهاز البابوي). والماركسية أيضاً بدأت حركة ثورية، فيما نراها اليوم تفقد تدريجياً طابعها

= اللفظة في الأدب المسيحي، فالكلام هنا في وجه اختيار البدعة بهذا اللفظ بالذات، وليس في مرفوضيتها وكونها خيانة للدين فإن هذا مما لا شك فيه. (إضافة لاحقة من المؤلف).

(١) مذهب اجتماعي يرى أن وظيفة علم الاجتماع التعرف على مكونات المجتمع، وأن للمجتمع مكونات رئيسية من قبيل الأسرة والمدرسة والدين والحكومة وقوانين المكتبة، كما أن هناك مكونات ثانوية للمجتمع تشمل المراكز والمؤسسات العامة كالمكتبات والبنوك ودوائر البريد والبلديات، يراجع: Cuvillier Dictionnaire de Sociolog .

الحركي وتكتسب طابعاً محافظاً يقف بوجه الحركات الفكرية والفتيّة. والشيء نفسه يقال بالنسبة للتشيع الذي كان في بداياته الأولى نهضة ثورية تجديدية، وما أن جاء الصفويون إذا به يتحول إلى نظام ثابت جامد.

إن غاية الإسلام هي رفع الحواجز والحجب بين الإنسان وربّه، وبغية تحصيل هذه الغاية يضع الإسلام في أولوياته مهمة إيجاد حلقة اتصال مباشر بين الطرفين. وفي ضوء ذلك لا نرى مكاناً في الإسلام لكيان رسمي متشكل من رجال الدين، ولا مجال في هذا الدين لظهور سلسلة مراتب ومواقع يشغلها رجال الدين بحيث يكون قبول الأعمال العبادية والعقائدية للفرد المسلم منوطاً بإذن من هؤلاء أو وساطتهم لدى الرب لمصلحة العبد[١] . . . الرب الذي يتحدث عنه القرآن لا يتصف بجبروت (يهوه)[٢] ولا عنفه، وليس هو ببعيد عن أحلام العوام كالإله

---

(١) المقارنة بين التشيع في لبنان والتشيع في إيران في وقتنا الحاضر (التشيع قبل الصفوية وبعدها)، وبين شيوعية فيتنام وأمريكا اللاتينية وشيوعية الاتحاد السوفييتي، وبين الوطنية في أفريقيا والوطنية في أوروبا الغربية، وبين الفقه الإسلامي قبل تأسيس المذاهب الرسمية الأربعة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي) والفقه بعد تلك المذاهب، هذه المقارنة من شأنها أن تميط اللثام عن إمكانية ظهور فكر واحد ومعتقد واحد بمظهرين متفاوتين؛ حركة نهضوية ونظام مستقر، ولكلٍّ حالاته وخصوصياته.

(٢) إله بني إسرائيل (Yahweh) اختلف في حقيقة معناه، ولكن كثيرا من الباحثين يذهبون إلى القول إنه يعني (خالق كل موجود).

الذي يؤمن به أفلاطون، وا أنه مثل إله (ابيكتت)[١] الذي يشتبه أمره مع (روح الأشياء)[٢]. الرب في القرآن قريب جداً من العبد وفي متناول الجميع، إنّه حبيب من يحبه، وهو يبالغ في التصريح برغبته بأن يقترب منه الإنسان أكثر فأكثر، حتى أنه ليتاهى بأنه أقرب إلى الإنسان من نفسه . . . بهذا يحول الإسلام دون ظهور نوع من (الارستقراطية الدينية) أو الطبقية الاجتماعية وصنوف التمييز العرقي أو الفئوي. الإسلام يرفض التحجر والجمود ويشجب الرجعية والسلفية ولا يقرّ وجود مراكز كبت رسمي و(استبداد ديني كهنوتي)[٣] في المجتمع. ولنتمعّن قليلاً

---

(١) أبيكتيت (Epictete) فيلسوف رواقي ظهر في روما في القرن الميلادي الأول.

(٢) يراجع: (المناجاة) للبروفيسور أليكس كارل، ترجمة المؤلف.

(٣) هذا المصطلح العلمي المعمق يعود إلى المرجع الشيعي الكبير المرحوم الشيخ محمد حسين النائيني من علماء النصف الأول لهذا القرن، ألّف كتاباً في إثبات أحقية نهضة المشروطة والردّ على الفلسفة السياسية السائدة بين عوام الشيعة (والتشيع منها براء) والقاضية بأن أي محاولة لإصلاح المجتمع قبل ظهور الإمام الغائب وأية مشاركة سياسية بهذا القصد، تعدّ تدخّلاً في شؤون الإمام الذي هو المنقذ والمصلح الحقيقي، ناهيك عن أن أي مسعى لإصلاح المجتمع وتحجيم مظاهر الفساد يؤول في النهاية إلى تأخير ظهور الإمام المتوقف على أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً وفساداً. ثم أن اشتراك الناس في اختيار الحاكم وانتخاب أعضاء الحكومة من بين أوساط الناس يتنافى مع مبدأ الحكم عند الشيعة حيث تعدّ الحكومة شأناً إلهياً، والحاكم يجب ـ في القراءة الشيعية ـ أن ينصّب ويعيّن من قبل الله تعالى.

وبعد تعتيم وتغييب دام زهاء نصف قرن طبع هذا الكتاب الموسوم (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة)، وذلك في عام ١٩٥٥م. مع هوامش توضيحية وتعليقات غنية =

في الآيات التالية:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾[١] والآية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٢].

في العبادات الجماعية التي لابدّ فيها من تصدّي شخص معين ليكون إماماً للجماعة، لا يشترط في ذلك الشخص أن يكون صاحب منصب رسمي، بل من حق أيّ كان أن ينبري لإمامة الجماعة، فقيهاً كان أم خطيباً، عالماً أم عاملاً، طبيباً أم كاسباً . . . وذلك شريطة أن يتوفر على صفة العدالة، وهي فضيلة أخلاقية عامة وليست حكراً على طبقة معينة أو شريحة خاصة أو سمة رسمية.

= لآية الله الطالقاني. والكتاب يتضمن توضيح معالم نظرية الاستبداد الديني والمباحث العلمية والاجتماعية والدينية المتداولة في القرون الأخيرة، بدء بالحركة البروتستانتية والفكر العلماني (Laicisation) الرامي إلى علمنة الحكومة والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والثقافية ونظرية تحول الحركة إلى كيان ونظام رسمي جامد ومستقر - وهو ما أشرت إليه سالفاً - ومروراً بمراحل ظهور الأرستقراطية الدينية وإيجاد الطبقة العقيدية (وهو مما أشرنا إليه أيضاً)، وانتهاءً بالتعرض لروح الاستدلال العلمي لدى الطبقة المستنيرة في أوربا في عصر النهضة، مع أهم وأبرز الأدلة والبراهين المنطقية التي عمدوا إليها في محاججة سلطة الكنيسة والجهاز البابوي المتشبّث بعقائد القرون الوسطى.

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) ق : ١٦ .

وفي العهد العباسي أضفيت سمة رسمية على أربعة مذاهب هي الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، ومن ثم حيل دون الترويج لما سواها من المذاهب، وكان ذلك باكورة تكريس دعائم (الروحانية) بطابعها الرسمي، مما كان له أثر فادح ومشؤوم في خنق الآراء والمعتقدات وكبت روح الاجتهاد والتجديد وإعاقة مسيرة التطور في تاريخ الإسلام والمسلمين. ونظراً للمناخ السياسي الخاص الذي عانى منه الشيعة على الدوام، فقد كان للمذهب الشيعي منذ ظهوره نوع من التشكّل والتنظيم الديني، وذلك أن الشيعة كانوا دائماً أقلية مضطهدة في النظام الإسلامي، وكان لابد لهم من اللجوء إلى العمل المنظم تحت قيادة مركزية محددة. ولمّا كان الهدف الأساسي من إيجاد هذه التشكيلات خدمة الدين والمذهب، فلا مناص إذن من أن يكون الجهاز القيادي لهذه التشكيلات مؤلفاً من رجال الدين، وبمرور الوقت تحوّل هذا الجهاز إلى طبقة شبه رسمية من رجال الدين.

س : ما هو رأيكم الآن برجال الدين في ضوء هذه الحقيقة؟

ج : أن تطور العلوم والمعارف وتنامي المتطلبات المادية والمعنوية لحياة الإنسان أفرزا تعقيداً إضافياً في العلاقات الاجتماعية، وبالتالي نشأت أحكام ومسائل شرعية جديدة، ما

أفضى بالتدريج إلى خلق ظاهرة التخصص، تماماً كما حصل مع الحكمة اليونانية. ومن هنا ظهر تلقائياً أفراد جدد وقفوا حياتهم من أجل تعلّم الدين وتعليمه، وذلك أن الإحاطة بالمسائل الشرعية الضرورية لم يعد أمراً متيسراً للجميع على غرار ما كان معمولاً به في صدر الإسلام من الإحاطة بهذه المسائل على هامش مزاولة الأعمال اليومية الأخرى. وبهذا اقتضت الضرورة الاجتماعية ظهور أشخاص أخصائيين في مجال العلوم الدينية يقال لهم (علماء الدين). بيد أنه ثمة فرق مهم من الناحية الحقوقية أو الاجتماعية أو السياسية بين أن يكون الشيء ضرورة اجتماعية أو أن يكون ظاهرة رسمية. فوجود الأطباء وعلماء الفيزياء أمر ضروري دون أن يكتسب هؤلاء موقعاً رسمياً يكون حكراً عليهم دون غيرهم. الطب أو الفيزياء لا تستطيع أن تخلق حالة من الكبت والاستبداد والتحجر والجمود، لأنها ليست مظاهر رسمية، ولو كانت لفعلت!

٢. المساواة العامة :

اهتم الإسلام بقضية المساواة العامة بين الأفراد والشعوب والقبائل وإلغاء الفوارق الطبقية والعرقية والنسبية والحسبية وغيرها. إلا أن طريقة عرض الإسلام لهذه القضية تختلف جوهرياً عن طريقة عرضها المعهودة في الأدب الإنساني العالمي حيث جاءت بشكل توصيات أخلاقية وبلغة رومانسية عاطفية

تنطوي على الوعظ والإرشاد والمداراة كما نقرأ ذلك في أدب الثورة الفرنسية الكبرى ونتاجات كبار الأدباء والمفكرين البرجوازيين إبان الحربين الكونيتين، أو في البلاغات الرسمية الصادرة عن المنظمات الدولية، خاصة في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، (غالباً ما يكون المقصود منها الجنس الأبيض، والناصع البياض على وجه التحديد!).

بلى، لقد عرضت قضية المساواة العامة في الإسلام من منطلق النظر إليها كواقع موضوعي وحقيقة علمية قائمة على دعامة فلسفية ومبنى فكري واعتقادي متين. إن التساوي والتكافؤ بين البشر أفراداً ومجتمعات، لم يكن مجرد فكرة يقترحها الإسلام أو توصية أخلاقية يدعو الناس إلى الالتزام بها ولا حتى أمنية إنسانية يطمح إليها بغية تأمين مصالح بشرية مستقبلية أو إقرار السلم والأمان في المعمورة، بل هي حلقة في إطار رؤية كونية علمية يحملها الإسلام، يكون جميع الناس في ضوئها متكافئين في واقع الحال، لا أنهم ينبغي أن يصبحوا كذلك. إن المساواة والتكافؤ بين أبناء البشر يعدّ - وفق هذه الرؤية - حقيقة علمية طبيعية وليست هدفاً أخلاقياً وإنسانياً يحمله أصحاب النفوس الزكية ويدعون إليه بحماس. وباختصار هو حقيقة كائنة وليست شيئاً ينبغي أن يكون.

(المساواة العامة) مبدأ سياسي اجتماعي شيّده الإسلام

على أسس علمية فلسفية، فاعتبره أولاً وقبل كل شي مبدأ طبيعياً مسلّماً، وعمل ثانياً على رفع مستواه من (المساواة الحقوقية) إلى (المساواة الحقيقية) أي الطبيعية الموضوعية الخارجية التي لها في عالم الخلقة وجود مشخص، وبالاصطلاح الإسلامي أن (المساواة) ترتقي إلى مستوى (الأخوّة)[١].

أ ـ **فلسفة خلق الإنسان**: البشر ينحدرون جميعاً من أبوين مشتركين وهم جميعاً أعضاء أسرة واحدة، وفي ضوء ذلك فإن البشر على اختلاف ألوانهم وطبقاتهم وصنوفهم هم جميعاً - أفراداً وجماعات - متساوون من حيث الشرف النسبي والعائلي ولا فضل لأحد على آخر. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

---

(١) أتصور أن الاختلاف واضح وملموس جداً بين مصطلحي المساواة و الأخوة من حيث درجة التضامن والالتصاق، ويكفي لإدراكه قليل من التأمل والتفكير. واعتقد أن المهم هنا ليس الاختلاف الكمي في المعنى بين المصطلحين بل الاختلاف النوعي والتفاوت الذاتي بينهما.

فالمساواة تعبّر عن أمر حقوقي اعتباري وعارض نسبي، أما الأخوة فتشير إلى حالة ذاتية باطنية ولها واقع موضوعي ثابت ومشترك بين الأخوان. وفي ضوء ذلك المتساوون متساوون ليس إلاّ أما الأخوة فهم مشتركون في الذات ومتجانسون، المساواة تبرز علاقة بين فردين أو شيئين، بينما الأخوة تبرز اتحادهما في المنشأ. وتجدر الإشارة أيضاً أنه من الناحية الفلسفية والاجتماعية، لا تعتبر المساواة مسألة نظرية مستقلة برأسها بل هي لازم قهري لا ينفك عن الأخوة ونتيجة طبيعية لها. وبدل أن نقول أن الأفراد يجب أن يكونوا متساوين، يتعين علينا أن نقول أن الأخوة متساوون حقاً.

وبالنظر لهذه المقدمة يتجلى الفارق القيمي بين الشعارين (الأخوة والمساواة).

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

كلكم من آدم وآدم من تراب . . . كل إنسان نظير لك في الخلق ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، أو نظير لك في الخلق .

ومن هذه الوحدة يشتق الاستقلال والحرية الفردية ، إذ التساوي في الخلقة يعزز التساوي في الشخصية والاستقلال :

(لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)

ب ـ المرأة والرجل متحدان أصلاً وجنساً :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[2].

جـ. المساواة في الحقوق نتيجة طبيعية للتساوي في الخلقة والطبيعة :

(الناس يولدون ويظلون أحراراً متساوين في الحقوق) (علي بن أبي طالب) .

وهذه المساواة لا تقتصر على المسلمين بل تشمل البشرية جمعاء :

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النساء : ١ .

(أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا) (علي بن أبي طالب).

د ـ المساواة الاقتصادية :

(إن أموال العامة هي أموال للشعب بكامله).

(أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا).

في وصية علي لأحد عمّاله: (أما بعد، فإن ما بيدك من المال له أهل قبلك وهو صائر إلى أهل بعدك)... (واجعل لهم قسماً من بيت المال وقسماً من الغلاّت في كل بلد فإن الأقصى منهم مثل الأدنى وكل قد استرعيت حقه ...). (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم فإن هؤلاء من الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم)[١].

هـ ـ المساواة في الاستهلاك : كان ميثم التمار، وهو من حواريي الإمام علي، يعزل التمر الجيّد عن الرديء ويبيع كلاً منهما بسعر، فنهاه عليّ عن ذلك وأمره بخلط التمر وبيعه بقيمة واحدة.

و ـ الحرية السياسية : (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)، (لا تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين)، (دعوت

(١) نهج البلاغة خ ٥٣ .

الناس إلى بيعتي فمن بايعني قبلته ومن أبى تركته)، (وليكن أمر الناس عندك في الحق سواء)، لاحظ! (أمر الناس) وليس أمر المسلمين أو المؤمنين فقط.

يقول الدكتور (جرداق) أن علياً لم يكن يعتبر رفع الحيف والظلم وإقرار العدل أمراً منوطاً بإرادة الحاكم، بل هو حق طبيعي للناس في أن ينتخبوا شخصاً لهذا الغرض: (كونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً).

وإن أفضل وثيقة يمكن الاستناد إليها في تحديد مقدار الحرية السياسية والديمقراطية الحقيقية التي كان يتمتع بها المسلمون في الصدر الأول، هي خطبة الخليفة الأول؛ بعد انتخابه خليفة وحاكماً سياسياً للمسلمين، وقد أدلى بأول تصريح سياسي له كحاكم أمام الجمهور، فقال:

(يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، ولقد وددت أن واحداً منكم قد كفاني هذا الأمر فلو وجدتم فيّ اعوجاجاً فقوّموه).

فانبرى له من القوم شخص مجهول فصاح بأعلى صوته: لو رأينا فيك اعوجاجاً قوّمناك بهذا (وأشار إلى سيفه)!

وهذا الأسلوب في الكلام هو عين أسلوب عليّ الذي لم يكن يرى في نفسه أنه حاكم سياسي فحسب بل مصداق للحق وإمام للهداية إليه. وكان يقول:

(قد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء و استماع الثناء، و لست - بحمد الله - كذلك و لو كنت أحبّ أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحقّ به من العظمة و الكبرياء. و ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله و إليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها و فرائض لا بدّ من إمضائها فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة و لا تتحفّظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، و لا تخالطوني بالمصانعة و لا تظنّوا بي استثقالاً في حقّ قيل لي، و لا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ)[١].

ز. الحرية المذهبية :

كان الرسول يوصي أصحابه بعدم فرض الدين على الناس فرضاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢]. وقد ضمن شخصياً لنصارى نجران حماية معابدهم[٣]. ونهى أحد قوّاده في سرية بعثها إلى اليمن عن

(١) نهج البلاغة، محمد عبده، ص ٢٧٤ .

(٢) القصص: ٥٦ .

(٣) للتعرّف أكثر على الانطباعات التي يحملها المستشرقون عن التسامح الديني=

التعرض لليهود في محالّ سكناهم ومناطقهم[(١)].

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾[(٢)].

وبالنسبة لأتباع الأديان الأخرى، يصدر الإسلام حكمه بحقهم على النحو التالي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[(٣)].

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[(٤)].

= (Tolerence) لدى المسلمين، يراجع كتاب (حضارة الإسلام والعرب) لغوستافلوبون.

(١) هذا النمط من التعامل مع العدو شرّع واتبع في مرحلة من الزمن يصفها عالم الاجتماع الفرنسي الشهير (مارسيل موسى) بأن قبيلتين لو التقيتا في الطريق آنذاك لا يخطر ببال إحداهما شيء سوى الحرب! لم يكن هناك سوى طريقين لحل مشكلة التماس والاحتكاك والذي كان يعدّ أمراً غير طبيعي، الطريق الأول الحرب، والثاني المصاهرة.

ومن هنا كانت رابطة الزواج السبيل الأوحد للتوحيد بين قبيلتين وتبرير التعايش السلمي بينهما، وبخلاف ذلك لم يكن ثمة خيار آخر سوى الاحتراب والاقتتال.

ويعزو علماء النفس والاجتماع الكثير من الحروب الطائفية والقبلية إلى حالات من هذا القبيل (Socielogie at Anthropologie : Marcel Mauss).

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

(٣) البقرة: ٦٢ .

(٤) العنكبوت: ٤٦ .

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾[(٢)].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[(٣)].

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ ﴾[(٤)].

هذا، مضافاً إلى أن الحكومة الإسلامية تعفي الرهبان والقساوسة ورجال الدين في المذاهب والأديان الأخرى من دفع الجزية.

٣ ـ الشورى في الحكومة :

ثمة آيتان قرآنيتان تعلنان صراحة عن مبدأ الشورى في الأمور، الأولى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[(٥)] والثانية ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾[(٦)]. وبعيد وفاة النبي اجتمع العاملون في

---

(١) النحل: ١٢٥ .

(٢) الكهف :٣٠ .

(٣) المزمل : ١٠ .

(٤) الحج: ٦٧ .

(٥) آل عمران : ١٥٩ .

(٦) الشورى: ٣٨ .

حقل السياسة من المسلمين (من غير عليّ وأنصاره) في السقيفة عملاً بهذا المبدأ. لانتخاب خليفة لقيادة الأمة من بعده(*) .

إن أحد المبادئ والأركان السياسية والاجتماعية في الإسلام هو الاجتماع (أي اتفاق أكثر الآراء على أمر) والذي يعد اليوم الأسلوب الوحيد الذي يحظى بقبول الجميع لتحقيق الديمقراطية. ولقد كان النبي مؤمناً بالشورى ويعمل بها. ففي معركة أحد كانت هناك فكرتان رئيسيتان تداولهما المسلمون لدرء خطر العدو، ومفاد الفكرة الأولى ترك المدينة والخروج لاستقبال العدو خارجها، والفكرة الثانية تقول بالانتظار داخل المدينة والتحصّن فيها، ولقد عرض النبي هذه القضية على أصحابه للتصويت عليها، بينما كان هو معتقداً بالفكرة الثانية باعتبار أن قتال المسلمين داخل المدينة يكسبهم حمية وبسالة مضاعفة لأنهم سوف يقاتلون دفاعاً عن العقيدة وحفاظاً على العرض والناموس والأهل والثروة والوطن، وهذا أمر متعارف. خاصة وإن ضعفاء الإيمان يضعفون في ميادين الوغى وقد يضطرون في المدينة إلى التضحية ببسالة كسائر المجاهدين. والسبب الآخر يكمن في أن المنافقين وأهل الدسائس قد

(*) يؤكد المرحوم علي شريعتي في مكان آخر (كتاب الأمة والإمامة) أن القيادة المدعومة قرآنياً تأتي بعد أصل الإمامة وفي طولها لا في عرضها، وبالتالي فإنّ الإمامة منصب إلهي وليست خاضعة للشورى والانتخاب.

يستثمرون فرصة غياب النبي وجيشه عن المدينة في إيجاد تمرد واضطراب بالتحالف مع الأجنحة الأخرى المناوئة للنبي في المدينة، فيوجهون بذلك خنجر غدر للإسلام وأهله. وهكذا ارتأى النبي البقاء في المدينة تفادياً لهذه المخاطر وضماناً لسيطرته وسيطرة قواته على العدو الداخلي المتربص به وبأصحابه، غير أن طائفة من الشباب اعترضت على ذلك باعتبار أن الجلوس وارتقاب العدوّ حتى يداهمهم، يعدّ مجلبة للعار، وبذلك ارتأوا الخروج إلى العدو، وصار رأي النبي أقلية في مقابلهم، فاستجاب للرأي الغالب، وإن كانت نتيجة الحرب تدعم صحة موقف النبي حيث انكسر المسلمون في تلك المعركة، ومع ذلك لم يشنّع النبي على من خالفوه في الرأي وتسببوا بتلك الهزيمة. وقد عمل عمر بمبدأ (الشورى) في انتخاب الخليفة من بعده وهكذا اختير عثمان.

أما علي بن أبي طالب فقد وصل إلى الخلافة عبر استفتاء شعبي عام وباصطلاح ذلك الزمان (البيعة العامة) تاركاً المجال مفتوحاً لمن لم يصوّتوا لصالحه[١].

---

(١) سوف أوضح بالتفاصيل طبيعة معارضة عليّ لقضية الانتخابات (الشورى)، حيث يظهر من مخالفته وأصحابه لواقعة السقيفة أن علياً لم يكن معترضاً على أصل الشورى وإنما على آليّتها والنتيجة التي أسفرت عنها. وسوف نرى أنه يشارك في الانتخابات اللاحقة دون أن يتراجع عن رأيه السابق في مقاطعتها.

٤ ـ السعادة والشقاء مرهونان بأعمال الإنسان وصفاته الذاتية لا بالقرابة والشفاعة :

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(١)

﴿لَيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾(٢).

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾(٣).

وعموماً فإن كل إنسان مسؤول عن مصير نفسه، وهذا ما يعبر عنه القرآن بنحو دقيق:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٥).

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٦).

---

(١) المدثر : ٣٨ .
(٢) النجم : ٣٩ ـ ٤٠ .
(٣) النازعات: ٣٥ .
(٤) يونس : ٥٢ .
(٥) يونس : ٤٤ .
(٦) الزلزال : ٧ و ٨ .

ونلاحظ في سورة نوح أن النبي مع كل صدقه وإخلاصه وتفانيه في أداء الرسالة الموكلة إليه في نجدة الإنسان والحضارة الإنسانيّة من الطوفان الأكبر، عندما يرى ابنه يشرف على الغرق فإنه يتوجه إلى الله سائلاً إياه أن ينجي ابنه من الغرق المحتوم، فيجيئه الردّ الإلهي حاسماً: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾[(١)].

ها هنا يتجلى بوضوح موقف الدين من أصالة النسب حيث تنسحب أصالة الدم فاسحة المجال لأصالة المعتقد لكي تحلّ مكانها، وتصبح الأسرة هنا أسرة عقائدية لا نسبية. ويُفصَح عن هذا المضمون أيضاً في قصة إبراهيم الخليل وأبيه[(*)]، فيبدو واضحاً أن أصالة القرابة ليس لها أثر في مصير الأفراد دينياً. ويظهر ذلك جلياً في كلام النبي لابنته العزيزة فاطمة: (اعملي يا فاطمة فإني لست بمغن عنك من الله شيئاً).

وكما أن رابطة الدم بين إبراهيم وأبيه ونوح وزوجته وابنه ولوط وامرأته، لم تنقذ هؤلاء من المصير المشؤوم الذي كان بانتظارهم، نجد على الجانب الآخر أن امرأة فرعون، ورغم اقترانها بأكبر طاغية مفسد، لم تحرم من السعادة والفلاح، فالقيامة على حد التعبير القرآني هي ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[(٢)].

---

(١) هود : ٤٦ .

(*) يرى بعض علماء الشيعة أن آذر عمّ إبراهيم وليس بأبيه.

(٢) النبأ: ٤٠ .

٥ - العقل والعلم :

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[١] .

كان هذا أول ما صرح به النبيّ وحياً منزّلاً على الناس، لقد افتتح نزول القرآن بكلمة (اقرأ) وأول صفة أطلقت على الله في القرآن هي صفة (الرب)[٢] التي تفيد التربية، وأول عمل يذكر له هو خلق الإنسان والإشارة إلى أن أول أطوار الخلقة هو (العلق) أي الحيمن. ومن ثم يتكرر الأمر بالقراءة ويتكرر التعبير بالرب متبوعاً بصفة ثانية هي (الكرم)، وذلك أنه علم الإنسان بالقلم، علّمه ما لا يعلم.

إن الله يقسم بالقلم والكتابة في افتتاح سورة أخرى من

---

(١) العلق : ١- ٥ .

(٢) الربّ، واحد من أبرز الصفات الإلهية،وهي من (ربب)، بمعنى المالك وولي الأمر وصاحب الحق، وليس صحيحاً المعنى الذي يشتق لها - بالفارسية - من مادة (ربو) بمعنى المربّي. ولكن والدي يرى أن لفظ الرب يستبطن أيضاً معنى التربية، لأن المالك والولي لابد وأن تكون التربية من شؤونه أيضاً. الربّ مسؤول عن الإنسان والعالم بكل جوانبه، وهو أيضاً مالك لهم، فالعلاقة بين الرب والمربوب أوثق وأشمل من العلاقة بين المربي والمتربي، فإن صاحب موجود معين يهتم بتربيته نحو يتسق مع أهدافه ومراميه، بل ومزاجه وطبيعته الشخصية. مضافاً الى أنه يشعر إزاءه بمسؤولية أكبر من التي يشعر بها المربي، ويكون أحرص على تربيته بشكل أفضل. (اضافة لاحقة من المؤلف ترتبط أكثر شيء بالمرادف المستخدم باللغة الفارسية لكلمة الرب بالعربية).

سور القرآن: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[(١)]، وقد فسرت (ن) بالدواة أو الحبر. وقد جاء هذا التكريم للقلم وللكتابة في الحجاز حيث لم يكن هناك سوى بضعة أنفار يعرفون القراءة والكتابة، وكان العرب لا ينظرون نظرة إجلال وإكبار للقلم والقرطاس، ولقد كانت هذه الروحية سائدة بين أشرف طبقات قريش حتى ما بعد الإسلام، حيث كانوا يفتخرون بالسيف والفرس لا بالقلم والقرطاس.

وكان معاوية يمنّ على زياد بن أبيه بضمّه بإخراجه من عبودية ثقيف إلى سيادة قريش[(٢)] ورفعه من مقام الكتابة إلى مقام الخطابة!

وأنشد سليط بن جرير النمري يقول:

أتحقرني ولست لذاك أهلاً
وتدني الأصغرين من الخوان
جهابذة وكتاب وليسوا
لفرسان الكريهة والطحان
ستعرفني وتذكرني إذا ما
تلاقى الحلقتان من البطان[(٣)]

---

(١) القلم : ١ .
(٢) إشارة إلى إلحاق معاوية زياداً بأبي سفيان !
(٣) كتاب (الوزراء والكتاب)، جهشياري.

والقرآن يؤكد هذه الأفضلية (للعلم والقلم) على سبيل الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)؟!.

ولقد حاول بعض المسلمين حصر العلم الوارد في الاصطلاح القرآني في إطار العلوم الدينية، بل الفقهية على وجه الخصوص، في حال أن التعبير بالعلم ورد مطلقاً في جميع الموارد وفي أقوال كثيرة من قبيل قول النبي: (اطلبوا العلم ولو كان في الصين)، ويقول علي: (من علّمني حرفاً فقد صيّرني عبداً).

إن العديد من الأديان والمذاهب الفلسفية - والعرفانية خاصة - تعتبر العقل عاجزاً عن عن إدراك الحقائق، حتى قال بعضهم (لا يمكن الاعتماد على ما يكتسبه العقل، وبالتالي فإن الاستدلال العقلي يقوم على دعامة من خشب، ونتيجته هشة وسطحية . . .). وقد تسللت مثل هذه الأفكار بين صفوف المسلمين عن طريق الاسكندرية أو الهند أو الديانة المسيحية، غير أن العقل ظلّ محافظاً على مكانته في النصوص الإسلامية الأصلية، وبقي هو الآلة المعتمدة في فهم الحقائق حتى ما كان منها حقائق دينية وإلهية، ولم يكن ثمة فرق من الناحية المعرفية بين قيمة العقل في العلوم الإلهية أو العلوم المادية والوضعية. العقل لا يخالف الدين، ليس هذا فحسب، بل (الدين هو العقل)

كما هو المأثور عن النبي. و(لا دين لمن لا عقل له) و(أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه منجدكم عند ربكم).

ولقد حظر علماء المسلمين التقليد في المسائل العقلية والمبادئ العقائدية للدين وأفتوا بعدم قبول إيمان المقلّد.

يقول القرآن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1] و ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2].

أحدهم سأل النبي عن أفضل ما يعمله لو لم يكن من أجله إلاّ ساعة فأمره بالاشتغال فيها بطلب العلم!.. فإن (تفكر ساعة خير من سبعين سنة عبادة).. وقد دخل النبي المسجد يوماً فوجد جماعتين من أصحابه إحداهما تعكف على العبادة والثانية على العلم فالتحق النبيّ بالثانية!

وأوضح دليل على الأهمية القصوى التي يوليها الإسلام للعلم مقولة النبي: (مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء)، وذلك في وقت كان النبي فيه بمسيس الحاجة إلى تعبئة كل الطاقات باتجاه الجهاد وكانت حاجته إلى المجاهدين أكثر إلحاحاً من الحاجة إلى العلماء، كما هو الحال في بداية كل

---

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) النمل: ٦٤.

نهضة، خاصة في ذلك الزمن وبالتحديد إذا كانت النهضة نهضة دينية. . وقد أصدر النبي أمره بإطلاق أسرى الحرب لقاء تعليم كل واحد منهم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين.

٦. الانسجام بين الدين والمدنية :

غالباً ما ينظر إلى الدين من زاوية أنه رد فعل معنوي يظهر لدى الإنسان في قبال الحياة المادية والتوثب الطبيعي نحو النعم الدنيوية، فيكون الدين ممثلاً للحياة الأخروية إزاء الحياة المادية، والآخرة حيال الدنيا، وعبادة الله مقابل عبادة الهوى، والمعنوية إزاء المادية، والروح في مقابل الجسم. إن التناقض والتدافع بين هاتين الحيثيتين المتضادتين يمثل الأساس الذي تقوم عليه الأديان والمذاهب الأخلاقية والعرفانية الشهيرة. ولقد تأثر المجتمع الإسلامي بشدة بهذه الظاهرة الوافدة مع الطقوس الهندوسية والرهبنة المسيحية والثنوية الفلسفية لدى المذاهب العرفانية الأفلاطونية والزرادشتية والمانوية وغيرها . . . أن شيوع النزعة اللامادية في الأديان القديمة وحرصها على ترويج مبادئ الزهد والإعراض عن الدنيا يعدّ بمنزلة ردّ فعل طبيعي إزاء تنامي مظاهر الترف والغرق في الملذّات والمفاسد الناجمة عن حب الدنيا واتباع الهوى وطلب الجاه والسلطة. ولقد سعت المسيحية لضبط حالات الإفراط في حب الدنيا واتباع الهوى والخلاعة والمجون والتي عمّت المجتمع الامبراطوري الرومي.

وبُعيد عهد الخلفاء الراشدين انتشرت هذه المظاهر والحالات في صفوف الطبقة الحاكمة وتمادى أبناء الخلفاء وحاشيتهم في الترف والملذّات ما أدى بالمقابل إلى ظهور تيار جديد في الثقافة الإسلامية يدعو إلى الإعراض عن الدنيا والزهد فيها تأثراً بما هو موجود من ذلك في الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة لتلك الحقبة.

والواقع أن هذا التضاد والتدافع لم يكن موجوداً في الإسلام الأصيل. الدنيا والآخرة في الإسلام الحقيقي ليستا متعارضتين بل هما مكملتان لبعضهما، لا تتدافعان بل تدفعان معاً باتجاه تكامل الإنسان.

(الدنيا مزرعة الآخرة).

(من لا معاش له لا معاد له).

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[١].

المسلم يتطلع دائماً إلى تحصيل السعادة ببعديها المادي والمعنوي[٢].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) اللافت للنظر جداً أن القرآن حيثما يتعرض لذكر الدنيا والآخرة يقدم الأولى على الثانية. ويدعم ذلك الحديث النبوي في فروع الكافي: اللهمّ بارك لنا في الخبز فإنه لولا ذلك ما صمنا ولا صلّينا ولا أقمنا حدود ربّنا.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾[١]

وأدناه مقولة للإمام الصادق يبيّن فيها بجلاء ما نريد قوله بعبارة وجيزة تعكس الخط البياني الواضح للنمط الفكري الإسلامي في مجال التدافع الفكري الإنساني بين المادة والمعنى. يقول: (ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه).

لقد قصرت المسيحية والبوذية والمدارس العرفانية الأخرى كلّ جهادها على تحصيل التكامل المعنوي والأخلاقي للأفراد ضمن المجتمع الإنساني، بينما نجد أن الإسلام الأصيل يعطف اهتمامه الجاد والأكيد أيضاً على دائرة التكامل المادي والجسماني، ويسعى لأن يصنع من البشر عرفاء ناشطين وزهّاداً فاعلين وسياسيين أتقياء، وعاكفين اجتماعيين وعباداً متفاعلين مع الناس ومعنويين ماديين، وماديين معنويين.

ولقد اختزل نبي الإسلام جميع هذه المظاهر والحالات التي تمثل وصفاً للإنسان المسلم الكامل في عبارة واحدة حين وصف المسلمين الخلّص بأنهم زهاد الليل وأسد النهار. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية إلزامية (واجب عيني) على كل فرد مسلم، (طبعاً لا بمعناه الجزئي الوضيع الذي

---

(١) البقرة: ٢٠١ .

نحمله اليوم في أذهاننا بل بعنوان كونه وظيفة كل فرد حيال ممارسات الأفراد الآخرين وحالات ومظاهر المجتمع بأسره). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجتثّان من الأساس جذور فلسفة (ما يعنيني أنا؟) والتي يمثل شيوعها في المجتمع أكبر خطر يهدّد مصير المجتمع وأمنه وسلامته.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوّضان مبدأ (ما لله لله وما لقيصر لقيصر) ويحمّلان كل فرد مسلم مسؤولية العمل على إقرار العدل وتحقيق السعادة والكمال الإنسانيين. يقول التلميذ الأول للإسلام؛ علي بن أبي طالب: (أعمال العبادات قطرة من بحر الأمر بالمعروف . . . وأفضل من الأمر بالمعروف كلمة حق عند سلطان جائر). هاهنا يتجلى بوضوح الأساس الذي تستند عليه مقولة (ما لقيصر لقيصر).

إن بذل المساعي الاجتماعية لإصلاح شأن الآخرين والنهوض بمستوى المجتمع ككل يعدّ وظيفة يومية تناط بعهدة كل مسلم:

(من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم).

فمن هو المسلم إذن؟ إنه من يصفه عليّ بقوله:

(أما الليل فصافّون أقدامهم تالين أجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، وأما النهار فحلماء علماء أبرار).

٧ ـ الإنسان جارٍ على سنّة لا تتبدل :

حينما نقول (الإنسان)، فالمراد هنا الإنسان بمعنى الفرد، والإنسان بمعنى الجماعة. وهذا يعني أن (الإنسان الفرد) له سنّة ثابتة علمية لا تتبدل، وكذلك (الإنسان - المجتمع) و (الإنسان - الحضارة والتاريخ). والمراد من السنّة، مجموعة النواميس العلمية المدّخرة في صميم الإنسان، كشعور وبنية فَسلجية، وفي صميم المجتمع كسيرة وعلاقات. ويكفي للمؤرخ أو عالم الاجتماع أن يضع يده على هذه النواميس والسنن ليتمخض عن ذلك ولادة علم الإنسان وعلم المجتمع والتاريخ. الإسلام يقول: أن الإنسان بمعنى البدن والروح وبمعنى المجتمع والتاريخ يخضع لسلسلة قوانين محددة تأبى التبدل والتغير. ولعدم التبدل هنا معانٍ عميقة:

١ـ عدم التبدل بإزاء الصدفة؛

٢ـ عدم التبدّل إزاء إرادة الأبطال؛

٣ـ عدم التبدل إزاء (المشيئة) - بمعناها الكاثوليكي - أي أن الإنسان والمجتمع شأنهما شأن أي شيء آخر في عالم الطبيعة؛ يخضعان لجملة من النواميس الطبيعية كما هو الحال مع المنظومة الشمسية التي تخضع في حركتها وتكاملها لقانون الجاذبية وغيره من قوانين الهيئة والمادة.

وفي ضوء ذلك، لن يكون بوسع المعجزة أو الصدفة أو

النبوغ الطارئ أن يغيّر مجرى التاريخ أو يحدث انعطافة حادّة في مسار المجتمع، لأن التاريخ والمجتمع يجريان على ضوء سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وليس بميسورنا سوى أن نكشف هذه السنن والقوانين. الخطاب في الإسلام موجّه دائماً إلى (الناس)، ومن ذلك يعلم أنه يعتبر (الناس) أساس المجتمع ومبدأ وجوده، وعلى خلاف معظم المؤرخين، مثل كارلايل[١] وأمرسون[٢] ممن يؤمنون بأن التاريخ يصنعه الرجال والشخصيات الكبيرة من نوابغ وأبطال، نجد أن الإسلام غالباً ما يدين الرموز التاريخية ويعبّر عنها عادة بالملأ، وقلّما يذكر هؤلاء بخير، تمعّنوا في هذه الآية: (وقالوا ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيل)... إنها تحثّ على نبذ عبادة الشخصية وتقديس الرموز والأبطال، داعية إلى التركيز على السنن الداخلية للمجتمع ومحاولة كشفها.

(١) Thomas Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١): كاتب ومؤرخ وفيلسوف إنكليزي. أشهر كتبه: (الثورة الفرنسية) The French Revolution (عام ١٨٣٧).

(٢) Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣ - ١٨٨٢): فيلسوف وشاعر أميركي. ارتحل إلى أوروبا في مطالع الثلاثينات. وقد التقى خلال هذه الرحلة الشاعرين الرومانتيكيين الإنكليزيين كوليريدج وووردزوورث وغيرهما، وسرعان ما طلع على الناس بمذهب فكري جديد عرف بـ(مذهب التعالي).

س : ما هو المراد بدقة من (السنن)[*] ؟

جـ : السنن غير العادات والرسوم التي نفهمها من الكلمة في اللغة الفارسية. السنّة في هذا المبحث بمعنى القوانين

(*) أن الذي يحدّد مسارالبحث ، استناداً لمنهجي في التدريس، هو الحوار والمناقشة مع الطلبة، لذلك لم أطرح هنا قضية ذات أهمية ولابدّ من التعرض لها. لقد اعتبرت السنة هنا منحصرة بالإرادة الإلهية وعين المشيئة وليس العكس. . ولا أقصد أن السنن وحدها هي المؤثرة في نظام الكون والطبيعة والإنسان، على غرار ما يزعم اليهود من أن يد الله مغلولة، أي أن الله خلق الكون وتركه لشأنه. بل أعتقد أن يد الله مبسوطة كما يصرّح القرآن، وأنها تؤثر على نحو مستمر في هذا العالم تدبيراً وتصميماً، امتحاناً وابتلاءاً، إيجاداً وإعداما. .

الله هو روح وعقل الكون وإرادة عالم الوجود. صحيح أن أبداننا تتصرف في ضوء قواعد وقوانين حتمية وثابتة لا تتغير وتخضع لاعتبارات فسلجية وبيولوجية، ولكن هذا لا يعني أن أفكارنا وإراداتنا معطلة وعبثية وليس لنا دور في التأثير على ما يحيط بنا أو يوجد في أعماقنا.

لو اعتبرنا ان السنن هي التي تعمل وتؤثر وحدها في الكون، فهذا يعني أننا اعتبرنا الكون ماكنة عظيمة تعمل بلا روح ولا إرادة، بينما الكون ليس كذلك، إنه موجود حيّ عالم ومريد، يشعر ويفكر ويقرّر ويستجيب ويؤثر، كالإنسان، وحسب التعبير القرآني العميق: (كل يوم هو في شأن). وتلك، بحدّ ذاتها، سنّة أخرى تبتني على منطق وحكمة.

وليس ذلك مجرد حقيقة تتسق مع الواقع، بل هو اعتقاد ورؤية كونية ثاقبة وشاملة تمنح الإنسان عمقاً، وقيمة وتعطي لحياته هدفاً ومعنى، وهذا شيء آخر، بات اليوم مطلباً حياتياً ملحّاً للغاية، ويمكن الإحساس بقيمته في قبال الرؤية الكونية السوداء المعتمة التي يتبنّاها أمثال جان بول سارتر وألبرتو كامو.

الاجتماعية والإنسانيّة الخارجة عن سلطة المؤرخ وعالم الاجتماع. فكما ان حياة الحيوان لها قوانين تجري عليها وكذلك النباتات والطبيعة الجيولوجية للأرض، فإن المجتمعات البشرية لها سنن ونواميس لا تؤثر فيها بطولات الأبطال ولا معاجز الرجال، فالتاريخ ليس خشبة مسرح يمثل البعض فيها أدوارهم ويتمّ التلاعب بالمشاهد والأحداث بواسطة مخرج المسرحية، إنه حقيقة موضوعية وشيء موجود في الخارج وفي الطبيعة ويخضع لقوانين محددة وقطعية ومسلّم بها.

س: لو ذكرتم لنا مثالاً من هذه القوانين المحددة المسلّمة ؟

ج : أحد قوانين التاريخ أو المجتمعات، أن لكل مجتمع وحضارة عمراً محدداً، كأي موجود حيّ، المجتمع عبارة عن كائن حيّ، يمرّ بمرحلة طفولة وفتوة ونضج وكمال وشيخوخة وموت، وهذا أمر قطعي مسلّم، بعدها يسلّم هذا المجتمع رسالة الحياة إلى مجتمع آخر أكثر جدارة، ويفنى هو ويزول. هذا أحد القوانين الاجتماعية التي لا يمكن أن تتبدّل، لا يمكن لأيّ بطل أو نابغة أن يغيّر هذه السنّة ويحول دون موت مجتمع معين أو يخلق مجتمعاً أبدياً سرمدياً لا يطرأ عليه الفناء. الحضارات تحمل - وهي في مرحلة الازدهار - بذور موتها، إلى أن تضمحلّ عناصر قوتها وحيويتها وتتغلّب عليها عوامل الموت والفناء، من ثم تموت تلك الحضارة وتهب حياتها لمجتمع آخر

جدير بحمل الموروث الحضاري الإنساني، وهكذا تتواصل حلقات التاريخ وتستمر حياة المجتمعات، وذلك لعمري قانون وسنة وناموس طبيعي لابد من كشفه والتعاطي معه على أساس كونه حقيقة لا تقبل التبدل والتغيير، ولا يسع أي مجتمع كان، الهروب من قبضته، مثلما هو الأمر كذلك بالنسبة لقانون الموت والحياة في سائر الكائنات الحية.

س: عدا ما ذكرتم هل ثمة سنن أخرى في حياة المجتمعات؟

جـ: في القرن التاسع عشر، توصّل أحد علماء الاجتماع إلى وضع ١٩٨ قانوناً في علم الاجتماع، ولكن اتساع نطاق هذا العلم في القرن العشرين جعله يتواضع أكثر ويقرّ بأنه لم يكتشف إلى الآن قوانين ثابتة ومحددة ليس بوسع أحد إنكارها.

علم الاجتماع وعلم التاريخ هما الآن بصدد اكتشاف هذه القوانين، والشيء المسلّم الآن على مستوى هذين العلمين الفتيين أن ثمة قوانين اجتماعية وتاريخية، غير أن كل مذهب من المذاهب الفكرية يتناول المجتمع بالدراسة والتحليل، وقد يتوصل إلى استنباط تلك القوانين في ضوء تلك الدراسة وذلك التحليل. فأنا مثلاً لديّ رؤية معينة وأؤمن بمجموعة من القوانين تحكم التاريخ والمجتمع، وثمة من يعتقد غيري بقوانين أخرى مغايرة. ويفترض بهذا العلم أن يتسع ويتطور إلى أن يتضاءل مقدار الاختلاف بيني وبين الآخر ويزول، حتى يصبح الحال في

العلوم الإنسانيّة على ما هو عليه في العلوم الطبيعية حيث لم يعد هناك اختلاف في الكثير من الحقائق العلمية.

علم الاجتماع مازال في مراحله الأولى ولم يتجاوز عمره نصف قرن، وليس من المنطقي أن نتوقع التوصل في غضون هذه الفترة الوجيزة إلى قواعد مسلّمة لا خلاف فيها. وعلى أي حال، لا تنسوا أننا الآن بصدد دراسة المجتمع من المنظار القرآني لا من منظار علم الاجتماع.

س: هل هناك تكافؤ بين (السنّة) و(الناس) في درجة التأثير على مجرى التاريخ ومسار التطور الاجتماعي والحضاري، أم هما متفاوتان في ذلك؟

جـ: السنّة بمثابة القوانين الحاكمة على التراب والهواء والماء ومكونات الشجرة، بينما (الناس) لهم دور البستانيّ الذي يربّى هذه الشجرة وغيرها بما يمتلك من كفاءة ولياقات وخبرة في فنّ (البستنة) تؤهلّه للتحكم ولو جزئياً بتلك القوانين، وإن كانت الغلبة في النهاية للأخيرة، إذ الأرض والنبات يُواصلان مسارهما الطبيعي نحو الجدب والبوار، شاء البستاني أم أبى.

س: في حياة الإنسان حوادث وطوارئ تحول دون وصول الإنسان إلى حد كماله الطبيعي، أليس من المحتمل أيضاً أن تطرأ حوادث من هذا القبيل تخرق القوانين الاجتماعية التي وصفتموها بالثبات وعدم التبدل، وقد يكون الإنسان بذاته مسبباً لتلك الحوادث؟

جـ : نعم، يحتمل ذلك، غير أن الإسلام لا يؤمن بالحادثة التي تقع محض الصدفة، قلت أن هناك مذاهب فكرية وعقدية تؤمن بمبدأ الصدفة، بينما توجد مذاهب تؤمن بالمشيئة الإلهية، كما أن هناك من يؤمن بالنبوغ والإبداع ومعاجز الأبطال، غير أن الإسلام يرفض هذه الأمور بالجملة، ويؤمن بأن المجتمعات خاضعة لمنظومة قوانين طبيعية مسلّمة وأن الله نفخ هذه القوانين في روح المجتمعات ولم يشأ أن تتبدل أو تتغير؛ لا بتدخل منه ولا بفعل الصدفة ولا بواسطة الرجال. توجد في صميم كل مجتمع نواميس وسنن وقوانين لابدّ من كشفها أولاً، ولابدّ ثانياً من تنظيم واقع حياتنا على ضوئها لكي نتعاطى معها على أكمل وجه.

س : فالقانون هذا موجود ومحدد من قبل؟

جـ : أجل: تماماً كالطبيعة، وكالقوانين التي تتحكم بعالم النبات.

س : إذن نحن خلقنا مسيّرين؟

جـ : بين بين؛ مسيّرين إلى حد ومخيّرين إلى حدّ. إننا مسيّرون مثلما أن البستاني أو الخبير الزراعي مسيّر ومجبور على اتباع قوانين علم النبات بدقة إذا أراد أن ينجح في مشروعه الزراعي وتعود عليه الأشجار بعطاء سليم، وهو مخيّر بأن ينتخب الطريقة التي يراها مناسبة في تنظيم بستانه واختيار نوع

الأشجار والنباتات التي يغرسها فيه ومن ثمّ مجاراة القوانين والقواعد الزراعية التي من شأنها أن تعود عليه بثمر يانع وطعم لذيذ ورائحة زاكية.

وهكذا نرى أن صاحبنا البستاني مضطر لاتباع قوانين الطبيعة ذات الصلة بالنبات ومختار في تطبيقها على ما شاء من النباتات وعلى النحو الذي يرتئيه هو لا غير، وكذلك الإنسان هو مختار في مجتمعه وهو أيضاً مسيّر ومنقاد للقوانين الاجتماعية الحاكمة على المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا برأيي هو معنى الحديث القائل: (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين)، إنه بتعبير آخر: اختيار مقيد وحرية مشروطة؛ أنت حرّ بأن تقود سيارتك وتنطلق بها إلى أي مكان شئت، ولكنك ملزم في الوقت ذاته باتباع كافة الخطوات الضرورية التي تنتهي بتحريك العجلات.

إن معادلة (أمر بين أمرين = الناس + السنة) هي أدق تعبير عن نظريتي!

س: الأنبياء بأديانهم يمثلون دعامات لنظم اجتماعية، فهل يعتبرهم الإسلام ظواهر اجتماعية أم مظاهر لمشيئة إلهية؟

ج: ماذا صنع الأنبياء وما هو سرّ انتصارهم؟ نعلم جميعاً أن الأنبياء كانوا أكثر المصلحين الاجتماعيين ظفراً ونجاحاً وتوفيقاً، لا شك في ذلك سواء آمنّا بهم أم لم نؤمن. لاشك أن

سقراط أعظم نابغة عرفتها البشرية، ولكن لدى إجراء مقارنة بين الإنجازات التي حققها سقراط وبين ما حققه عيسى وموسى ومحمد من منجزات، يتضح الفرق جلياً بحيث لا يبقى مجال للمقارنة بين الاثنين. لقد تكفّل الأنبياء بهداية المجتمع وركب الحضارة وتوجيه التاريخ بينما لم يبق من سقراط سوى الكلام الجميل الذي لم يرتق لمستوى صناعة مجتمع وتاريخ. إن جدارة الأنبياء وغيرهم من المصلحين الإنسانيين تجلّت في قدرتهم على كشف قوانين المجتمع وسنن التاريخ، لقد شخّصوها بدقة وطبقوا رسالاتهم على سنن الحياة وقوانين التاريخ فكان النجاح حليفهم، وذلك خلافاً للفلاسفة المثاليين واليوتوبيين(١) من أفلاطون إلى توماس مور(٢) وكذلك الكثير من المصلحين الاجتماعيين الجدد أمثال أغوست كنت(٣) وسان سيمون وبرودن وراسل وسارتر(٤) وغيرهم من أصحاب

---

(١) الوصف الذي يطلقه ماركس على معاصريه وسابقيه من فلاسفة الخيال الاشتراكي.

(٢) Thomas Moore (١٧٧٩ - ١٨٥٢): شاعر ومؤلف موسيقي إيرلندي. نظم ولحن عشرات المقطعات الغنائية التي أثارت العطف على الوطنيين الإيرلنديين الذين اعتبروا (مور) بطلا قوميا. من أشهر قصائده: (وردة الصيف الأخيرة= The Last Rose of Summer).

(٣) من مؤسسي علم الاجتماع.

(٤) ذات مرة وقف جان بول سارتر المفكر الفرنسي الكبير في إحدى مقاهي شارع Saint Germain des Pres بباريس، لينتقد بشدة نوع الفهم السائد بين الناس لمذهبه وأفكاره الوجودية، وبالذات السلوكيات الشاذّة والتصرفات المبتذلة التي يقوم بها =

المذاهب والمدارس الفلسفية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية المعاصرة، والذين لم يوفقوا لاكتشاف قوانين المجتمعات، وظلوا جليسي دورهم ينظّرون للمدينة الفاضلة أو الطاهرة[١]، وقد نجحوا - والحق يقال - في بناء هذه المدن، ولكن على صرح من الخيال!

يقول افلاطون: إذا لم يقدّر لقوانين مدينتي الفاضلة أن تطبق على الأرض، فلتطبق إذن في السماء! بينما الأنبياء عزفوا عن مهمة خلق القوانين وعكفوا على كشفها، وقد فعلوا، ومن

= بعض الشباب من وحي الانطباع الذي يحملونه عن أفكار سارتر. وهذا يبرز مدى الخطورة في تبنّي فيلسوف أو مفكر كبير لنظرية فلسفية أو اجتماعية دون أن تكون له إحاطة وإلمام وافٍ بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، بالنحو الذي قد يقوده إلى الإقرار بالهزيمة على نحو ما فعل سارتر بعد أن لاحظ أن فكره الوجودي تسبب في غواية الناس بدلاً من هدايتهم.

ربما تتساءلون: كيف يمكن لأبرز علماء الاجتماع في القرنين الماضيين أن يجهلوا طبيعة مجتمعهم؟ وفي معرض الإجابة أستعين بعبارة فيثاغورس في ضرورة عدّ هؤلاء هواة علم الاجتماع، وذلك أن علم المجتمع مازال اليوم في مطلع صباه تماماً كالمرحلة التي كانت فيها العلوم الطبيعية في زمان أرسطو ولوسيبوس ودموقراط، فلقد ألّف أرسطو كتابه في الطبيعيات قبل حوالي ٢٣٠٠ سنة، وكان أول كتاب علمي في تاريخ الإنسانيّة في هذا المضمار، مع ذلك لم يكن أرسطو على معرفة بالطبيعة.

(١) (المدينة الطاهرة) (La Sainte Cite)، اسم كتاب معروف لـ(جان إيزولا= Jean Isoule) الأستاذ في الكلية الفرنسية إبان القرن التاسع عشر، ألّفه في ثلاثة أجزاء في مقابل (المدينة الفاضلة) الأفلاطونية لتوماس مور وآخرين ممن دافعوا عن الدين =

ثم صاغوا رسالاتهم التربوية على ضوء ما هو موجود من سنن وقوانين، على غرار صاحبنا البستاني الذي اكتشف أولاً قوانين الطبيعة وقواعد تربية الأشجار ثم غرس النبتة فأينعت بعد حين، وهكذا صنع الأنبياء!

س : هل بوسعنا المقارنة بين الأنبياء وبعض المصلحين الاجتماعيين في هذا المضمار؟

جـ : أجل! فهناك جهة اشتراك بين الأنبياء وبين كل مصلح نجح في تغيير مجتمعه، وثمة أيضاً جهة افتراق.

س : ما الذي ينبغي أن نستوحيه من اصطلاح (الرمز)؟

جـ : بعض المفكرين مثل كارلايل وأمرسون، يضاف إليهم كل من مال من مفكري القرنين الأخيرين إلى النازية والفاشية بمعناهما الأعم الأوسع، هؤلاء يؤمنون بأن التاريخ صنيعة الرموز والأبطال، بمعنى أننا لو أردنا أن نفهم حقيقة

= والأخلاق وحملوا بشدة على المذاهب الفلسفية المادية والنزعة العلمية المجردة (Scientis me) في تفسير الظواهر الكونية والتي طغت على أوربا في القرن المذكور وأدّت إلى زعزعة الأسس والمعايير الأخلاقية.

في رسالة كتبتها لوالدي من باريس سنة ١٩٦١م، أوردت نبذة مختصرة عن كتاب (المدينة الطاهرة) وعن مؤلف الكتاب، وقد قامت مجلة (آستان قدس) في مشهد بطبع الرسالة في نفس السنة مع ترجمة لفصل من ذلك الكتاب تحت عنوان (التشاؤم والتفاؤل).

الحرب العالمية الثانية، يكفينا أن نفهم من هو هتلر، ولا يلزمنا أن ندرك طبيعة الشعب الألماني ولا ثقافته وعاداته، ولا ضرورة أيضاً لأن نفهم واقع القرن العشرين وذلك أن هتلر لو كان يظهر في القرن الثامن عشر لظهرت النازية معه أيضاً في ذلك الوقت، ولو ظهر نابليون في القرن الثاني الميلادي لوقعت نفس الحوادث التي تسبب بها نابليون في زمانه.

وفي ضوء ما سلف، فإن التاريخ صنعه محمد وعيسى وجنكيزخان ونابليون وغاندي وليست الأمم ولا قوانين التاريخ والمجتمع أو ما يعبّر عنه قرآنياً بـ(الناس والسنّة)، فهؤلاء ليسوا سوى وسائط وآلات لتحقيق إرادة هؤلاء الأبطال التاريخيين.

س : يمكن القول بفرضيتكم في مورد الأحداث والوقائع السياسية، أما الأديان فنحن نعلم جميعاً أن الأنبياء هم السبب الأوحد لظهورها وبالتالي تحقق الوقائع التاريخية والاجتماعية الناجمة عنها؟

جـ : قلت أن الأنبياء سبب في كشف قوانين التاريخ والمجتمع لا في اختراعها؟

المهندس الزراعي لم يخترع نباتات هذه المزرعة، وإنما قام برعايتها بموجب القوانين التي يعرفها فيما يرتبط بفنّ الزراعة وتربية النبات. وفي الواقع أن القانون الطبيعي هو الذي أوجد الزرع والمزرعة، ولم يكن دور المهندس والخبير الزراعي سوى

دور تكميلي في تربية المحاصيل، وهكذا الأنبياء، إنهم خبراء المزرعة الإنسانيّة، وقد وظّفوا معرفتهم بقوانين المجتمع والزمان (السنن الإلهية) في خدمة تلك المزرعة وتربية المحاصيل على أحسن وجه.

س : هل يمكن إطلاق صفة الرمز والبطل على من يسبق من سواه في كشف تلك السنن والقوانين؟

جـ : نحن نؤمن بوجود النوابغ والأبطال في التاريخ، وإنما ننكر خلقهم للأشياء وإيجادها من الصفر، وها هنا يكمن معنى الآية: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) والمعنى أن هذه السنة باقية على حالها في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً. الإرادة أو(المشيئة الإلهية)[١]، معناها القوانين التي أودعها الله في مخلوقاته الشاملة لكل عالم

(١) المشيئة الإلهية هنا يراد منها المعنى الكاثوليكي وهي ترجمة لاصطلاح (Providence)، وتعني أن الله - إذا شاء - يرسل الهواء دون أن يكون هناك اختلاف في درجة الحرارة (والضغط الجوي)، وينزل المطر بلا غيوم، ولو شاء أن يميت مجتمعاً فإنه يفعل حتى لو كان ذلك المجتمع متوفراً في تلك اللحظة على جميع العناصر والشروط اللازمة لبقائه واستمراره، وعلى العكس قد يطيل حياة مجتمع يفتقر إلى مقومات البقاء.

أما الإسلام فله رؤية مغايرة يعتقد فيها أن المشيئة الإلهية لا تتعلّق بأي شيء يخالف السنن والقوانين التي أودعها هو بنفسه في الكون والطبيعة. وفي الحديث: (أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها).

الوجود، وهذه القوانين لا يطرأ عليها تبدّل ولا تغيير.

س: ما أوردتموه من أن كل مجتمع يحمل في صميمه مبررات وبذور إيجاد مجتمع جديد، أليس هو تعبيراً آخر عن مقولة (الأصل والضدّ والتركيب)؟

ج: نعم ينطبق عليها انطباقاً تاماً، وإن كنت أعتقد أن من الممكن أن يوجد تفاوت في التفسير ولو في بعض الجهات، وإلاّ فلا خلاف في أصل المنظومة.

إن دعائم الديالكتيك الثلاث تمثل النوتات الرئيسية لسمفونية التاريخ بوجهها العام(*). غايتها أن الخطأ الذي يرتكبه الماركسيون غالباً ويقودهم على مستوى التحليل إلى نتائج خاطئة في تفسير القضايا الاجتماعية والتاريخية، هو إصرارهم على تطبيق هذه الأسس الثلاثة على حوادث جزئية محدودة بزمن أو مجتمع معيّنين، وهذا غير ممكن، ذلك أن هذه الأسس والدعائم الثلاث لا تنطبق على التاريخ إلاّ في بُعده ومفهومه الكلّي وفي المسار العام لقافلة الحضارات(١).

(*) لا ريب أن هناك تفاوتاً بين مفهوم الديالكتيك لدى المرحوم شريعتي وبين المفهوم الماركسي للمصطلح (مكتب جمع الآثار الكاملة).

(١) (من محاضرة للسيّد شوارتز العالم الرياضي الفرنسي الشهير في إحدى ندوات حزب الاتحاد الاشتراكي (U.S.P) وكانت تحت عنوان (إعادة بناء الفكر الماركسي):

(Renouvellement de la pensee marxiste, Paris, ١٩٦١)

وفي الآية أدناه إشارة واضحة إلى مبدأ (البقاء للأصلح)، وتؤيد إلى حدٍّ ما المساعي التي بذلها إبان القرن التاسع عشر علماء اجتماع معروفون من قبيل اسبنسر (Spencer) في كتابه (Princeiples of sociology) لتطبيق مبادئ علم الاجتماع على قوانين داروين، حيث تكشف الآية - أولاً - وبوضوح أن (الصراع من أجل البقاء) يعدّ سنّة من السنن، و- ثانياً - أن هذا الصراع هو داينمو تكامل المجتمعات:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

على ضوء ما مرّ، فإن أيّ نمط من أنماط التبدل والتغير، صالحاً كان أم طالحاً، رجعياً أم تقدمياً، فهو يجري وفق سنة ثابتة معينة. وفق ذلك فإنّ داينمو حركة التاريخ والمجتمع والزمان هم الناس بمعنى الجمهور (Masse) بدون لحاظ أي شكل أو طبقة أو شريحة اجتماعية. الإسلام هنا لا يوجه خطابه إلى النخبة (Elite) أو الأعيان والنبلاء (Aristos) أو

---

(١) الحج ٣٩ و ٤٠ .

الأبطال والرموز (Heros) أو طبقة المستنيرين (Intellegenzea) أو الطبقة الكادحة (Proletariat) أو النوابغ والأفذاذ (Supermen) ولا من يعبّر عنهم سان سيمون بـ (رجال العصر الصناعي) ولا الفلاسفة والعلماء أو الزهاد أو رجال الدين، وبالأحرى لا الشرقيين ولا الغربيين ولا أبناء الجنس الأبيض أو الآريين أو من يصفهم البروفسور أليكس كارل (Alexis Carel) بأصحاب الدم النقي[١]، وما إلى ذلك من تصنيفات مختلفة قامت عليها الكثير من المذاهب الفكرية الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية.

الناس هم الذين يحددون مسار التاريخ، وذلك على أساس ما هو موجود في صميم الإنسان والمجتمع من سنن وقوانين، وليس هناك تغيير وتحوّل اجتماعي إلاّ وهو منوط بإرادة (الناس) ونزعاتهم، ويشكّل نتيجة طبيعية لسلوكهم وسيرتهم العامة التي تسير بموجب سنن معيّنة لا تتبدّل. ولكل واحدة من تلك السير والنزعات والإرادات نتائج وآثار قطعية على الصعيد التاريخي أو الاجتماعي، وذلك عبر المعادلة التالية:

---

(١) طاهرو الدم: اصطلاح اقترحه أنا لتوضيح فلسفة البروفيسور أليكس كارل، وإلاّ فلا وجود لهكذا تعبير في كتاباته. وقد أوردت هذا الاصطلاح لبيان مشروعه الإصلاحي، يراجع: (الإنسان كائن مجهول) و (منهج الحياة).

الناس + السنة = بناء المجتمع وحركة التاريخ

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾[١] . . ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٢] .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]، هذا على مستوى الفرد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤]، وهذا على مستوى المجتمع ككل.

وها هنا يتضح مدى التفاوت والاختلاف بين الفهم الكاثوليكي والفهم الإسلامي لمصطلح (المشيئة الإلهية). إن التغيير والتحول الاجتماعي ليس معلولاً للمشيئة الإلهية، بل هو معلول للتحولات الأخلاقية والروحية التي تمرّ بها المجتمعات، والمشيئة الإلهية هي التي اقتضت هذا النحو من العلية والارتباط الذي هو بدوره سنة من السنن[٥].

---

(١) البقرة: ١٣٤ .

(٢) النجم: ٣٩ .

(٣) المدثر: ٣٨ .

(٤) الرعد١١ .

(٥) حين أقود سيارتي على خلاف مقتضى آلية حركتها، أكون مخالفاً أولاً لقواعد حركة المحرّك (السنن)، وثانياً لإرادة صانعها (المشيئة)، وذلك أن مشيئة صانع المحرّك تقتضي العمل على مقتضى القواعد التي أودعها فيه. لمإذا يعدّ الإسلام كل عمل أقوم به ويؤدي إلى إلحاق الضرر بصحتي أو إنهاء حياتي، ذنباً لا يغتفر؟ السبب أنني تصرّفت على خلاف القوانين النفسية والفيزيولوجية السارية =

وثمة قضية أخرى تتضمنها الآية أعلاه، ألا وهي دور العامل الباراسيكولوجي في المجتمع والتاريخ. وهذا بذاته مبدأ في غاية الأهمية كونه يجعل علم النفس محوراً رئيسياً للكثير من العلوم الإنسانيّة الأخرى، غاية الأمر أن الحديث هنا - وكما هو واضح - يجري حول علم النفس الاجتماعي والأممي[١]. ولأجل أن نفهم المعنى الدقيق للسنة فلنراجع القرآن وموارد الكلام فيه حول: السنة والآية.

٨ ـ اهتمام الإنسان بنظام الطبيعة وأسراره:

هناك - عموماً - منهجان للتفكير عالمياً، الأول منهما يهتم بالأمور الكلية والمجردة والمسائل العقلية النظرية، والآخر خلاف ذلك.

= في روحي وبدني، وهذا التصرّف يعدّ مخالفة لمقتضى المشيئة الإلهية بالمعنى الإسلامي للكلمة.

(١) Psychologie sociale, des peuoples, des Foules, des dasses sociales, des groups sociaax...) علم النفس الاجتماعي، علم النفس القومي، التجمعات، الطبقات الاجتماعية، الفئات الاجتماعية).

وهي فروع مختلفة لعلم الاجتماع يعتبر علم النفس أساساً للبحث فيها. ويميل بعض علماء الاجتماع مثل جبريل تارد وتين وانريكو فرمي، والإيطالي لومبروزو - إلى جعل علم النفس الفردي والجماعي (Collective) أساساً للتحولات الاجتماعية. والظاهر أن من ذهبوا إلى أن محور التحولات الاجتماعية أمور أخرى من قبيل الاقتصاد والعرق والجغرافيا الطبيعية والدين والصدفة أو الاختيار، إنما عنوا بذلك بيان الأسباب والعلل البعيدة، وبالتالي لابدّ وأن يقرّوا بشكل وآخر أن العامل النفسي علة قريبة لتلك التحولات.

والمفكر الذي يعتمد المنهج الأول في التفكير لا يرى نفسه بحاجة إلى التجربة ومشاهدة الجزئيات أو التعرف على الأشياء في بيئتها الخارجية أو المختبرية. إنه يجلس مع نفسه يفكّر في حقيقة الوجود التي تتحكم بطرق التفكير والاستدلال العقليّ ويسعى للكشف عنها، ومن ثم ينظر إلى ما حوله من خلال تلك القواعد والقوانين المكتشفة. أرسطو يذهب إلى أن الكليات هي أسّ التفكير المنطقي وأساسه ولا ضرورة لأن تدرس أحوال أفراد البشر وصنوفهم، بل يعتبر أن ما توصل إليه ذهنياً هو قضية كلية بديهية وأن (الإنسان حيوان ناطق) دون الحاجة إلى دراسة الأشخاص بصورة مباشرة.

حسناً، تأملوا قليلاً، فمن خلال المثال الذي أوردته، يتضح جوهر الاختلاف بين إنسان القرون الوسطى وإنسان العصر الحديث. فالحضارة الجديدة ما ظهرت إلى الوجود إلا بعد استبدالها المنهج القديم الكلي في التفكير بمنهج جديد يحرص على النزول إلى واقع الطبيعة ودراسة الجزئيات وما لا ينال إلاّ بالحس والتجربة.

الفيلسوف والمفكر القديم يهتمّ بالأمور الكلية ومن خلالها ينتقل حدساً إلى الجزئيات، وهذا المفكر لو أراد التعرف على ماهية السماء وخصائصها، لا يجد في نفسه ضرورة لأن يُخضع السماء للتجربة والمشاهدة الحسية، وليس عليه أن

يكتشف وسيلة يصعد بها إلى السماء ليشاهدها عن كثب، ولمإذا يفعل ذلك ما دام بمقدوره أن يعثر على إجابات شافية للأسئلة التي تدور في خلده:

هل السماء شيء أم ليست بشيء أصلاً؟

- إذا كانت شيئاً فما هي حقيقته؟

هذه هي الأسئلة المهمة، ولحسن الحظ فإن الإجابة عليها متيسرة من خلال تطبيق جملة قواعد وأصول عقلية؛ مثلاً نحن نعلم أن ما لا شيئية له لا يصلح لأن يشار إليه، وبالتالي فإن كل ما يشار إليه لابد وأن يكون شيئاً موجوداً، إذ العدم لا يشار إليه، ولكننا نشير إلى السماء، فنقول: هذه أرض وتلك سماء، فلابد أن تكون السماء موجودة، وهي بالتالي شيء وبذلك ثبت المطلوب، وتمّت الإجابة على التساؤل الأول. وأما في مقام الإجابة على التساؤل الثاني فبوسعنا أن نقول أيضاً: أن السماء لما كانت شيئاً مشاراً إليه فلابد أن تكون منحازة إلى جهة، إذ ما لا جهة له فهو عدم مطلق، وبهذا ثبتت لنا أيضاً إحدى خصائص السماء، وهكذا نواصل الاستدلال فنطرح السؤال التالي: هل السماء موجود مادي أم لا؟ والجواب - طبعاً - نعم! لأن المشار إليه لا يمكن أن يكون أمراً معنوياً، إذ المعنى لا يشار إليه، وكيف يشار للعقل والروح والإرادة والفخر والحب والبغض؟! وهكذا نعثر على خصوصية أخرى للسماء، ويتواصل الاستدلال

لمعرفة ما إذا كانت السماء من جنس المادة الأرضية أو من جنس مادة أخرى، والجواب جاهز، فنحن نعلم أن السماء مؤلفة من طبقات ملتفّة حول بعضها، تماماً كرأس البصل المؤلف من عدة قشور متراكمة فوق بعض، وكلّ منها يشكل مداراً وفلكاً خاصاً، وهذه الطبقات السماوية تدور حول بعضها منذ مليارات السنين، في حال اننا نرى بأعيننا أن المادة الأرضية يتناوب عليها الكون والفساد، تتركب تارة وتتحلل أخرى، فلو كانت السماء مكونة من مادة مماثلة لمادة الأرض لزم أن تتحلل السماء يوماً وتضمحل وتبطل، وحيث لا فلا!

إذن ممّ تتكون السماء؟ هي ليست مركبة من العناصر الأربعة التي نعرفها (الماء والتراب والهواء والنار)، فلابد أن تكون بسيطة، والبسيط لا يقبل التجزئة والتحليل، فطبقات السماء هي من المادة إذن، ولكن مادتها ليست من جنس مادة الأرض بل هي عنصر بسيط.

لاحظوا، كم كان الأمر يسيراً، والآن نعلم أن السماء شيء موجود وأنها موجود مادي لا موجود مجرّد معنوي وأنها مادة بسيطة وليست من جنس مادة الأرض. وهكذا توصلنا إلى تكوين فكرة كاملة عن السماء دون أن يهتزّ لنا عرش!

لماذا ظلّت القرون الوسطى قروناً وسطى؟ ولماذا بقي الإنسان يراوح في مكانه ألف عام؟ الجواب: أنه بقي جالساً

يفكر وينسج استدلالاته العقلية والمنطقية ليكتشف القوانين أو قل يخترعها!

هذا المنهج العقلي والذهني في الاستدلال والتحقيق هو الذي كان سائداً في القرون الوسطى، وهو السبب في أن هذه الحقبة التي امتدّت طوال عشرة قرون لم تقدم للبشرية شيئاً جديداً، بينما نرى أن القرنين اللذين تليا هذه الحقبة المظلمة شهدا قفزة عريضة في مضمار البحث العلمي والاكتشافات.

القرآن بأسره، اهتمام بالجزئيات وتعاطٍ مع الأمور الحسية من طعام وإبل وأرض وأمم سالفة وكواكب ونجوم، وشمس وقمر وتين وزيتون ونون والقلم وما يسطرون. إن جميع الموارد التي أقسم بها القرآن هي أمور جزئية مادية وحسية واقعية[(١)]، ولا يوجد مورد واحد يقسم فيه القرآن بالجواهر والهيولى والصورة والمثل أو حتى العقل والنفس والروح . . . القرآن يدعو إلى التفكير بالمادة وينهى عن التفكير بالروح أو ذات الإله وجنس الملائكة، أو الهيولى والصورة والجوهر والعرض . . . تأمل وفكّر في طعامك وفي شرابك وفي الحيوان الذي تحمل عليه أثقالك (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك) اهبط من بروجك العالية وأنزل علمك من مستوى السماء إلى

---

(١) (التفسير الحديث) للسيد محمد تقي شريعتي (والد المؤلف).

مستوى الأرض على حدّ قول سقراط.

يقول الله في القرآن ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١] سيحوا في الأرض وتعرّفوا على القبائل والشعوب وعاداتها وتقاليدها، وعواقب أمورها، بطريقة حسية تجريبية، واهجروا الطريقة الأفلاطونية:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٢]، ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٣].

تأملوا في الآيات التي غالباً ما تأتي بالاصطلاح القرآني بمعنى الظواهر الطبيعية (Phenomenes) أو الوقائع الاجتماعية (Faits)[٤]. وعليه فالإسلام يشجّع ويحثّ على ملاحظة الأمور الحسية والجزئيات المادية وتجاهل الكليات، ولكن ما يبعث على الأسف كثيراً أن النزعة اليونانية التي طغت على المجتمع الإسلامي في غضون القرنين الثالث والرابع أدّت إلى هجر هذا

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) الغاشية: ١٧.

(٣) الغاشية: ٢٠.

(٤) (Fait) في علم الاجتماع ترجمه أستاذي بروفيسور Berque.J بمعنى (الواقع) في جملة (وفي الواقع أن....) سواء من حيث المعنى أو من حيث موارد الاستعمال. ولكن الدكتور محمد علي كاردان فسّر الاصطلاح - في ترجمته لكتاب دوركهايم (Regles de la methode) بمعنى الحدث والواقعة، وهو معنى بعيد عن المعنى الأصلي للكلمة، كبعد معنى (الواقعية) عن معنى (الواقعة)!

المنهج في التفكير والاستعاضة عنه بالمنهجية اليونانية.

لقد أسدى ابن سينا وأمثاله من المتأثرين بالطريقة اليونانية خدمات جليلة للإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يصلحوا المجتمع، وفرق كبير بين أن يخدم الإنسان مجتمعه وبين أن يكون مصلحاً له. لقد خدم هؤلاء الإسلام كثيراً من حيث أغنوا الجانب المعنوي في الحضارة الإسلامية، وعبّدوا الطريق أمام أبناء المجتمع الإسلامي لكي يتعرفوا على ثقافات الأمم الأخرى والمذاهب الفكرية الكبرى، ناهيك عما أضافوه من عندهم من علوم ومعارف وأفكار ونظريات، غير أن جميع هذه الخدمات لم تكن تصبّ في اتجاه إصلاح المجتمع وهدايته، فكل إصلاح خدمة وليس كل خدمة إصلاحاً، فإن لويس باستور كان خادماً للبشرية إلا أنه لم يكن مصلحاً لها، في حال أن عيسى ومحمد كانا مصلحين وبالتالي هما خادمان للبشرية أيضاً.

إن التطور العلمي الهائل والازدهار الحضاري الحديث مدين لجهود ومساعٍ بذلها رجال كبار أمثال فرانسيس بيكون وراجير بيكون وديكارت وغيرهم من العلماء الأفذاذ الذين غيّروا منهجية التفكير، وحثوا سائر العلماء والباحثين على الدراسة والتحقيق في نطاق المحسوسات والأمور الجزئية التجريبية ومشاهدة الحقائق الخارجية. سألوا ديكارت: أي كتاب درست؟ فأشار إلى جثة هامدة لحيوان، وقال: هذا..!

أليس هذا تطبيقاً دقيقاً للأمر الصريح: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)؟

إن ما يدعو للأسف تأثّر عقول معظم العلماء المسلمين بالنزعة اليونانية ما أدى بهم إلى أن يكونوا ماهرين للغاية في تأويل القرآن حتى ما كان منه آيات محكمات، وقد صنفوا الأوامر الصريحة الواردة في القرآن إلى صنفين:

١. **الأمر الإنشائي**: نظير (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وهذا النوع من الأوامر لابدّ من امتثاله والانقياد له.

٢. **الأمر الإرشادي**: نظير (فسيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) وهذا ما لا يجب امتثاله، إذ المراد فيه بيان أهمية المأمور به لا غير!

إن هذا النمط من التفكير هو الذي قادنا وأوصلنا إلى الحال التي نحن عليها الآن، حيث نرتقي المنبر يومياً للحديث عن أهمية العلم ونؤلف في ذلك كتباً ومجلدات، دون أن نعكف فعلاً على اكتساب العلم وتحصيله، وذلك أن الأمر بالتعلّم إرشادي لا إنشائي!

إن هذه التأويلات (المتنوّرة) المضلّلة لهي أخطر ألف مرة مما ألحقه الاجتياح المغولي بالإسلام والمسلمين من خسائر فادحة أورثت مجتمعاتنا الجهل والخرافة والتعاسة والبؤس.

وكما أسلفت القول، فإن العلوم كانت تُنتهل في الأديان القديمة لا لأجل تحصيل المعرفة بل لإقناع الناس بالدين؛ فالسومريون والبابليون والآشوريون كانوا مثلاً يعرفون علم الهيئة وينظرون في النجوم، ولكن لا على أساس أن ذلك إنجاز علمي لابد من ممارسته، بل من جهة الميل العام في نفوسهم نحو إشباع حاجاتهم الدينية، وتنظيم أعمالهم وطقوسهم الدينية حسب الأمكنة والأوقات. وقد تعلّم المصريون فنون الرسم والنحت والهندسة المعمارية والتحنيط بالمومياء لحفظ تماثيل الآلهة وصيانة جثث الموتى وتزيين قبورهم. مضافاً إلى ما مرّ، فإن النظريات الفلسفية القديمة اتجهت نحو الأمور الكلية والمجردات، فمثلاً؛ نعلم أن الله واحد وبسيط، ولكن حينما يسخطه فعل العبد فلا شك أن هذا الغضب والسخط سيثار في نفسه (تبعاً لحدوث الذنب) في حال أنه لم يكن موجوداً قبل ذلك، وفي ضوء ذلك يطرح السؤال التالي نفسه: إذا كان الله قديماً فكيف تبرز فيه حالة من هذا القبيل، وهل نضطر للالتزام بأن الوجود الإلهي الواحد البسيط حادث وقديم في أن واحد؟ هذا غير ممكن لأنه جمع بين النقيضين.

وحيث أوقعنا أنفسنا بهذا التناقض لابدّ لنا من إيراد فرضية أخرى لا تستلزم المحال، كأن نقول أن صفات الله وحالاته جزء من ذاته. إن البحث والتدقيق في مسائل من هذا القبيل، والذي كان شغلاً شاغلاً لعلماء الإسلام وأوربا إبان القرون الوسطى،

من شأنه أن يمنح الإنسان قدرة استثنائية على المستوى النظري والذهني، لكنه في الوقت ذاته يمنع صاحبه من تحقيق تقدم ملموس على المستوى العلمي والعملي، ويحول بينه وبين كشف قوانين الطبيعة وتنمية آفاق معرفته الواقعية.

لقد حرص الإسلام الأول على عرض الحقائق الجزئية على الناس وحثّهم على التفكر فيها. ثمة مضمون خاص أستوحيه شخصياً من القرآن وأحسب أنه يدعم تصوّري هذا ويقوّيه، وهو عبارة عن تكرار القرآن للدعوة إلى (التفكر) و(التعقل) دون أن نعثر على مورد واحد يتضمن الدعوة إلى التفكر بذات الفكر أو تعقل العقل بنفسه لمعرفة أن العقل موجود مادي أو معنوي أو أنه جزء من ذات الإنسان أم عرض له؛ لازم أو مفارق، باق أم فانٍ، حادث أم قديم، وغير ذلك من البحوث الغريبة، الإسلام يدعو إلى التفكير بالعقل لا التفكير فيه، وذلك على غرار ما هو سائد في عصرنا الحاضر من عدم البحث في حقيقة الروح أو المادة أو الطاقة، والتركيز على آثار هذه الحقائق ودراسة خصائصها.

٩ ـ الإقرار بوجود الغرائز والميول الإنسانيّة :

أنقل إليكم قصة (أندريه جيد) وكيف تحرّرت نفسه من القيود التي صنعها له الدين في أوربا، فقهرت جميع ميوله وغرائزه الطبيعية وحرمته من النعم المادية للحياة، فتمرّد على كل

ذلك فألّف كتابيه (الموائد الأرضية) و(الموائد الجديدة)[١]، ومن ثم أطلق صرخته المدوّية: (... جئت لأنقذ الجميع من السجون الضيّقة للزهد وأطلق عنان الغرائز والأهواء كيما تلبّى جميعاً دون تحفّظ).

هكذا تمرّد (أندريه جيد) على روحية الوعظ الإرشاد التي تبتني عليها جميع المذاهب والأديان والتي يجمعها قاسم مشترك واحد تمثّل بعدم احترام الميول والرغبات الإنسانيّة والاستهانة بالجسد والمعالم الجمالية المادية، والإيمان بضرورة وأدها وذبحها قرباناً لمعالم الجمال المعنوي الأخروي. إن القرآن يعبّر عن المال والثورة بالخير والمعروف[٢] بينما نصفها نحن بالزخرف تأثراً بمذاهب الزهد القديمة.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٣].

والآية تتضمن التعبير على سبيل الاستفهام الإنكاري،

---

(١) "Les Nourritures terrestres" et "ses Nouvelles Nourritures"

الكتابان لمؤلفهما أندريه جياد الذي اختار لهما عنوان (الأطعمة الأرضية) مؤكداً أنه استوحى العنوان والموضوع فيهما من القرآن، ضارباً عرض الحائط بالمواعظ الدينية والعرفانية التي يحث عليها القساوسة ويدعون الناس من خلالها إلى تجنب الأطعمة الأرضية والإقبال على أطعمة السماء. يقول الشاعر:

(أفرغ جوفك من الطعام كي ترى نور المعرفة يتجلى فيه)

(٢) فقال إني أحببت حب الخير (ص : ٣٢).

(٣) الأعراف : ٣٢ .

الأبلغ من النهي المباشر، ومن ثم يصرّح في ذيلها بأنّ هذه الطيبات إنما هي من نصيب العباد الصالحين. وتضاهي الآية في معناها الآية الأخرى المستنكرة بشدّة تحريم المأكل والملبس في أيام الحجّ والداعية إلى الأكل والشرب.

كل هذه الأمثلة والمصاديق تعكس مدى اهتمام القرآن بالمتطلبات المادية لحياة الإنسان والاعتراف بميوله وغرائزه الطبيعية والحثّ على إطلاقها وإشباعها خلافاً لنزعة الزهد والإعراض عن الدنيا التي تكاد تكون المحور الرئيسي الذي تدور عليه الأديان عموماً. وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم فلسفة تشريع القصاص والحرب إشباعاً لغريزة التشفّي والانتقام وتطبيقاً لمبدأ الصراع من أجل البقاء، وكذلك الأمر مع قضية تسويغ تعدّد الزوجات[1]، وإدانة الفقر والدعوة للثورة على الطغيان والتمرد على الظالمين.

---

(١) للإسلام نهج خاص في التعاطي مع قضية (تعدد الزوجات)، فمن ناحية، جعل العدالة شرطاً للسماح للرجل بأن يتخذ زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة، ومن ناحية أخرى، يعتبر أن تحقيق العدالة بين النساء أمر غير ممكن، وبالتالي فالجواز مشروط بشرط لا يتحقق (في الوضع الطبيعي العادي)، وهذا في الحقيقة منع للتعدد لا تجويز له، طبعاً في الوضع المذكور: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣)... ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

والمهم في الآيتين أعلاه أننا نستوحي منهما أن قضية تعدد الزوجات جاءت في سياق معالجة (اليتامى)، وهذا يعطي معنىً آخر لفلسفة تعدد الزوجات في الإسلام يسلب منها البعد الفردي والجنسي ويستعيض عنه بأبعاد اجتماعية واقتصادية وأخلاقية.

١٠ ـ الاعتراف بحقوق الشعوب والأديان الأخرى :

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(١)

تمعّنوا في مفاد الآية؛ إنها تريد إقرار مبدأ التعايش السلمي بين الأديان المختلفة؛ ويمكن أن نستوحي منها أن الأقليات والفئات الأخرى، لو لم تدخل في معركة مع المسلمين ولم تلحق الأذى بهم، بمقدورها أن تتعايش مع المسلمين وليس ثمة أمر إلهي بمقاطعتها أو فرض طوق من الحصار عليها، بل أن لهم حقوقاً في المجتمع الإسلامي يجب تأمينها ومراعاتها، وهكذا نجد أن أبهى الكنائس والمعابد المسيحية تشيّد في أرض إسلامية وفي وقت كان الإسلام في أوج عزته، ففي زمان هارون الرشيد يتمّ رصد مبالغ ضخمة من بيت مال المسلمين لأجل إعمار وصيانة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين القاطنين في فلسطين. إن أحد الموارد التي تصرف فيها الزكاة هو توزيعها على (المؤلفة قلوبهم) مع أن الزكاة تعدّ مصدراً مالياً دينياً بحتاً، ومع ذلك فإنّه ينفق على غير المسلمين. ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢). والآية تميز بوضوح بين الخصم

---

(١) الممتحنة : ٨ .

(٢) الممتحنة : ٩ .

الفكري والعقائدي وبين الخصم الذي يقف في ميدان المعركة؛ بين الخصم العلمي وبين الخصم العملي الذي ينبري لقتال المسلمين ويخطط للقضاء عليهم.

لقد سُبي اليهود وأبعدوا عن ديارهم سنة (٧٠ ميلادية)[١] وأجبروا على التفرق في أنحاء الدنيا فصاروا أقليات منتشرة هنا وهناك، وكان للعالم الإسلامي فيما بعد حصته منهم، ولنصغ إلى هذا الكلام الوارد على لسان (كيه موليه) عضو الحزب الاشتراكي الفرنسي والذي قتل في أزمة الشمال الأفريقي قبل سنوات: (كان لليهود في البلدان الإسلامية نفوذ ونشاط حياتي طبيعي ولم يشعروا أبداً بأنهم أقلية، رغم أنهم كانوا كذلك في الواقع، ولذلك لم يجدوا حاجة إلى التمركز في نقطة واحدة والتحول إلى حركة عنصرية دينية ولم يفكروا بتشكيل دولة أو منظمة على أساس العرق والدين داخل المجتمعات الإسلامية، وذلك أنهم كانوا يزاولون نشاطهم المعاشي بحريّة ويتمتعون بالحقوق والمزايا التي يتمتع بها غيرهم)[٢].

---

(١) عام ٧٠ للميلاد انتفض يهود على السلطة المركزية في روما، ولكن تيتوس ابن القيصر الرومي جرّد حملة كبيرة على (أورشليم) وقضى على التمرّد بإبادة اليهود وطردهم من فلسطين.

(٢) نقلاً عن المفكر الجزائري عمر اوزكان وكان إسلامياً ماركسياً وشغل منصب وزير الزراعة في حكومة الرئيس بن بلاّ، وذلك في كتابه باللغة الفرنسية (أفضل الجهاد= lemeilleur Combal). وقد استقى هذا الاسم من حديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

ونحن نرى أيضاً أن اليهود اليوم يعيشون حياة طبيعية في مدينتنا (مشهد) التي تعد من أكثر المدن التزاماً وغيرة دينية، ومع ذلك لم يشعر اليهود هنا يوماً بالحاجة إلى التكتل في مكان معين.

ولم تظهر الصهيونية إلا بعد رواج الحركات العنصرية في أوروبا والتي كانت تحتقر اليهود وتمتهنهم، ما أدى بالتالي إلى بروز مطالبات بإنشاء وطن قومي لليهود[١].

الإسلام يحثّ المسلمين على الدعوة إلى دينهم ويعدّ ذلك وظيفة شرعية ولكنه في نفس الوقت لا يحظر على الأقليات الدينية الأخرى أن تمارس الدعوة لنفسها. وتحضرني هنا قصة من سيرة ابن هشام مفادها أن النبي جاءه وفد من النصارى فبسط رداءه على الأرض ليجلسوا عليه احتراماً وتقديراً. لاحظوا كم البون شاسع في الروحية والتعامل بين زمان النبي وزماننا نحن.

---

(١) الصهيونية التي برزت اليوم على هيئة حركة عنف عنصري وفاشيستي، كانت بالأساس رد فعل على الأفكار والميول الناجمة عن (الحركة اللاسامية= antisemitsime) والتي انتشرت في أوربا على نحو فتاوى للقساوسة تحمل طابعاً عدائياً لليهود على اعتبار أنهم قتلة المسيح (ع)، وانبثقت عمليات قمع وتنكيل وإبادة لليهود على مدى ١٩٠٠ عام بدء من عمليات الإبادة التي مارسها اليونانيون في العهد السلوكي بحقهم إلى ممارسات القهر والتبشير والاضطهاد التي مورست ضدهم من قبل الروم، إلى الممارسات الهتلرية التي راح ضحيتها ستة ملايين يهودي.

ثمة قصة أخرى من سيرة النبي طالعتها وأثّرت في نفسي بشكل كبير: تصوروا شخصية سياسية كبيرة مقتدرة لها موقع أعلى في السلطة ولها مع ذلك مكانة معنوية رفيعة في المجتمع، وتتمتع بمعنويات عالية تجعله يبعث من موقع الضعف وهو في مكة برسائل إلى زعماء أعظم امبراطوريتين في ذلك العهد ويهددهم بأن يسلموا لكي يسلموا أو على الأقل يفسحوا المجال لترويج دينه بين الناس، كما أنه يبعث برسائل من هذا القبيل وهو في المدينة مقدماً اسمه على أسماء كسرى الفرس وقيصر الروم، مع كل ذلك فإنه يعيش حياة اقتصادية متواضعة وعلى النحو الذي يثير دهشة وإعجاب عالم ما بعد الثورة الفرنسية والحركات الاشتراكية ويحتل مساحة لائقة في الأدب الإنساني العالمي كمظهر من مظاهر الحكم والسياسة والأخلاق ظهر في القرن السابع من التاريخ الإنساني، وكان له بطبيعة الحال تأثير عظيم على أهل عصره، خاصة شعوب الامبراطوريتين الكبريين آنذاك: الفارسية والبيزنطية... مضمون القصة أن النبي احتاج إلى شيء من المال فاقترضه من رجل من يهود المدينة ورهن عنده درعه كوثيقة ولم تستردّ الدرع إلا بعد وفاة النبي حيث فكّ الرهن من قبل ورثته ﷺ.

وخلال أيام الدولة العباسية وأواخر الدولة الأموية، كان للكثير من علماء اليهود حظوة ومكانة رفيعة في جهاز الحكم ومركز الخلافة، وكانوا يشتركون في محافل دينية تقام بإشراف

(هارون) نفسه ويدخلون مع المسلمين في مناظرات ومطارحات عقائدية ودينية ويبدون آراءهم وعقائدهم بحرية كاملة، وقد احتفظ التاريخ بهذه المناظرات والمطارحات الفكرية والدينية. وفي ظل حكومة علي بن أبي طالب يستدعي القاضي خليفة المسلمين ويطالبه بالمثول أمامه إلى جنب رجل يهودي لتبدأ المحاكمة، وهذا لعمري مشهد حضاري فريد يعكس اقتدار الجهاز القضائي ومدى احترام العدل في المجتمع الإسلامي[١].

١١ ـ الإقرار بناموس التكامل :

يعتقد كثيرون أن نظريات التطور تتعارض مع الدين وخاصة النظرية الداروينية، والواقع أن هذه النظريات لا تتعارض مع الدين بل مع المتدينين، وهؤلاء هم الذين شنّوا عليها حرباً شعواء واستنكروها وأدانوها بشدة، حتى أن الداروينية أخذت تكتسب - حيثما تذهب - طابعاً علمياً مناهضاً للدين، ما حدا بالمسلمين إلى عدّ داروين مرتداً عن الدين، مع أن الرجل من أشد العلماء المتأخرين تديناً واعتقاداً، ويتمتّع بروح شفافة سامية. وفي ضوء ذلك ليس ثمة مبرر لتصنيف النظرية الداروينية في عداد المذاهب الفكرية اللادينية، وذلك أن أحداً ليس بوسعه أن يفهم الداروينية

---

(١) راجع كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) لسيد قطب وترجمة كتاب (الإمام علي صوت العدالة الإنسانيّة) - خمسة أجزاء - للدكتور جورج جرداق، الترجمة الفارسية للسيد هادي خسرو شاهي.

أكثر من (داروين) نفسه، ولو كان هناك تعارض وتنافٍ بينها وبين الدين لكان داروين أسبق من غيره إلى اكتشافه. نعم، إن التناقض والتعارض إنما هو بين التوجه الديني السائد وبين فكرة التطور والتكامل. ويعود السبب في ذلك إلى أن (المتديّن) غالباً ما يتصوّر أن الدين الذي يدين به هو الأفضل على الإطلاق بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه، وبالتالي لا موجب لأن يتغير. إن كل متدين يعتقد بصحة دينه وأفضليته من أي شيء آخر، لابدّ وأن يصل إلى نتيجة من هذا القبيل، ويجد نفسه - في خاتمة المطاف، ومن حيث يشعر أو لا يشعر - معارضاً لأي توجّه تكاملي وإصلاحي. وقد تجلّت هذه المعارضة في كل العصور التي كانت السلطة فيها بيد القوى والتيارات الدينية سواء في أوربا أو في بلاد المسلمين. بيد أن التكامل هذا يمكن العثور عليه في القرآن بصور وأنماط مختلفة؛ في الطبيعة وفي النبات والحيوان والإنسان[١] بل في نفسية النبي وشخصيته. ويكفينا على سبيل المثال أن نقول أن أرفع نماذج علم النفس الإنساني بالنسبة للمسلم تتجسد في شخصية النبي، بمعنى أن الشخص المسلم قد يقبل التكامل في كلّ شيء إلاّ التكامل على شخص النبي، إذ لا نقص في النبي - في نظر المسلم - حتى يكمل. إن عوامّ المسلمين يذهبون في

---

(١) راجع كتاب (التكامل في القرآن) بقلم الدكتور سحابي أستاذ علم الأرض في جامعة طهران.

تصوراتهم عن النبي إلى مستوى اعتقادهم بأنه يتقن كل اللغات ويطلع على جميع الأسرار ويحيط بالعلوم كافة، فأيّ مجال للتكامل بعد ذلك؟!

توجد روايات وأحاديث حول خلقة النبي تتضمن التصريح بأن نور النبي قد خلق قبل خلق العالم ومن ثم خلق العالم وخلق آدم فحلّ فيه النور المحمدي. وفي ضوء ذلك فإن خلق محمد كان فعلاً إعجازياً خارج إطار المادة وقوانينها. هذا في حال أن صورة محمد في القرآن تختلف كثيراً، فهو إنسان يجدّ ويجتهد دائماً ليصبح أكثر كمالاً وفضلاً(*). والقرآن نفسه يحثّ النبي على تكرار الدعاء التالي: (وقل ربّ زدني علماً)، ويفهم من ذلك - ضمنياً - أن قانون التطور المعنوي العلمي صادق حتى في حق النبي، فهو أيضاً في حالة تكامل وتطور، بل أن التكامل والازدياد هي أعظم نعمة يطلبها النبي من ربّه. وهل تعني مقولة (رب زدني علماً) شيئاً غير ذلك؟! وفي مناسبة أخرى قلنا أن النبي نفسه كان يردد الدعاء (ربِّ زدني تحيراً). ما المراد من الحيرة ومن الذي يزداد تحيّراً؟ إنه الشخص الذي يتمتع بعقل كبير وعلم كثير . . . عندما أنظر أنا

(*) إن عدم تضلّع المرحوم شريعتي بالفلسفة الإسلامية قاده إلى الاعتقاد بوجود تناقض بين هذه الروايات وبين القرآن الكريم ولم يتمكن من التوفيق بينهما، غير أن الفلاسفة والمفسرين الإسلاميين أثبتوا أن لا تنافي بين الاثنين، لذا اقتضى التنويه، يراجع تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي لمزيد من الاطلاع. (مكتب نشر أعمال الدكتور شريعتي).

إلى السماء فلن أرى سوى مشهد خلاّب لسماء صافية تنتشر فيها نقاط فضية مضيئة، والمنظر لا يثير في نفسي حيرة، بل أتمتع برؤية النجوم والكواكب والسماء الصافية، ولكن الأمر يختلف عندما يكون الناظر هو أنشتاين، فإن الرجل إذا تأمل في السماء تنتابه دهشة وحيرة، على خلافي أنا حيث لا أرى في السماء سوى بضعة مجاهيل: لماذا هذه السماء زرقاء؟ ولماذا تتجمع الغيوم هنا وهناك؟ وما الفرق بين هذه النجوم الثابتة وتلك المتغيرة؟ هذه هي أسئلتي! أمّا علماء الفلك والنجوم كلّما تفكروا وتوسّعت آفاق معرفتهم بالنجوم كلّما تولّدت لديهم أسئلة جديدة ومن هنا يزدادون تحيّراً.

إن من يزداد دهشة وتحيّراً، يتمتع بقدرة عالية على درك الأشياء، وفي ضوء ذلك فإن قانون التطور شامل حتى لشخصية النبي التي تعدّ في نظر عامة المسلمين، الشخصية الأفضل على الإطلاق، وها هنا يتجلى عمق مقولة عليّ: (من تساوى يوماه فهو مغبون).

١٢ ـ الدين جاء لتامين مصالح الإنسان لا لاستغلاله وإذلاله:

هناك مصطلحات مرادفة لـ(الإسلام)، وأحدها (الشريعة) وتعني في اللغة (الطريق إلى الماء) حيث أن النهر يختلف عمقاً عن الضفاف فيعمد الناس إلى إنشاء سلالم يتاح عبرها للناس الوصول إلى الماء بيسر وتعبئة ما يحتاجونه منه. وهذه الوسيلة

يطلق عليها اسم (الشريعة)، والكلمة الأخرى التي تستخدم أيضاً للتعبير اصطلاحاً عن الإسلام هي (الطريقة) و (الدين) وتعطيان المعنى نفسه. فالدين إذن وسيلة لا هدف. إن من لا هدف له يعتبر طريقه إلى الهدف هدفاً، أما الذي يمتلك هدفاً فلا يعدّ الطريق إلاّ وسيلة لبلوغ ذلك الهدف. وعليه فالدين في الإسلام وسيلة وأما الهدف فشيء آخر، غير أن عموم المتدينين - ونحن من بينهم - نتوهم أن الدين هو الهدف، وهذان منهجان في التفكير في غاية التفاوت والاختلاف. الشخص الذي يقصر همّه على الوسيلة لن يكون قادراً على بلوغ الهدف، أما الذي يلقي ببصره نحو الهدف فسيصبح مقدوره أن يستفيد من الوسيلة على أحسن وجه. يقول الشاعر مولوي: (كان حريّاً بك أن تذهب إلى مكة لكنك التصقت بمركبك في منتصف الطريق، لقد مهدّوا لك هذا المركب لكي يوصلك إلى مكة حيث الهدف، لكنك نسيت أنك قاصد مكة وشغلت نفسك بالتفكير بمزايا المركب وخصائصه زاعماً أن هذه الأمور هي فقه الدين فضيّعت عمرك فيها، وحيل بينك وبين الوصول إلى الهدف).

صفوة القول أن ثمة منهجين في فهم الدين، ففي الإسلام يعدّ الدين وسيلة وفي باقي الأديان يتحد الدين مع الهدف[١].

---

(١) مصطلح الدين في اللغات الأوروبية (religion) مركب من جزئين الأول (re) ويعني في اللاتينية التكرار والمعاودة، والثاني (legar) ويعني الاتصال والارتباط، وفي =

وهذا أحد الفوارق الرئيسية بين إسلام القرن الأول وغيره.

لكل عبادة وحكم شرعي فلسفة وحكمة :

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[١] ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾[٢] ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٣] ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]. نعم هذه كلها وسائل والهدف شيء آخر إذا غفل عنه أفرغ الدين من محتواه.

= ضوء ذلك، يكون معنى الدين هو الارتباط المتجدد بالرب وبالملأ الأعلى، وإعادة وصلنا بالله (وذلك أننا كنا متصلين فيما مضى، وأبونا آدم قطع هذا الاتصال والارتباط بحبّة واحدة، فطردنا من الجنة والوصال، والدين هو فرصة أخرى لمعاودة الوصل).

(١) العنكبوت : ٤٥ .

(٢) المائدة : ٦ .

(٣) البقرة : ١٧٧ .

(٤) التوبة : ١٩، لاحظ ذيل الآية !

١٣ ـ حرية التعبير عن الرأي(*) :

لابدّ أنكم سمعتم بحال القرون الوسطى حيث يقتل فيها

(*) يجب التنبيه هنا على إن الإسلام اختار طريقاً وسطاً بين الحرية والديمقراطية الغربية على ما طرحوها بعد الثورة الفرنسية الكبرى ويدافع عنه باستماتة دعاة حقوق الإنسان، وبين نهج الاستبداد الفكري ومصادرة الحريات وكمّ الأفواه التي لا تنطق بما تمليه السلطة .

إن ظاهرة القمع والكبت الفكري تقتل روح الإبداع في المجتمع وتهمّش القابليات والعقول المتنورة، وتئد الأفكار والاطروحات الجديدة، وليس ثمة جريمة في التاريخ أسوأ من هذه. بيد إن الليبرالية الغربية واجهت هي الأخرى مشاكل على مستوى التطبيق شغلت بال الكثير من المصلحين الاجتماعيين، وأدّت الى تشكيك بعض المعتنقين لها بصلاحيتها لإدارة المجتمع، وذلك أن المجتمع الذي يباح فيه كل شيء بدون أدنى ضابطة، مآله لا محالة الى البوار والانحطاط. ان مراكز الفساد الاخلاقي والروحي تنتشر يوماً بعد آخر مستفيدة من أجواء الحرية المطلقة في تضليل الشباب والمراهقين وضعفاء الشخصية، بحيث بات حبل الفساد والإباحية والتحلّل يضيق على عنق المجتمعات الغربية، وأصبح ينذر بمصير أسود للأجيال، خاصة وأن كل محاولة للحدّ من حالة الانهيار هذه تصطدم مع مبدأ الحرية بشكله المطروح الآن.

عندما أمر الجنرال ديغول بأن تضع الراقصات اللاتي يرقصن عاريات في الملاهي والكبريهات ورقة صغيرة لتغطية المكان الخاص، ارتفعت الصيحات تصف ديغول بأنه ديكتاتور! أي حقّ له في إصدار هكذا حكم؟ أليس من حق كل إنسان بمقتضى الحرية أن يرقص كما يشاء وأن يكشف عمّا يشاء؟!

مضافاً لما مرّ، فإن الحرية المطلقة الفردية تُسقط المسؤولية عن الحكومة في الدفاع عن قيم المجتمع وقيادته معنوياً وأخلاقياً، وتَقصر وظيفة الحكومة على إدارة مرافق المجتمع.

فيما يفرض الإسلام على الحكومة الإسلامية أن تكون مسؤولة عن قيادة=

العالم الذي يكتشف شيئاً جديداً، وعلى الأقل أنكم تعرفون المصير الذي آل إليه (غاليلو). وهناك خطبة معروفة لفيكتور هيجو حول القرون الوسطى وما كانت تقوم به الكنيسة والقساوسة من ممارسات تعسفية ظالمة بحق العلم والعلماء، وهي خطبة جديرة بالمطالعة.

وقد مرّ الإسلام بمرحلة عصيبة كهذه إبان القرنين الخامس والسادس لتبدأ بعدهما مرحلة القمع والتنكيل الديني والمذهبي. غير أن الإسلام في مراحله الأولى كان بريئاً من هذه الممارسات، ولم ينقل عن أيّ من الفقهاء الكبار كأبي حنيفة ومالك والشافعي أن أحدهم كان يتمسّك برأيه فحسب، وكان أبو حنيفة يقول: حرام على من يقلّدني وهو لا يعلم مستندي في الفتوى. وكان يقول عندما يفتي بشيء: هذا رأي أبي حنيفة وهو أفضل ما توصلت إليه، فلو جاء أحد بأفضل منه فرأيه أرجح، وهذا مثال بارز على عدم التطرف والتعصب حتى على مستوى الفكر الديني في ذلك الزمن.

= المجتمع نحو الهداية والدفاع عن قيمه، جنباً الى جنب احترام حقوق الأقليات والمذاهب المختلفة في المجتمع. وعموماً لا يعتقد الإسلام لا بالديكتاتورية ولا بالليبرالية والديمقراطية المطلقة بل بالليبرالية الملتزمة أو المصلحة، أو ما عبّر عنه أحد الزعماء في مؤتمر باندونغ بالديمقراطية الموجّهة. (إضافة لاحقة من قبل المؤلف).

إن من مزايا الإسلام في قرونه الأولى رواج ظاهرة الاختلاف في الرأي في مجالات التفسير وعلم الكلام والحديث وأصول العقائد الإسلامية، وكثرة المناظرات والاحتجاجات المذهبية بين العلماء، حتى أن حرية التفكير بلغت مستوى كان يتيح لعلماء المذاهب الدخول في نقاش حول قضايا ومسائل علمية ترتبط بالله والإسلام والقرآن، حتى بلغ الأمر حدّاً أُلّفت فيه كتب تتحدّى القرآن، وذلك في ظلّ حكومة إسلامية مقتدرة تضمن الحرية للجميع.

كثيرون من أمثال أبي العلاء وأبي العوجاء والدهريين[١]، كانت الأوضاع تسمح لهم ببيان أفكارهم والدخول في سجالات فكرية دفاعاً عما يعتقدون به، بل أن المسلمين هم الذين دوّنوا هذه الأفكار والمحاججات وصانوها من الضياع حتى وصلت إلينا. وإلقاء نظرة عابرة على كتب (الاحتجاج) تكفي لتكوين

---

(١) ثمة خطأ شائع بتسمية (الدهريين) بـ(الطبيعيين)، في حال أن هؤلاء - وكما يبدو من كلمة الدهر - يذهبون إلى أن الزمان هو المصدر الرئيسي للخلقة وينبوعها الأول وليس الله أو الطبيعة. . . وربما اتحدت كلمة (الدهر) مع الكلمة اليونانية (chron) التي اشتق منها في اللغات الأوروبية مصطلح (chronologie)، ويظهر أن ألفاظ (الدهر) و (chron) و(زروان) وربما أيضاً كلمة (زمان) تلفظات متعددة لكلمة واحدة، وهي تدل جميعاً على معنى الزمان. وفي ضوئه، يمكن عد ذلك أحد الأدلة على تصنيف الدهريين في قائمة المتأثرين بـ(الزروانيين) أي المانويين والمزدكيين.

صورة واضحة حول مستوى التحرر الديني والفكري الذي كان سائداً في غضون القرون الأولى إلى القرن الرابع الهجري وما بعده حيث بدأت هذه المظاهر بالاضمحلال والزوال.

وينقل عن الإمام الشافعي قوله لأبي إسحاق: يا أبا إسحاق لا تقلّدني في كل ما أقول. تدبّر في نفسك، هذا هو الدين، فالتقليد غير جائز مطلقاً لا في الفكر ولا في أصول الدين[١].

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: تدّبروا في أمر دينكم، فالتقليد لغير المعصوم مذموم، وهو يعمي البصيرة.

هذه الكلمات تبيّن حقيقة أن المسلمين الأوائل كانوا يحاربون التقليد والتعصّب المذهبي منذ البدء، وأن مناخ حرية التعبير عن الرأي والعقيدة كان هو السائد في الوسط الإسلامي حتى أن أتباع الأقليات الدينية كان يسمح لهم ببيان آرائهم ومعتقداتهم بحرية تامّة. ويؤيد هذا التصور واقع المسلمين إبان القرن الثاني والثالث والرابع بتمامه، حتى أن العديد من التصانيف اليهودية ألّفت في حقبة ما بعد الإسلام، وأكثر من ذلك أن كتاب (دينكرد)[٢] ألّف في بغداد عاصمة الدولة

---

(١) التقليد في أصول الدين غير جائز.

(٢) ويشتمل على تاريخ الاوستا وأدبيات الديانة البهلوية، وقد ألف بعد الإسلام وفي بغداد!.

الإسلامية. وقد استمرت هذه الأجواء من حرية التفكير إلى بدايات القرن الخامس الهجري، حيث مجيء الأتراك إلى السلطة ووصدهم بوابات الفكر والتفكير.

ومن الأمور التي تدلل على مدى التحرر الفكري السائد آنذاك فتح باب الاجتهاد في الإسلام، بما يحمله من معنى يتيح لكل فرقة دينية ومذهبية أن تزاول نشاطها الفكري والعلمي بحرية بالغة من أجل استنباط الأحكام الدينية على ضوء المستجدات الزمانية والمكانية (وهو معنى الاجتهاد)، الأمر الذي بلغ من الأهمية بين أوساط المسلمين درجة الإقرار رسمياً باختلاف المذاهب.

ومإذا تعني مقولة (الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق)؟ أليست تعني عدم احتكار حق التفسير والتعبير عن الرأي، بل أن من حق أي إنسان أن يختار طريقه إلى ربه دون أن يدان على ذلك. وللنبي في هذا السياق مقولة رائعة يقول فيها: (إن في اختلاف أمتي رحمة). وطبعاً هو يعني هنا الاختلافات الفكرية، إذ الأمة التي تفكر على نمط واحد أمة ميتة، لأنها في الحقيقة لا تفكر، التفكير على نمط واحد بمنزلة عدم التفكير، إذ الأفكار لا يمكن صياغتها في قالب واحد إلا في حالات الكبت والاختناق.

من أين تأتي الرحمة في الاختلاف؟! من تلاطم الأفكار وتصادمها الحرّ، فهذا التصادم هو الذي ينتج الفكرة الجديدة،

فتتلاقح الأفكار وتتكامل. إن حرية التفكير في القرون الأولى للإسلام هي التي أوجبت ظهور الحضارة الإسلامية وازدهارها في النصف الثاني من القرن الثالث وما بعده إلى القرن الخامس الهجري. وهذه الحضارة لم يكن يقيّض لها أن ترى النور لو كانت المدارس النظامية[١] للخواجة (نظام الملك) وما فيها من تعصب أعمى موجودة قبل ذلك الزمان.

إن اختلاف علماء الأمة رحمة، لأن منشأ التكامل هو التنازع وتصادم الأفكار والآراء والنظريات، وتلك هي دعامات الديالكتيك الثلاث في الطبيعة والإنسان. وأنا أعتقد هنا أن (فريد وجدي) غفل عن بحث يعدل في قيمته هذه الأصول والأركان جميعاً.

---

(١) لا ينكر الدور المهم الذي لعبته المدارس النظامية المتعددة في توسيع نطاق الدراسات الإسلامية والمعارف العليا، غير أن اعتبار اعتناق مذهب خاص شرطاً لدخول هذه المدارس الجامعية أخلّ كثيراً بمكانتها العلمية، وصار موجباً لشيوع مظاهر التطرف الديني والطائفي وسرايتها إلى المحافل العلمية الإسلامية بعد أن كان مقتصراً آنذاك على الأوساط الاجتماعية العامة، ومن ثم تسببت هذه الظاهرة في سدّ أبواب الاجتهاد وقمع حرية الرأي والتفكير والذي كان يعدّ واحداً من أبرز معالم الثقافة الإسلامية ومفاخر المسلمين وأحد أوجه تقدمهم الحضاري على غيرهم. وأنا أشعر بوجود شبه كبير بين الخواجة نظام الملك وجوستي نين وبين المدارس النظامية والمحافل العلمية الكنسية، وذلك من ناحية العواقب الوخيمة التي خلّفتها هذه المحافل والشخصيات على الصعيد الفكري والعلمي. وهذا جزء من بحث مهم وواسع تعرّضت له بالتفصيل خلال تدريسي لـ(تاريخ الحضارة) و (الفلسفة الإسلامية).

س : أنتم تزعمون أن التكامل لازم حتى لشخصية كشخصية النبي، وقد أثبتّم أن كل موجود محتاج إلى التطور والتكامل، فلماذا كان النبي ﷺ يعتبر نفسه خاتم الأنبياء؟

جـ : لقد تصدّى للإجابة عن شطر من هذا السؤال الفيلسوف الإسلامي الكبير المعاصر (محمد إقبال اللاهوري)[١]، وأنا أضيف الشطر الثاني من عندي، وهو رأي شخصي أنا مسؤول عنه، ومفاد ذلك أن النبي عندما يصف نفسه بأنه خاتم الأنبياء لا يريد القول بأن ما قاله يكفي البشرية إلى الأبد، بل مراده من الخاتمية أن الإنسانيّة كانت إلى ذلك الحين محتاجة إلى هدايتها من قبل ما وراء الطبيعة والتربية البشرية، أما الآن أي في القرن السابع الميلادي، وبعد ازدهار الحضارة اليونانية والرومانية ومن ثم الإسلامية، وبعد نزول التوراة والإنجيل وعلى أثرهما القرآن. فقد تلقت البشرية ما يكفي من التعاليم الدينية ولم تعد هناك ضرورة للمزيد من ما وراء الطبيعة، فالإنسان قادر من الآن فصاعداً وبدون الوحي على سلوك طريقه في الحياة دون الحاجة إلى نبي جديد، وهذا معنى

---

(١) (روح الثقافة الإسلامية) ترجمة السيد غلام رضا سعيدي وكتاب (Reconstruire la Pensee Islam religieieuse de) وهو ترجمة بالفرنسية لكتابه المعروف بالانجليزية باسم إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام).

الخاتمية، أي أنه لا رسول بعد اليوم؛ انطلقوا بالاعتماد على أنفسكم(*).

س : إذن ما هو مصير هذه الأقلية الغارقة في مستنقع الفساد والتحلل؟

جـ : أن الفساد الذي نتحدث عنه اليوم مبالغ فيه إلى حد كبير، ويعود ذلك إلى جهلنا بالتاريخ، فلو يقرأ أحدنا التاريخ قراءة جيدة يرى حتماً أن إنسان اليوم قادر - على الأقل - على التمييز بين الصلاح والفساد، فلا يوجد اليوم إنسان يتكلم بكلام باطل وفاسد، والفساد الحاصل في أرجاء المعمورة غير ناجم عن عدم القدرة على تشخيص الصالح من الطالح، إنما الخطأ في مرحلة العمل والتطبيق.

إن أسوأ إنسان في عالم اليوم حتى لو كان هو الذي أشعل فتيل الحرب العالمية، عندما تصغي إلى كلامه تجده يردّد أجمل العبارات وأحسنها؛ عبارات الأنبياء التي كانت تملى على الناس

(*) لا يعني هذا الكلام أن البشرية استغنت عن الوحي، بل أن الوعي والنضج الفكري للإنسان بات بحفظ الكتاب السماوي (القرآن) واستنباط ما يلزم لتدوير عجلة الحياة منه، ولمّا كان الإسلام ديناً تاماً وكاملاً ﴿اليوم أكملت لكم دينكم و. . . .﴾ (المائدة : ٣) وبالنظر إلى الإيمان بمبدأ الإمامة المستودع في صلب هذا الكمال وكون قضية الإمامة تمثل شأن نزول الآية المشار إليها، في ضوء ذلك يقال أن الإنسان في عصر الخاتمية ليس بحاجة إلى نبيّ جديد.

في القرون السالفة فلا يفهمون مغزاها. ولكنك في مقام العمل والتطبيق تواجه أموراً أخرى تختلف تماماً . . . الانحراف حاصل في نطاق العمل لا التشخيص[١].

لقد بلغ إنسان اليوم مبلغاً من الوعي والنضج الفكري يتيح له - لو أراد - أن يدير أمور معاشه في ضوء الأسس والمعايير التربوية الدينية، ويضمن لنفسه ومجتمعه الفلاح والنجاح. الأساس هو الإرادة، حتى الأنبياء لم يكونوا قادرين على صنع شيء لو لم توجد إرادة لدى الناس في قبول دعوات الأنبياء وتعاليمهم. إن ميدان الفكر هو الحقل الذي كان الأنبياء ينشطون في العمل فيه، وكان أساس عملهم هداية الناس ومنحهم القدرة على تشخيص ما يضرّهم مما ينفعهم[٢]. كأن الرسول ﷺ

---

(١) أدعوكم للإصغاء إلى كلمة (آلف دالس) الشهيرة وكيف أن الرجل (يتقطع ألماً لما يراه من ضعف وتراجع مشهود في الأخلاق الإنسانية لعالم اليوم وشدة الفقر المعنوي وغياب الفضائل الإنسانيّة في الحضارة الجديدة وحرمانها من شهد العرفان وموهبة اكابر الدين، وكيف ينظر الرجل إلى هذه المسائل بأسلوب سقراطي، ويوزع المواعظ على طريقة الأنبياء والإوصياء - كأنه مسيح زمانه - خاصة اهتمامه الفائق بإرشاد الشباب؛ من هو ذلك الرجل ؟ إنه (آلن دالس) آزر ناحت تماثيل الآلهة الذي نحت شخصيات من قبيل تشومبا وباتيستا ونغودين ديم ومادام نهو وموبوتو وكازاوبو وعشرات آخرين من تماثيل البيض والسود والصفر، ومع ذلك فهو عندما يتحدث عن التوحيد يفوق حتى إبراهيم في جمال الحديث!

(٢) من الأخطاء الشائعة، التصور الغالب لدى كثيرين بأن مهمة الأنبياء هي إنقاذ البشر، والواقع أن هذه المهمة تقع على عاتق الإنسان نفسه، وما على الرسول =

يقول للفرد المسلم: إنك تخرجت من دورة تربوية اكتسبت خلالها شعوراً ووعياً يمكنّك من الآن فصاعداً من تأمين السعادة والسلام والأمن والكمال، لقد ترك الوحي مكانه للعقل، ولكن أي عقل؟! إنه العقل الذي ترعرع على مدى قرون في كنف الوحي ومدرسة الأنبياء.

- دكتور: أنا لا أتفق معك في ذلك!

- ليس من اللازم أن تتفق معي في الرأي، يكفي أن تفهم وتعي مإذا أريد أن أقول! وذلك أن كلامنا هنا ليس في صدد الدفاع عن الإسلام أو تسجيل اعتراض عليه، كلامنا في كيفية التعرف على الإسلام.

= إلا البلاغ وبيان طريق النجاة: (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ما على الرسول إلاّ البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (المائدة : ٩٩).

(*) لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة : ٢٥٦). وللمزيد راجعوا الآيات ٣/ ١٩، ٥/ ٩٣ ـ ٩٩، ١٣/ ٤، ١٦/ ٣٧ ـ ٨٤، ٢٤/ ٥٣، ٢٩/ ١٧، ٣٦/ ١٦، ٦٤/ ١٢ وآيات أخرى عديدة تشتمل على اشتقاقات الألفاظ التالية: بلاغ، رسول، نبي، سنة، كسب، كتاب وحكمة، قوم، وما إلى ذلك.

١٤ ـ التوحيد

الأصول والأركان التي أشار إليها فريد وجدي في كتابه، ليست تامة من جميع النواحي، وذلك أن قدراً من التأمل الدقيق والمهارة في البحث والتحقيق قد يتيح لنا استنباط أصول وأركان أخرى غير ما أشير إليه ولعلّها لا تقلّ عنها قيمة وأهمية. ولكن حيث أن الهدف الأساس هنا ليس معرفة الإسلام على نحو كامل وشامل، بل المقصود تكوين فكرة إجمالية عن الإسلام تصلح كمدخل ومقدمة للخوض في تاريخ الإسلام، وعلى وجه التحديد تاريخ إيران بعد الإسلام، لكي يعيننا ذلك على إدراك روح إيران الإسلامية، من هنا لا يوجد مجال للقيام باستقراء كامل، غير أن هناك ركناً أساسياً غفل عنه فريد وجدي ولم يورده في موسوعته، ألا وهو التوحيد والذي يعتبر عماد الإسلام وحسامه الصارم في معركة الأفكار العقائدية، ولعل فريد وجدي أحجم عن التعرض لذكره انطلاقاً من الشعور بأن التوحيد ليس أمراً خاصاً بالإسلام والمسلمين، غير إني أعتقد أن ثمة اختلافات جوهرية جمة بين مفهوم التوحيد في الإسلام ومفهومه في الأديان والمذاهب السابقة عليه، وإذا أغفلنا الإشارة إلى نقاط الاختلاف هذه، لن يكون بوسعنا فهم الإسلام بشكل صحيح، وسوف نغفل أيضاً عن أحد العوامل القوية التي أسهمت في ازدهار الإسلام وتطوره، وهو ما لا يليق بأي باحث ومؤرخ.

في مستهل الكلام، لا مناص لنا من الإقرار بحقيقة مفادها أن عقيدة التوحيد ليست وليدة الدين الإسلامي، إذ القرآن يصرّح مراراً بأن الهدف من بعثة الأنبياء هو الترويج لمبدأ التوحيد، غير أن هنالك بحثاً في علم الاجتماع اسمه (تقييم درجة الكلمات والعلائم والاصطلاحات)[١] (Degre de signification) ومعناه أن الكلمة الواحدة قد يكون لها معنى واحد لا يتغير بتبع تغير الظروف والمكان والزمان، إلاّ أن درجة ذلك المعنى قد تختلف شدة وضعفاً من مكان لآخر ومن زمن لآخر وتبعاً لتنوع الظروف والحالات، فتضيق دلالتها تارة وتتسع أخرى، ويعظم مصداقها الخارجي في زمن أو مكان معينين، ولكنه يتصاغر في زمن ومكان آخر، وكذلك كيفية تأثير تلك الكلمة ومستوى فهمها في الوجدان.

---

(١) على سبيل المثال أورد هنا كلاماً لأستاذي في جامعة (كالج دوفرانس) بروفسور برك (Berque.J) يقول فيه: ((للخبز معنى واضح وصريح، ولكن دون أن يتغير هذاالمعنى، ربما تصل درجة شدته أحياناً إلى حدّ بحيث حينما يمرّ المسلم فيرى فتات الخبز مرمياً على قارعة الطريق ينحني باحترام ويلتقطه من الأرض وينفض عنه التراب ويقبّله ويتوخى له مكاناً آمناً يضعه فيه ليصونه عن الهتك والإهانة والتلويث). ومن قبيل ذلك ما حصل في روسيا حينما رفع لينين شعاره المعروف (الخبز للجميع) قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧م، حيث تسامت قيمة الخبز معنوياً إلى درجة باتت الثورة وبذل التضحية من أجله أمراً معقولاً بل فرضاً واجباً... ونفس المعنى يمكن استيحاؤه من أمثلة شعبية رائجة من قبيل (حق الخبز والملح) و (أكلنا سويّاً العيش والملح).

في محاضرة سابقة قلت في معرض الإجابة على بعض التساؤلات، إنه لو أخذنا على سبيل المثال كلمة القلم والحرية والثورة وطبّقنا هذا المعيار عليها نجد أن هذه الكلمات كان لها معانٍ موجودة قبل الثورة الفرنسية الكبرى، وأن هذه المعاني بقيت على حالها حتى بعد الثورة، إلا أن درجة تلك المعاني ومستوى تأثيرها في الوجدان تفاوتا ما قبل الثورة وما بعدها. فالقلم قبل الثورة كان يعطي معنى آلة من الآلات كالمطرقة والمنشار والمسمار، أما الحرية فكانت تطلق ويراد منها حالة من الحالات! وربما يفهم منها أحياناً معنى التزامي أو تضمني آخر من قبيل الغوغائية والإباحية والفوضوية. انظروا إلى اشتقاقات كلمة (الحرية) في اللغة الفرنسية:

(Libertinage, libertin)، أما لفظة (الثورة) فقد كانت تستبطن معنىً سلبياً منبوذاً يرادف التمرد والعصيان والأعمال المشؤومة التي تودي بكل شيء وتعود بالبلايا والمصائب على المجتمع وتسلب منه الأمن والسلام وتدمّر بنيته وتسحق مقدساته. لاحظوا أيضاً التعبيرات الواردة في خطب وعّاظنا: يزيد يتهم الإمام الحسين دائماً بالثورة والخروج عن الصف، ويصفه بالعاصي والطاغي تمهيداً لإدانته، وما زال الواعظ يفهم من هذه الكلمات والأوصاف معناها القديم، فينبري لدفع هذه الاتهامات لا لإثباتها.

هذا في حال أن (القلم) اكتسب بعد الثورة الفرنسية الكبرى معنى جديداً وبات رمزاً مقدساً للفكر والإنسانيّة والقيم المعنوية، فيما اكتسبت مفاهيم (الحرية) و(الثورة) هالة من القدس والجلال بحيث راح كل شخص ينسبها لنفسه ولو زوراً وادعاءاً . . . العامل والكادح والمطرقة والسندان وغيرها من الألفاظ والكلمات كان المرء يأنف من نسبتها لنفسه أو لأسرته لأنها كانت تستبطن معاني وضيعة في الحقبة السابقة على ظهور الحركات العمالية والنهضات الاشتراكية في أوروبا، ولكن ما أن حلّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتبدّلت المعاني التي تتضمنها هذه الألفاظ والمصطلحات، إذا بالكل يسعون جاهدين للتشرف بهذه الأوصاف ونسبتها لأنفسهم أو لأسلافهم ولو على مستوى الادعاء، فنجد أن الإقطاعي ينتحل شخصية المزارع، ويتباهى رب العمل بأنه كادح. راجعوا كتاب (آرش كمانكير) لمؤلفه السيّد كسرائي فقد جسد هذه المضامين في ملحمة شعرية[١]. فإن ما هو معروف ومعهود في الملاحم الشعرية للأدب العالمي هو إناطة بطولة الملحمة بإحدى الشخصيات

---

(١) الملحمة البديعة (آرش الرامي بالقوس) أنشدها السيد سياوش كسرائي، ومن ثم صاغهاالسيد أرسلان على شكل مسرحية، وأخيراً نظمها السيد مهرداد اوستا على شكل ملحمة شعرية، نشرت بمشهد عام ١٩٦٥م مع مقدمة فنية رائعة للسيد ميرزا زادة آزرم.

المرموقة من أسر النبلاء أو الأمراء والسلاطين وأبنائهم[١]، وهذا الأصل الفني وضعه أرسطو في كتابه فن الشعر (بوئتيكا) في

---

(١) هذا هو الأساس في الأدب اليوناني القديم، وكذلك في باب (الشعر = بوئتيكا) الذي عالج أرسطو فيه موضوع التراجيديا والكوميديا. ففي النتاج الكوميدي فقط ينتخب البطل من بين عوّام الناس، ويتحدث باللهجة العامّية، وذلك أن إنساناً بائساً ليس له أصل ولا جذور، يعيش دائماً همّ تدبير لقمته، ليس بمقدوره أن يلعب دوراً مسرحياً يعكس العظمة والبهاء والهيبة والجلال والقدرة المعهودة في الملاحم الإسطورية. إنسان كهذا لا يصلح إلاّ لتمثيل أدوار هامشية ساخرة تثير ضحك وسخرية الحاضرين. هذاالشعور كان مشتركاً بين جميع الأقوام في جميع الأعصار والأمصار، خصوصاً في المراحل الزمنية التي طغت على الحياة فيها النزعة الملحمية الأسطورية وبلغت أوجها، حتى أن أبطال القصص لم يقتصر في اختيارهم على الطبقات الفوقية فحسب بل عمدوا إلى إضفاء الصبغة ال(فوق بشرية) عليهم وحوّلوا إلى شخصيات (إلهية ـ إنسانية) أو (إلهية) محضة. وقد روعيت هذه الحالة بدقة في شاهنامة الفردوسي، رغم أن الرجل مسلم والإسلام يناهض هذه النزعة بقوة، ولم يخرج عنها فردوسي إلاّ في موردواحد، فيما يبدو أن الضرورة التاريخية اقتضت الحديث عن بطل كبير اسمه (كاوه) ينهض للقيام بدور بطولي قومي، ولكنه مع الأسف! كان حداداً، ولهذا السبب ورغم ما صنعه من بطولات وحققه من إنجازات، فقد لحقه عار شعبيته وافتقاره إلى (النطفة) الأصلية. ولذا فقد جعل من رعايا (فريدون) الذي لم يكن له دور في تلك النهضة الشعبية العارمة سوى امتلاكه لتلك (النطفة)، النطفة هي التي منحت ثورة كاوة الأبهةوالجلال، هذا أولاً. وثانياً أن كاوة ما أن لمع نجمه فقد اتجه نحو الأفول حتى أغرقوه في أعماق نهر النسيان، وبدا أن (كاوة) البطل الأسطوري القومي الإيراني كان ظهوره بداية النهاية له، وما أن غادر الرجل كورة الحداد إذا به يضيع ويتلاشى وينعدم لكيلايسيء حضور هذا الحداد إلى جلالة قدر (النهضة الفريدونية)... لعمري، إن تاريخ الحماقات الإنسانيّة لأغنى من تاريخ الحكم الإنسانيّة وأجدر بالقراءة!

فصل التراجيديا والكوميديا، وكان جميع رموزه وأبطاله نظير برومته وهرقل واشيل وبيغماليون ما بين آلهة وأنصاف آلهة. جدير بالذكر أن السيّد كسرائي يتمتع برؤية عصرية متأثرة بالأدب الاشتراكي للقرن الأخير، وقد ضمّن في ملحمة (آرش) أراجيز الحماسة والفخر لهذا البطل الأسطوري القومي الإيراني على نحو يوحي بأن هذا الرامي البطل حينما يسدّد سهمه لتشخيص الحدود بين إيران على الأرض ينطلق السهم من مدينة ساري (محافظة مازندران) ويمرّ بفضاء تركستان، ليهبط في اليوم التالي على ساق شجرة جوز خلف نهر جيحون، وأن الرجل من فرط حبّه لوطنه كان يتحامل على نفسه حين تسديد رميته بحيث تكاد تزهق روحه ويصعق وجوده، هذا البطل المقدام، مثل أي ثائر من ثوار المقاومة البوليفية ورجال ويتكنغ، يفتخر بأنّ من فضائل أجداده أنهم ينتمون إلى الطبقات المسحوقة والشرائح الكادحة في المجتمع، ويتباهى ويزهو بأنه ابن للعامل الكادح أو الفلاح المسحوق. . .

والآن نتساءل لماذا؟ الجواب يكمن في أن اصطلاح الكادح والعامل والفلاح والطبقة المسحوقة، اكتسبت معاني مقدسة اعتباراً من النصف الثاني للقرن التاسع عشر وتحديداً بعد الانتفاضات العمالية في فرنسا وألمانيا وإنكلترا ورواج أفكار ونظريات برودن وسان سيمون وماركس وجان جرس وانتشار المدّ الشيوعي في الشرق، وذلك على خلاف ما كانت تنطوي

عليه هذه المصطلحات من مضامين ومعانٍ تعكس الشعور بالنقص والحقارة. بلى، لقد تبدلّت مضامين هذه الكلمات ومعانيها إلى درجة باتت تنسب إلى بطل أسطوري من قبيل (آرش) أو (رستم) بدل أن ينسب له أصالة العرق ونجابة الانتماء الأسري كما هو المعهود في مثل هذه الحالات، وذلك تبعاً لشكل الانطباع الذي يحمله الناس عن هذه الاصطلاحات وأضدادها في مرحلة اجتماعية معينة.

في ضوء ما مرّ، فعندما أستخدم اصطلاح (التوحيد الإسلامي) لا أريد أن أمنحه مفهوماً ومعنىً جديداً، أو أنني ازعم أن الإسلام يؤسس هنا لفكرة ومبدأ جديد، بل المراد هنا تحديد دائرة المعنى وشدّة درجة مصاديقه ومستوى شموله ونفوذه والمساحة التي ينبسط عليها ذلك المعنى. لماذا نقول بتوحيد إبراهيم؟ ولماذا نصف إبراهيم بأنه أبو الأنبياء وأول من شيّد دعائم فكرة التوحيد في التاريخ؟ ألم يكن الأنبياء السابقين عليه موحدين أيضاً؟ ألم تكن رسالاتهم قائمة على دعامة التوحيد؟! أن الاختلاف هنا أيضاً لا يدور حول أصل المعنى والمفهوم بل في كيفية المعنى ومساحته الجديدة التي امتدّت عليها النهضة الإبراهيمية.

وأهم قضية تجب الإشارة إليها فيما يرتبط بالتوحيد في الإسلام هي (إن التوحيد ليس أصلاً من الأصول العقائدية للدين

الإسلامي على غرار الأصول الأخرى لهذا الدين كالنبوة والمعاد وغيرها، التوحيد هو الأسّ الذي تبتني عليه سائر الأصول العقائدية)[١]، هذا كلام مهم للغاية، ومن خلاله يمكنكم أن تلمسوا بوضوح كيف أن الكلمة الواحدة، بدون أن تفقد معناها، تطرأ عليها تغييرات في مكانتها ودرجتها ودائرة شمولها سعة وضيقاً، وفي روح الكلمة وإحساسها إلى الدرجة التي يخال المرء بعدها أنه يواجه مفهوماً جديداً ومستحدثاً لم يكن له وجود في السابق. إن قراءة كهذه للتوحيد تجعل لهذا الأصل والركن المعرفي في الإسلام جلالة ومنزلة عظيمة في نفس المسلم تدفعه إلى التفكير به على الدوام، والحرص على التعرف عليه بشكل سليم ومنزّه عن كل الشوائب والمنافيات، ومن ثم تشييد صرح الحياة الفردية والاجتماعية ببعديها المادي والمعنوي على أساسه، باعتبار أن أدنى غفلة عن هذا الأصل ربما تفضي إلى إنزال ضربة ماحقة بهذا الركن الرئيسي من أركان الإسلام، ما يؤدي إلى ضياع كل شيء، وبطلان سائر الأعمال حتى ما كان منها خيراً وصلاحاً. إن المضمون الجليّ لمقولة (إن التوحيد أس لسائر العقائد وليس واحداً منها) يمكن صياغته على النحو التالي بأن يقال (إن التوحيد هو أساس الحياة الفردية والاجتماعية،

(١) هذا الرأي لوالدي السيد محمد تقي شريعتي. وللمزيد يراجع مبحث التوحيد في كتاب (نهضت أنبياء)) للسيد جلال الدين فارسي.

مادية ومعنوية، وبعبارة أخرى أنه الوجه المشترك في جميع أنحاء الحياة الإنسانيّة من أفكار وأفعال ومشاعر وأحاسيس على اختلاف أشكالها وكيفيّاتها) . . .

النشاطات السياسية والاجتماعية والجهود الاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية وكذلك العلاقات الفردية والاجتماعية من صداقة وعداوة واجتماع وتفرّق، يجب أن تنظّم جميعاً بحيث تكون مستندة إلى التوحيد كمنطلق وأساس، وبالتالي يكون لها مسارات مشتركة ومضامين جامعة ووجهة واحدة، هي التوحيد لا غير.

ما هو التوحيد ؟

خلال العامين (١٩٥٤ - ١٩٥٥) عانيت من أزمة فكرية وفلسفية حادّة، ففي تلك الأيام، ومثل سائر شباب هذا المجتمع ممن كانوا يماثلونني في السنّ، وليس لديهم قاعدة فكرية متينة ولا رصيد كافٍ من المعلومات؛ شأني شأن هؤلاء تعرضت لحملة أفكار خطيرة مسمومة مصدرها الفلسفة الأوربية المتأزمة، وقد تأثّرت بسموم هذه الموجة الفكرية الفلسفية إلى حدّ شرعت أتبع خطى التلميذ الذي تحدّث عنه بول بورجيه (Bourget.P) في كتابه (Le Diciple)، وكيف تلاشت شخصيته وتدمرت حياته على أثر فكرة الجبر القاتلة (Determinisme) المشتقة من الفلسفة المادية (Materialisme) التي لقّنها إياه أستاذه في

الفلسفة، ما أدى به إلى اليأس من الكون والحياة، وبات كل شيء عنده بما في ذلك هويته وشخصيته، فارغاً بلا معنى، وتلوّث عقله وروحه إلى أن أقدم على الانتحار وفقد حياته بين يدي أستاذه.

في تلك الأيام، وحيث لم تكن هناك مجالات ترفيهية مناسبة للشباب المثقف لكي يشغلوا أوقات فراغهم بها، تأثرت شأني شأن الكثير من أولئك الشباب بأفكار موريس مترلينغ وشوبنهاور وكافكا وصادق هدايت وأمثالهم، وعلى حين غرّة وجدت نفسي مغادراً المهد الهادئ الدافئ الذي أمّنته لي تربيتي الدينية التقليدية أيام صباي، لأقع ضحية التيارات الفلسفية العاصفة التي ظهرت عقيب الحربين الكونيتين، ودون وعي مني أو معرفة بـ(وجودية)[١] جان بول سارتر، ألفيت نفسي داخلاً في معترك فكري فلسفي حول وجود الله أو عدم وجوده، ولمّا لم يكن الإله الذي صوّروه لي في دين الصبا بقادر على أن يلبّي

(١) جان بول سارتر الفيلسوف والمناضل المعروف في عالمنا المعاصر، يعدّ من المشيّدين لدعائم الفكر الوجودي والمطوّرين له، يقول:

الوجود شيء تافه، والسماء مليئة باللاشيء، ليس هناك شيء أبداً، ولا رب لهذا الكون، كل شيء عارٍ عن الهدف والمضمون. والحياة شأنها شأن الكون كذلك ليس لها من غاية، الإنسان كذلك أيضاً، ولكن من أجل أن نمنح الكون معنى لابد لنا أن نختلق لأنفسنا هدفاً سامياً، وذلك أن الإنسان وحده قادر على أن ينفخ الحياة في الكون ويمنحه معنى ومضموناً، لأنه وحده يملك الحرية والاختيار.

طموحي ويملأ الفراغ الذي أشعر به، رأيتني أمام واقع مرعب يهدد كياني من الأساس، ويتوعّد وجودي وحياتي، وبدا لي آنذاك أن هذا الكون المترامي الأطراف وحياتي ووجودي وذاتي مفاهيم فارغة، وانتابني شعور جارف بالوحدة والغربة والانزواء، وانقبضت روحي انقباضاً شديداً؛ صيّر جميع آفاق الحياة في عيني، سوداء حمقاء، واستولى عليّ اليأس والقنوط، وتزعزعت لديّ كل المعايير والفضائل الإنسانيّة والضوابط الأخلاقية، والأمرّ من ذلك أنها غدت تبدو لي مجرد حماقات.

ويظهر أن هذه الحالات الروحية والعقائد المتزلزلة نتيجة حتمية لتزعزع الإيمان بالله لدى الإنسان، والشاهد على ذلك أنني حينما ذهبت إلى أوربا بعد سنوات، وانبسطت لي آفاق جديدة وتعمقت رؤاي ونضجت أفكاري أكثر وتعرّفت على شخص سارتر وطالعت كتاباته، أصابني الذهول لشدة ما رأيت من الشبه والتطابق بين تلك الأفكار والمشاعر، وبين ما عانى منه سارتر وألبير كامو من جهة وهايدكر وسبرس من جهة أخرى(١).

في العام ١٩٥٥م، حررّت مقالة أتصوّر أنها تعكس تلك الأفكار، وتؤشّر في الوقت ذاته على مدى الاضطراب الحاد الذي كنت أعاني منه روحياً في التوفيق بين تطلعات قلبي

(١) يراجع (الوجودية) لسارتر، و(الوجودية وأصالة الإنسان) له ايضاً، و(الطاعون) لألبير كامو.

وإيماني من جهة وعقلي وفكري من جهة أخرى. وكنت في تلك الأثناء أعمل في حقل التعليم، وأواصل في نفس الوقت دراستي للاعدادية في الصف السادس الأدبي بشكل غير منتظم، وعدا شيء من العربية لم أكن أتقن لغة ثانية أخرى، كما لم أكن أمتلك حينها من المقدرة العلمية والنضج والتجربة ما يمنحني الحصانة اللازمة لمواجهة مثل هذه الأفكار الهدّامة التي أدّت بمترلينغ العبقري إلى الجنون وبصادق هدايت المفكر إلى الانتحار. والواقع أن هذا المصير المشؤوم كان يلاحق جميع شباب هذا المجتمع ممن لم يكونوا يحظون بثقافة هادفة ذات وجهة صحيحة. ولا أقصد من الثقافة هنا وزارة الثقافة بقدر ما أقصد النتاج الفكري والثقافي لمفكرينا وكتابنا ومؤلفينا ومترجمينا ممن قصروا همّتهم فيما يكتبون ويطبعون وينشرون على ما ينفعهم لا ما ينفع الآخرين. وسوف أورد هنا نص تلك المقالة القصيرة لما فيها من بيان لحالة التزلزل الفكري والفلسفي التي أشرت إليها آنفاً، مضافاً إلى ارتباطها المباشر بمبحثنا الحالي:

((أنا أفكر فأنا موجود)) ⟷ ((أنا أشعر فأنا موجود))

رينيه ديكارت اندريه جيد

(أنا أتمرد فأنا موجود)

ألبير كامو

أما أنا، ففي جوف هذا الليل، يراودني تساؤل ملحّ: أيّاً أكون أنا؟! هل هذا الذي يعرفه الناس أو ذاك الذي أخفى نفسه وراء (هذا)؟ لا أدري لماذا أتمنى لو تخلّصت من هذا الشكّ المقيت فأنعم بالراحة والأمان في ظل الاقتناع بـ(أني لست هذا ولا ذاك)، وإنما أنا ذلك الذي أدرك هاتين الشخصيتين وميّز بينهما، ولكن إذا كانت معرفة وتشخيص الشيء سبباً لغربته عن ذاته، فهذه الذات (والأنا) ليست أنا . . . كم هو موحش الإحساس بأني كلما بحثت عن ذاتي ازددت عنها بعداً, أن كل ما أرى أنه أنا فهو ليس أنا، بل كائن أجنبي غريب انتحل شخصيتي ويدّعي زوراً أنه (أنا)، ولكن ماذا لو واصلت أفكاري سيرها في هذا الاتجاه؟ ألن يكون مقرفاً أن لا أعثر على (الأنا) أبداً؟!

لو سألتم: فمن الذي يصنع هذه الأفكار؟ من يكون سوى الـ(أنا)؟ أجيبكم بتساؤل آخر: لو كان هذا هو (الأنا) فمن الذي صنع عين هذه الفكرة وخلق التساؤل القائل (من الذي يصنع هذه الأفكار؟). . .

منذ اكتشفت أن بوسعي استبدال مقولة (إنني أنا) بـ(إنه أنا)، يئست تماماً من العثور على ذاتي، إذ لو توصّلت إلى أن (أنا فلان) فسوف يكون بمقدوري أن أصوغ ذلك بعبارة أخرى فأقول: (أنا هو فلان)، آنذاك من سيكون المتكلم؟ . . . إنني أسيء الظن الآن بمن يقول أن (من عرف نفسه فقد عرف ربه)،

فلربّما قصد أن يقول: (العارف بالله هو من يتشبّث بأوهام!). وأما العلم الحضوري: فهو كذبة بيضاء، الغرض منها الحؤول دون توغّل الفكر في الأعماق المليئة بالـ(أنا) الآدمية.

أنا أشعر دائماً بأن (من يفكّر) هو شيء آخر مغاير لـ(من يفكّر به)، وأحسّ أيضاً أن (من يفكر) غير (من يشعر)، ولذلك فقد يئست من العثور على الـ(أنا) الواقعية من بين هذه (الأناوات) المتراكمة في عمق وجودي، بل أصبحت أشك بوجودها أصلاً. وفي حالة كهذه وجدتني أميل إلى إسناد كل هذه (الأناوات) إلى (لا أنا) خفيّة هي وحدها الحقيقة، (وأناواتي) ليست سوى مظاهر لها، ولكنني أخشى أن يقترب كلامي مما يقوله العرفاء والفلاسفة وأصحاب الأديان، فالأفضل لي إذن أن أبقى في دوّامتي هذه وأنهي البحث عن ذاتي.

هل بوسعي أن أواصل حياتي دون أن أعلم من أكون أنا؟

ويحي! لو شعرت الآن أن (باركلي) محقّ في زعمه بأن العالم الخارجي وليد للأنا الباطنية، عندها سيكون الكون وأنا، مجرد حماقات زائفة وأراجيف ساخرة.

في هذه الحال، سيكون أكبر همّي واستيائي ناشئاً من الإحساس بأن كل ما آنس إليه في هذه الدنيا من ذات وسماوات وأرض وفضاءات، هي انعكاسات مضلّلة لـ(حقائق) خادعة. . . يا إلهي! سواء كنت موجوداً أم لم تكن، أنا الآن بحاجة ماسة

إليك، أنا الآن محتاج فقط لأن تكون أنت موجوداً!

أيها الناس! إذا حلّ اليوم الذي نوقن به جميعاً أن لا إله لهذا الكون، سوف يكون علينا أن نستشعر بأن أسمى الوظائف والمسؤوليات الملقاة على عاتقنا جميعاً، أن نهبّ معاً يائسين ومسرعين في نفس الوقت، لكي نخلق بأنفسنا (إنساناً سرمدياً) لكي يكون قادراً على أن يدرك عنفوان الصباح وعفة الفجر وكآبة وقت الأصيل ويفكر في أسرار الكون وخبايا الوجود المتطلعة إلى فكرة تلامسها برقة وفضول.

في محيّا الكون الغريب وفي براءة عيون السماء، أقرأ خوفاً وحسرة عميقين من أن يأتي يوم تفتقدان فيه الإنسان، وهما لا تعرفان بعد ذلك مإذا تصنعان!

الله ليس خالق الكون فحسب، وليس مجرد جواب على استفسار علمي حول كيفية خلق الوجود، بل هو الكون والوجود بعينه، فالوجود لولاه كلمة لا معنى لها، تافهة، فارغة من المضمون، وجه جميل لفتاة حمقاء. الله هو مغنى الوجود ووجهته، منه تكتسب الخلقة الحياة، وبه تزدهر الطبيعة، ومعه يصبح للكون هدف وإرادة وقيمة وعظمة (والعظمة هنا ليست بمعنى الضخامة والتعقيد والاتساع). إن الكون بلا إله جثة هامدة لا حراك فيها، والإنسان جزء من هذا الكون أيضاً، إنها لخرافة كبيرة أن يقال أن الله إذا لم يكن موجوداً وكان الوجود مجرد

حماقة كما يقول جان بول سارتر، فإن الإنسان قادر على أن يمنح غاية ومعنى للكون أو لنفسه على الأقل.

في الفلسفة اليونانية القديمة ظهر نمط من التفكير يزعم بأن الإنسان معيار للحق؛ نوع من عبادة الذات (Egocentrisme) أو عبادة الإنسان (Humanisme) لا يستند إلى منطق أو دليل؛ هذه الدنيا هي كل شيء، والوجود خال من المضمون، لا شيء في السماء، ولا هدف للخلقة ولا روح ولا إحساس ولا شعور، الطبيعة ظلام في ظلام، وجهل في حماقة، وظلم في فساد، وعلى الإنسان أن يتصدّى لإيجاد الغاية والهدف وضخّ الروح والحياة في جسد الكون، وعلى حدّ تعبير جيان إيزولا (Jean Isoule) مؤلف كتاب (المدينة الطاهرة) (La Sainte cite)[١]، يقول أن ذلك بمنزلة (تناول قدح ماء من بحر من السمّ).

الإنسان متشائم، الوجود أحمق وبلا شعور، فكيف يمكن لنا مُطالبة البشرية أو إلزامها باحترام المبادئ ومراعاة الأخلاق التي يقرّ سارتر وغيره من المروّجين لهذا النمط من التفكير بأنها صنيعة الإنسان نفسه بعد أن أدرك أن مصلحته تقتضي ذلك،

(١) جان إيزولا Jean Isoule مؤلف كتاب (المدينة الطاهرة). ويراجع مقال (التفاؤل والتشاؤم) الذي ترجمته من الكتاب وهو منشور في مجلة (آستان قدس) عام ١٩٦١م.

وليس لهذه الأخلاق والمبادئ حقيقة وراء ذلك، ثم كيف نتوقع من الإنسان أن يضحّي ويقاسي ويتحمل المصاعب والمشاق من أجل إقرار هذه المبادئ والأخلاق.

لقد آمنت الإنسانيّة عبر آلاف السنين بأن الله أو الآلهة يطالبون الإنسان وبإصرار أن يسيطر على أهوائه ونزواته ونزعاته العدوانيّة ويحارب الظلم والفساد في العالم، وكان البشر على مدى القرون السالفة يؤمنون بأن وراء هذا العالم عقاباً من الله أو الآلهة لمن يطلق العنان لأهوائه ونزواته ولا يراعي أصول المبادئ والأخلاق، ولكن ماذا كانت النتيجة؟! أن نظرة عابرة على الوضع الراهن للبشرية يكفي لإعطاء صورة كافية لمن يريد؛ بالأمس واليوم وغداً وعلى طول التاريخ رأينا ونرى بأعيننا مظاهر الفساد والجريمة والممارسات العدوانية التي يقوم بها أناس مؤمنون بالله وبأنهم سوف يتعرضون لحساب عسير، مع ذلك يقع ما يقع من ظلم وفساد، فما ظنكم لو تجرّد الإنسان من الإيمان بالله وبالحقيقة، ومإذا سيكون مصير العدالة التي يحلم بها جان بول سارتر ويزعم بأننا: (قادرون على انتخابها بحسن النية وتحقيقها عملياً)، علماً بأن الرجل يقرّ أنها على خلاف الطبع الإنساني وأن الالتزام بها سباحة عكس تيار الحياة!

ما أدق تعبير جيان إيزولا حينما يقول: (إن محاولات إقرار الأخلاق بدون أساس ديني واجهت جميعاً الفشل منذ زمان

سقراط إلى يومنا هذا)[١].

لا أريد أنا أن أخوض في بحث إثبات وجود الله أو في مسألة التوحيد، بل غرضي أن أشير إلى أنه حاجة فطرية من حاجات الإنسان يحتاج إليها فلسفياً وعاطفياً. ولعلّنا نرى اليوم بأن البشرية لا تستشعر الحاجة إلى الله، لكونها غارقة في مطبات الحياة المادية ومنعطفاتها الحادة، وقد هيمن على عقول الناس - خاصة الشرائح المثقفة منهم - الفكر اللاديني الذي ظهر جرّاء الثورة على الكنيسة في أوربا وشيوع النزعة العلمية (Scientisme) إبان القرن التاسع عشر وما صاحبها من تطور على الأصعدة والمجالات الاقتصادية والصناعية والإدارية.

حتى أن الكثير من الحضارات والثقافات القديمة والسنن والعادات والمذاهب الشرقية بما تشتمل عليه من نزعة إشراقية[٢] ومثالية ذهنية (Subjectivite)[٣] أخذت تتأثر بهذه الموجة، وتتأطر بالقوالب والأطر المادية النفعية وتنحى منحىً

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقصود القابلية الخاصة بالإنسان الشرقي في خلق المذاهب العرفانية والروحية والمعنوية. ومن هنا نجد أن أغلب المذاهب العرفانية والفلسفية الكبرى في العالم نشأت في الشرق. راجع كتاب (ميراث إسلام) فصل (الحروب الصليبية) وفصل (العرفان والتصوف)، الترجمة الفارسية للكتاب.

(٣) يراجع: (ميراث إسلام) فصل (الحروب الصليبية) حيث توجد عبارة (... إن الشرق ماضٍ في التخلّي عن ذهنيته..).

موضوعياً (Objectif)، بحيث لم يعد - كما يقول البروفيسور كارل[١] - ثمة مجال للتدبر والتفكر العميق والتأمل العرفاني في الأشياء، وبات الإنسان أسير همومه اليومية الرتيبة إلى درجة صار همّه الأكبر انتظار وصول الحافلة في الوقت المقرر، كما يقول بول سيمون (P. Simon)[٢] . . . غير أننا نلمس أيضاً وبوضوح حجم المعاناة التي تعاني منها أوربا جراء ابتعادها عن الله، وأن ما يطلق عليه اليوم اسم (أزمة الوجدان الأوربي) وقد ألّفت فيه كتب وأشعار ومسرحيات وأفلام، يدلل على مدى حاجة التاجر الأوربي إلى الإيمان الذي أسهم هو في زعزعته وتضعيفه.

إن الشعور العام بالرغبة إلى العودة إلى الله يشكّل الآن إحدى المشاكل والتحديات التي تواجه الأنظمة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي والصين وفي بولندا على وجه الخصوص حيث عادت المشاعر الدينية والعرفانية بين الأوساط الطلابية والجيل الواعد وذلك بعد سنوات مديدة من عمليات (غسل الأدمغة)[٣]، وشرعت هذه الظاهرة بالتنامي والانتشار إلى درجة أرغمت

---

(١) (المناجاة) ترجمة المؤلف عن الفرنسية، ص ١٧ .

(٢) Paul Simon الكاتب الفرنسي، اشتغل بالتدريس في سويسرا، وعاد أخيراً إلى باريس بعد إحالته على التقاعد، وله في كل ثلاثاء نقد لكتاب في صحيفة اللوموند الفرنسية. من نتاجاته: (الروح والتاريخ) = (la Esprit et la Histoire).

(٣) Lavage cervelle أو (غسل الأدمغة) مصطلح يتداوله الشيوعيون لمسح مخلّفات الفكر البرجوازي من عقول الناس في المجتمع الشيوعي.

الحكومة على اللجوء إلى خطوات جديدة في مكافحة الفكر الديني. وإلاّ فما هو السرّ في قضية (باسترناك) والدكتور (جيفاغو)؟ ولماذا كلّف (غاغارين) بعد عودته من رحلة الفضاء بالذهاب إلى جميع أنحاء البلاد وإخبار الناس بأنه لم ير (الله) في أي مكان من السماء(*)!!

(*) ومن جهة أخرى فإن البورجوازية الأوروبية أرعبها هذا الميل الديني أيضاً، فبعد الثورة الفرنسية الكبرى وبعد القرن التاسع عشر بالذات، رفعت البورجوازية لواء (فلسفة الاستهلاك) ووعدت الناس بأن الجنة التي أخبر عنها الدين سوف تقام على الأرض في ظل العمل بمذهب (الرفاه) الذي سيتحقق بمعونة العلم والصناعة والحرية؛ الأذرع الثلاثة للرأسمالية والبرجوازية الجديدة، اعتماداً على الفكرة القائلة بأن زيادة الاستهلاك (والتشغيل المضاعف لوسائل الإنتاج!) كفيل بتلبية التي صيّرت الإنسان محتاجاً إلى الله والدين.

أما الآن وخلافاً لما يتصوّر عادة فإن البرجوازية والطبقة المستنيرة المرتبطة بها والتي حاربت الدين برجاء أن البشرية إذا طمعت بالجنة الموعودة التي بشّرت بها البرجوازية فإن جميع المستهلكين في الأرض سيكونون طوع أمرها، وذلك غفلة عن أن الإنسان الجديد قد يطغى مرة أخرى ويتمرّد على نعم الجنة البرجوازية ويدير ظهره لقيم الرأسمالية الغربية من ليبرالية وديمقراطية وحرية ورفاه وتنافس، وهو ما حصل بالفعل فقد طغى الإنسان (الظلوم الجهول) ثانية، ولكن هذه المرة على نفس البرجوازية التي أفاضت عليه نعماً مادية لا تحصى، وإذ لم تملأ عينه كل هذه النعم، عمد إلى الشجرة الوحيدة التي نهي عنها من قبل البرجوازية الغربية، ألا وهي شجرة الضمير الإنساني فتناول منها تفاحة اليقظة، وانقلب السحر على الساحر، فإذا بالرأسمالية والبرجوازية الغربية تتلقى الضربة الأولى من الجيل الواعي الجديد من شباب أوروبا وأمريكا، أي من صميم الوسط الذي بذلت جهودها المضنية من أجل تخديره وتجريده من كل قيمة سوى المادة واللذة والرفاه...

والآن نجد أناساً كهؤلاء في مجتمع وعصر كهذا يظهرون تعلّقاً شديداً بالله، هذا هو الواقع ... في المراحل التاريخية القديمة وحينما كانت المجتمعات كلها دينية، وكان الدين يشكل حجر الأساس في بنائها، من الطبيعي أن يكون لفكرة (الله) اثر فاعل في انبثاق النهضة الاجتماعية وإيجاد عوامل التحريك. وبالنظر لهذه القضية، يصبح المؤرخ ملزماً بدراسة النهضات الشعبية والتحولات الاجتماعية والسياسية والتاريخية وتحليلها من خلال هذا المنظار، وذلك أن فكرة (الله) لم تطرح تاريخياً على نحو نظرية فلسفية، بقدر ما كان الوجدان الفردي والاجتماعي للمجتمعات البدوية والتاريخية حافلاً دائماً بالمشاعر والأحاسيس الدينية[١] والإيمانية بالله الواحد أو الآلهة المتعددة، فالتاريخ لا ينقل لنا قصة إنسان إلاّ ويروي إلى جانبها قصة الإله الذي كان يعتقد به، ناهيك عن أن تصوّر مفهوم (المجتمع) بلا

---

(١) انظر: (الشعور الديني؛ البعد الرابع للروح الإنسانية) ترجمة مهندس بياني مع مقدمة للسيد. رغم أن مسألة الله شكلت على الدوام أكبر محور للبحث الفلسفي إلاّ أن الفلسفة لم تكن المضمار الوحيد لبحث المسألة وكان عموم البشر، يتعاطون معها ويولونها اهتماماً فائقاً، سواء كانوا من عوام الناس أو النخبة والخواص، وسواء كان المجتمع في مراحله البدائية الأولى أو في قمة التمدّن والرقي الحضاري. وهذا بدوره يؤكد حقيقة مفادها أن الإيمان بالله ليس مظهراً وليداً للفكر، بل هو أحد المتطلبات الحياتية الأولى، ومن هنا يتوجب على المؤرخ دائماً أن يتنبّه لهذه الحقيقة لدى دراسته لأيّ مرحلة زمنية وفي أيّ حقل من الحقول التاريخية.

(دين) أمر غير ممكن في حدّ ذاته، وهذا مما ينسب إلى عالم الاجتماع الفرنسي الشهير أميل دوركهايم، فيما يذهب البروفسور ألكسيس كارل في كتابه (المناجاة) إلى القول: (إن المجتمع القديم كان من حيث المبدأ مجتمعاً دينياً، وكان المحور الذي يدور عليه تنظيم بناء المدينة معلماً دينياً من معبد أو مزار)[١].

في ضوء ما سلف، يتضح السرّ في اهتمامي - كمؤرخ - بفكرة (الله) وفكرة (التوحيد)، فليس الغرض الخوض في مباحث كلامية أو فلسفية أو مذهبية، بقدر ما هي محاولة للتعرف على روح التاريخ والنفسية الاجتماعية السائدة في كل عصر ومصر، فإن معرفة هذه الأمور من المسؤوليات الواقعة على عاتق كل مؤرخ وعالم اجتماع، وبدونها يصبح التاريخ عملية سرد مملّ للوقائع والأحداث.

إن أحد الأبعاد العاطفية لحاجة الإنسان[٢] إلى الله، هو

---

(١) (المناجاة) بقلم ألكسيس كارل، وترجمة المؤلف، طهران، ١٩٦١م. ويراجع بهذا الصدد أيضاً كتاب (الله) للعقاد، وكتاب (إثبات وجود الله) بأقلام ثلّة من العلماء الأخصائيين في العلوم الطبيعية، وكذلك (تاريخ الأديان) الترجمة الفارسية، و(تاريخ الأديان الكبرى) و(تسعُ محاضرات في تاريخ الدين) دروس علي أصغر حكمت في كلّية الآداب بجامعة طهران. (الألواح السومرية) لصاموئيل كريمر، و(الألواح البابلية) و(تاريخ الأمم القديمة في آسيا الغربية) للدكتور أحمد بهمنش الأستاذ في جامعة طهران وكتاب (تاريخ الحضارة) لـ(ويل ديورانت) (الأمم القديمة - تاريخ العالم - سير التاريخ).

(٢) ليس مرادي من الحاجات الفكرية والروحية للمجتمع تلك المسائل العلمية =

حاجته إلى الشعور بوجود قدرة مطلقة وملاذ آمن ومعنى مقدّس حاكم على الوجود بأسره، وهذه الحاجة لا يؤمنّها لا الثنوية (Dualisme)[١] ولا التثليث (Trinite)[٢] ولا تعدد الآلهة (Polytheisme)[٣]، بل أن هذه المذاهب تنغّص هذه الحاجة

= والفلسفية المتداولة بين الفلاسفة والعلماء، لست اقصد الحاجات الانتلوكتويلية، بل ذلك الصنف من الحاجات الفكرية والروحية للمجتمع مما لا يمكن التفكيك بينها وبين طبيعة البنية الاجتماعية والطبقية في واقع الحياة.

(١) الايمان بإلهين معاً أو مبدءين للكون، ومثاله الديانة الزردشتية القائلة بإلهي الخير والشر (آهورامزدا واهريمن).

(٢) الإيمان بالربوبية الثلاثية، وهو كل مذهب فلسفي يؤمن بوجود ثلاثة جذور أو أقانيم للكون، نظير التثليث في الديانة الهندية (البرهمائية) أو تثليث العالم اليهودي (فيلون) الذي عاصر المسيح واعتقد بوجود ثلاثة أقانيم رئيسية، وأكثر مذاهب التثليث شهرة هو التثليث الكاثوليكي الذي ذهب - متأثراً بالعقائد الرومية القديمة - إلى القول بوجود الأب والابن والروح القدس كثلاث شخصيات مستقلة ومتميزة عن بعضها وإن كانت في الواقع تمثل بمجموعها حقيقة واحدة هي الله.

(٣) شهدت المجتمعات الإنسانيّة عبر التاريخ ثلاثة أنماط من تعدد الآلهة (Polytheisme)، وهي:

أ - النمط الأول؛ عبادة الأوثان (idolatrie) كالديانة الوثنية عند عرب الجاهلية.

ب - عبادة النجوم والكواكب (Sabeime) وهو مذهب الصابئة الذين عدّهم القرآن في مصاف اليهود والنصارى والمجوس، وذلك لاحتمال أن يكونوا في الأصل من أتباع الديانة الحنفية (دين إبراهيم).

ولكن بعض المحققين المعاصرين يعتبرون الصابئة أتباع النبي يحيى. وللصابئة شهرة خاصة في التاريخ الإسلامي نظراً لوجود علماء وفلاسفة بينهم كانوا على =

. . . .

= تماس مباشر وتواصل مستمر مع العلماء المسلمين. ويظهر أن عبادة الكواكب هي استمرار لديانات السومريين والبابليين الذين ظهروا في بلاد الرافدين للفترة من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد حتى العام خمسمائة قبل الميلاد (وكان الموطن الأصلي لإبراهيم هناك أيضاً)، ويبدو أنهم كانوا يفترضون الكواكب والنجوم مواطن للآلهة المتعددة. ويحسبون أن الشمس موطن الإله الأكبر. وهي لذلك منشأ عبادة النور والنجوم.

وثمة من يذهب إلى أن اليمن هي الموطن الأصلي للصابئة، وتسمى بأرض سبأ واليمن السعيدة، وكان أهلها يعتقدون أن الله هو روح الكون. ولكن من المؤكد أن فرقة الصابئة المعروفة في التاريخ الإسلامي كانت قد توطنت منطقة حران في حوض دجلة والفرات.

ج - Fetichisme (الصنمية) أو (الأطرية) وتعني أن شيئاً مادياً يتخذ كمعبود لخصوصية أو مناسبة، كما تعبد الشجرة أو الصخرة. ولهذا المذهب آثار ومظاهر حتى بين عوام الناس عندنا، وبوسعنا العثور على نماذج جليّة له في تعلّق الناس بالسحر والشعوذة والتفاؤل وكتابة العوذ والطلاسم، وأشياء أخرى يحتفظون بها في الجيب أو الدخل أو البيت أو محل العمل على خلفيّة الاعتقاد بأنها مجلبة للنفع والبركة؛ وذلك من قبيل التربة أو السبحة أو البخور والحرمل وغيرها من الأمور التي تنفع - بزعمهم - لفقىء عين الحسود وإبطال السحر. وتشترك مجمل هذه الأمور بحملها لآثار عبادة الجن والأرواح (an imisme) وفي هذا السياق يفهم الغرض من نصب بعض رؤوس الحيوانات على أبواب الدور (عندنا في إيران يوضع تمثال لرأس وعل، فيما أظن أنه رسم مستوحى من علامة المجد الأيزدي التي يمكن العثور على مثيلاتها في الرسوم الأثرية الإيرانية) وهناك أيضاً نعل الحمار الذي ينسبه المسيحيون إلى حمار عيسى، وفي إيران جرت العادة أيضاً على استخدامه من قبل غير المسيحيين على نحو التقليد وكذلك العقيق والياقوت والخاتم (وقد طبع مؤخراً كتاب في فضائل هذه الأمور مدعوماً بروايات)، وهناك من يرى في وجود الديك أو الحمام الأبيض في البيت مجلبة للبركة والثواب. . . =

على الإنسان وتصيّر الوجود ميداناً لتضارب هذه القوى المتصارعة. لقد قامت الديانة الزرادشتية والمزدكية والمانيّة على أساس (الثنوية)، فيما قامت المسيحية المعاصرة لظهور الإسلام على قاعدة (التثليث)، أما الأديان الوثنية القديمة فقد ارتكزت على الإيمان بتعدد الآلهة، والإسلام هو الديانة الوحيدة القائمة على دعامة التوحيد، والتوحيد هو الشكل الوحيد من أشكال

= وهذه وأمثالها كثير من آثار ومخلفات ذلك الدين البدائي جداً، وغالباً ما يتمّ تسويقها عبر حشرها في طقوس الأديان الجديدة (الإسلام والمسيحية و. . .).

وطبعاً هذا رأي شخصي، وينبغي أن يوكل الرأي الحاسم في هذه المسألة ونظائرها إلى التحقيق الدقيق من أهل الفن والاختصاص في علوم الدين والاجتماع.

وعلى أي حال، فإن لهذه الأنماط الثلاثة من الأديان. القائمة على تعدد الآلهة.

أنصاراً كثيرين في أوساط المجتمعات البدائية في أفريقيا وآسيا. ويضاف على هذا النوع من الأديان، إيمان البعض بفكرة أرباب الأنواع على ما كان سائداً بين اليونانيين والرومانيين قبل ميلاد المسيح. وكان الإيرانيون قبل زرادشت يعتقدون بذلك أيضاً. ومن ثم حوفظ على هذه العقيدة في الديانة الزردشتية ولكن على نحو مهذّب. والواقع أن لفظ (يزدان) يعني رب النوع على خلاف ما يفهم منه اليوم؛ وفي ضوء ذلك فإن (ناهيد) يزدان الماء و(تير) يزدان القلم و(بهرام) يزدان الحرب وهكذا . . . كما أن الامشاسبندات السبعة(*) عبارة عن حالة مطوّرة من الدين التعددي حافظت على وجودها واستمرارية بقائها ضمن التركيبة الثنوية للديانة الزردشتية.

(*) الامشاسبندات هي مظاهر صفات إله الخير اهورا مزدا – م).

العبادة القادرة على أن تمنح العبد يقيناً وطمأنينة وأملاً والتزاماً، وتعطي الوجود هدفية ومعنى، وبعبارة أخرى: التوحيد يستبطن في ذاته كل الآثار التي يخلّفها الاعتقاد الديني في حياة الإنسان ببعديها المادي والمعنوي. إن الأزمات العقائدية الحادة التي عانت منها الأمم المعاصرة للإسلام وكانت تعتنق الديانة الزرادشتية أو المسيحية والتي أسفرت عن تعرّض تلك الأمم للاضطرابات والانشقاقات العميقة وظهور العداوات المستحكمة بين طوائفها المختلفة، هذه الأزمات تبين مدى حاجة الشعوب في تلك الحقبة التاريخية إلى دين جديد ومبدأ عقائدي سليم، وقد جاء الإسلام حينها ليمثل استجابة حقة وتلبية مناسبة لإشباع تلك الحاجة الفطرية والعقلية[١].

ومن خلال الأزمات الفكرية والعقائدية التي مرّت بها تلك الأديان، يمكن إدراك السرّ في حرص الإسلام على جعل التوحيد في مقدمة شعاراته الأولى.

(١) في أوائل القرن الميلادي السابع (قرن البعثة النبوية) كانت الديانة الزردشتية تواجه تحديات مانوية ومزدكية، وعلى الخط الآخر واجهت المسيحية انقسامات وانشطارات طائفية عديدة، حتى أن بعض الفرق المسيحية عدّت الحملات الإسلامية على روما المسيحية سبيلاً والنجاة من الواقع المزري.

الجهل ـ الخوف ـ الانتهازية

أدعوكم الآن لأن تتأملوا معي في قناعة توصّلت إليها مؤخراً لعلّها تنضج وتتكامل.

أنا أتصوّر أن كل المعاصي والمفاسد والجرائم والانحرافات، بل وجميع مظاهر التخلّف والانحطاط، وبعبارة أشمل؛ كل سيئ ورذيل ناجم عن عوامل ثلاثة هي:

الجهل والخوف والنفعية.

واعتقد أن من غير اللازم هنا أن أستعرض جميع أنواع المفاسد والانحرافات والرذائل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، الفردية أو الجماعية، لأوضّح لكم كيفية رجوع هذه المظاهر السلبية إلى تلك العوامل الثلاثة، ويكفيكم لإثبات صحة هذه الفرضية أن تستحضروا في أذهانكم جميع أنواع الجرائم والانحرافات التي من الممكن أن تقع في سلوك إنسان أو سيرة مجتمع، وسترون بعد ذلك، أنه لن يكون بوسعكم أن تعثروا ولو على نوع واحد بل ولا مفردة واحدة من هذه الجرائم والمفاسد دون أن يكون لها ربط بأحد تلك العوامل الثلاثة! . . . أما التوحيد فهو يحبط مفعول هذه العوامل الثلاثة ويعطّل تأثيرها في نفس الإنسان الموحّد، وذلك عبر اجتثاث جذورها النفسية من أعماق روحه.

الجهل :

ليس المراد من (الجهل) هنا نقيض (العلم) الشامل للمعلومات الطبيعية والرياضية والفنية والحقوقية والأدبية، أو ما يعبر عنه بـ(Sceience)، وذلك لوضوح أن العلم بهذا المعنى لا يصلح مانعاً وحائلاً دون ارتكاب الجرائم واقتراف المعاصي والموبقات، غاية الأمر أن العالم - فرداً أو مجتمعاً - قد يغيّر شكل هذه الجرائم وطبيعتها أن لم نقل إنه يسهم في توسيع دائرتها، كما نراه اليوم في المجتمعات المتحضرة والتي تتمتع بمستويات عالية من التقدم والتطور العلمي والتقني، ولا تتوانى عن توظيف تقدّمها هذا في تحقيق مآربها العدوانية في الظلم والاستبعاد واستغلال ثروات الشعوب وشنّ الحروب والاعتداءات، وإن تفاوتت وسائل وأساليب الظلم والاستغلال هذه، حيث نرى أن تطور تلك الشعوب في المجالات العلمية والتقنية لم يساعد على إصلاحها أخلاقياً، بل على العكس كرّس حالات الانحطاط فيها، ومنحها قدرة مضاعفة على ممارسة الجريمة بشكل افظع بكثير من السابق، وهذه حقيقة مرّة نشهدها اليوم جميعاً ونلمسها بالوجدان، ولا يجرؤ مفكرو أوروبا على كتمانها والتمويه عليها. إن علماً كهذا يصفه شاعرنا مولوي بأنه علم الجرذ الأعمى الذي يطوي بحذاقة وذكاء الدهاليز المظلمة في البيوت بعيداً عن الأنظار، ولكن ما أن يخرج إلى الفضاء الرحب وتقع عينه على ضوء الشمس إذا به يفقد قدرته على

الرؤية والإبصار. هذا النمط من العلم ليس له أي علاقة بالأخلاق والمضامين الإنسانيّة، وبطبيعة الحال فإن الجهل المقابل له لا يمكن أن يكون سبباً لشيوع الجريمة وعاملاً لانتشار الفساد. إن هذا العلم والجهل المقابل له ليسا أمراً أخلاقياً (Moral) ولا لاأخلاقياً (Immoral) بل هو شيء آخر خارج عن مقولة الأخلاق (Amoral).

وصفوة القول: إن المراد هنا من الجهل المحسوب سبباً من أسباب الفساد والانحطاط، هو الجهل المقابل للحكمة بالمعنى الذي قصده سقراط من الكلمة، حيث يذهب إلى أن الحكمة ضامن للأخلاق، ويعتقد أن الحكيم لا يمكن أن يقدم على الموبقة والخطيئة أبداً، لأن كل الرذائل والمفاسد الأخلاقية ناجمة عن الجهل. ولا ريب أن مراده من الجهل والحكمة هنا ليس الجهل والعلم بالمسائل الفلسفية والطبيعية، بالمعنى الذي نفهمه اليوم من المصطلحين، وذلك لأن سقراط كان مناوئاً شديداً للفلاسفة والعلماء، وهل يمكن إطلاق لفظ الجاهل على أريسطوفان[١] الذي كان سقراط يهزأ به في هزليّاته؟ وهل بوسعنا

(١) Aristophane كاتب يوناني شهير عاصر سقراط وكان عالماً دينياً متطرفاً حارب التجديد، له كوميديا الأوزاغ (les Gren ouilles) انتقد فيها سقراط بحدة بلغت مستوى الاستهزاء، وقد مهّدت أفكاره ونتاجاته ذهنية العوام لمحاكمة سقراط وإدانته.

أن نلصق تُهمة الأمية والجهل بـ(أنيطوس وملطوس وليكون) الذين رفعوا الدعوى ضد سقراط أو بـ(٥٥٦) قاضياً من قضاة محكمة (هلياست) ممن أصدروا على سقراط حكماً بالإعدام[١]؟! وهل كان سقراط يتهم عوام الناس بالفساد إذ لم

---

(١) سقراط كان معروفاً بالهجوم على الحكماء والسوفسطائيين والشعراء والمبلّغين، ويقال أن أحدهم سأل: من هو أعلم علماء أثينا؟ فجاءه الجواب من قبل إله معبد (دلفي) بأن الأعلم هو سقراط!

ولما كان على سقراط أن يثبت هذه الحقيقة فقد عمد إلى إجراء مقارنة بينه وبين جميع التيارات الفكرية آنذاك (الانتلكتويلات)، وخلص في خاتمة المطاف إلى إثبات جهل الجميع - الجهل الذي اعتبره أنا أحد الأسس الثلاثة للرذيلة - ومن ثم أثبت أن فضله عليهم يكمن في أنه يعلم أنه لا يعلم بينما هم يجهلون، ويجهلون أنهم يجهلون، وهذا هو السرّ في تفضيل إله معبددلفي) لسقراط على من سواه، ومن هنا كان جميع أعداء سقراط من شريحة العلماء والحكماء ولم يكونوا من العوام.

ومما تجدر الإشارة اليه هنا أن سقراط بذاته كان بهذا المعنى حكيماً وليس فيلسوفاً. فتاريخ حياته لا يؤيد أنه كان ذا حظ وافر من التحصيل العلمي. ومن الخطأ الفاحش عدّه فيلسوفاً على غرار أرسطو وافلاطون وفيثاغورس وطاليس وأمثالهم... لماذا كان يصف جميع العلماء والسوفسطائيين (أي فلاسفة عصره) والشعراء ورجال الدين، بصفة الجهل؟ أن سيرته وأفكاره تشهد أنه كان حكيماً أمياً وليس فيلسوفاً جاهلاً، ومن هنا فقد اعتبره البعض في عداد الأنبياء، وذلك أن بينه وبينهم تشابهاً وسنخيّة من هذه الناحية. ولقد بذل كل من أفلاطون وأرسطو جهوداً مضنية لدرك حكمة سقراط وتعريفها وتحديد معالمها. وقد أسفرت هذه الجهود عن اختراع الحد والرسم والفصل والجنس وتدوين المنطق الصوري الأرسطيّ، على أمل التمكن من تحديد تلك الحقيقة اللطيفة الرحبة بتلك الأطر الجافة الضيقة.

يكونوا (حكماء) أو أنه يوجّه أصابع اتهامه ضد مناوئيه من السوفسطائيين الذين كانوا جميعاً علماء وفلاسفة وخطباء مشهورين؟!

إن من العسير جداً - في حدود ما لدينا من ألفاظ ومصطلحات - أن نعطي تعريفاً دقيقاً لـ(الحكمة) بالمعنى الذي كان يقصده سقراط من الكلمة، وبالمعنى الذي أعدّه أنا أحد العوامل التي تقود الإنسان نحو الكمال الأخلاقي وتحول دون انحطاطه وتورّطه في مستنقع الجريمة والفساد، وأعتبر أيضاً أن الجهل المقابل له أحد الأسباب الثلاثة الرئيسية لظهور الفساد بمختلف أنحائه ومظاهره. والأفضل هنا أن نصبّ اهتمامنا على ما نستشعره من المعنى المضمون المستوحى من اللفظ دون اللجوء إلى المعنى اللغوي والمنطقي له.

المقصود من الحكمة، هو الوعي الإنساني الأخلاقي لدى الفرد ويقظة الضمير وحيوية الوجدان وصفاء روح الإنسان على النحو الذي يتيح له البقاء على خط الفطرة ومسارها ونواميس الخلقة وقوانينها، ويسوقه بالاتجاه الصحيح ويحول بينه وبين الانحراف عن جادة الصواب والوقوع في مزالق الأهواء والنزعات المنحطّة . . . باختصار؛ يوجد إنسانان: أحدهما عالم دنيء انتهازي ومستعدٌ لأن يبيع نفسه وينقاد بسرعة لعوامل الترغيب والترهيب، ولا يتورع عن فعل شيء في سبيل الحصول

على المال والشهوة وتلبية رغباته الشخصية.

وآخر ليس له حظّ من المعرفة ولا رصيد من المعلومات، ولكنه قادر على تنكّب أخطر المسالك والطرق المحفوفة بالمظاهر الخادعة والمزالق القاتلة، وهو مع ذلك يمضي مواصلاً سيره في الاتجاه الصحيح دون أن يتأثر طرفة عين بما يحيط به من جميع الجهات وكأنّ يداً غيبية تأخذ بيده وتسلك به سبيل الرشاد، فترى وجوده حاكياً عن الشرف والصدق ومحيّاه يقطر خيراً وحسناً وجمالاً، ووجهه يشعّ بنور اليقين والصبر والثبات على صراط مستقيم، . . . اين يكمن التفاوت بين الاثنين؟! وما تلك اليد الغيبية التي تأخذ بيد هذا؟! وما هي القوة الوجدانية التي يتحلّى بها الثاني دون الأول، لا شك أنها الحكمة[١]، الحكمة هي التي تمنح صاحبنا قوة مضاعفة وضميراً يقظاً حياً.

نعلم جميعاً أن الأنبياء العظام الذين غيّروا وجه التاريخ وشيّدوا البنى المعنوية للإنسانية ووضعوا أسس الحضارات،

(١) يعتقد والدي أن الحكمة تعبير آخر عن نفس العلم، حسب ما هو المعروف لغوياً، ولكن ليس ذلك العلم المختزن في عقول العلماء دون أن يكون له حضور وتأثير في سلوك العالم وسيرته ونمط تفكيره ورؤيته للحياة. . . الحكمة هي العلم الممتزج في وجدان العالم مع أخلاقه وعقائده وسلوكه وعلاقاته الاجتماعية والفردية، والذي يفضي إلى نضج في الشخصية واعتدال في السيرة. وبعبارة أخرى؛ العالم هو من يلتحم علمه بشخصيته المعنوية، والحكيم هو الذي تستحكم شخصيته بموجب تغذيتها بالعلم والفكر والوعي والشعور.

كانوا جميعاً من أصحاب الحرف البسيطة ما بين حدّاد ونجّار وفلاح وراعٍ، ولم يكن لديهم حظّ وافر من رصيد علمي أوفلسفي وغالباً ما كانوا من السواد الأغلب من الناس.

إن كلمة (الأميّ) التي أطلقها القرآن على النبيّ كصفة إيجابية تنطوي على معنى عميق. فبعد أن طوى التاريخ البشري مراحل التمدّن والتطور الحضاري والاجتماعي في اليونان والرومان وإيران والهند والصين، وأصبح من الطبيعي في المرحلة اللاحقة أن يكون رائد البشرية فيلسوفاً نابغاً أو عالماً عبقرياً مرموقاً، نجد أن النبيّ خرج مرة أخرى من الأوساط المسحوقة في المجتمع، ولم يكن سوى راعي أغنام محروم من جميع الفرص والإمكانات التي تؤمّن له القدرة على التعلّم حتى في مستوى القراءة والكتابة فقط، وكذلك الحال مع أتباع هذا المصلح الأخلاقي الكبير، فلم يكن واحد منهم عالماً أو فيلسوفاً مع أنهم لعبوا أعظم الأدوار في تغيير المجتمع روحياً وأخلاقياً، انظروا إلى رجال الإسلام، تجدوا في جانب منه فريقاً من الأفذاذ كعليّ وأبي ذر البدوي وبلال العبد الحبشي وعمار وأبيه وأمّه الأفريقية السوداء وميثم التمّار وأمثالهم ممن ليس لهم في التاريخ موقع علمي مشهود، وعلى الجانب الآخر ستجدون ابن سينا والرازي والكندي وابن العربي وابن المقفع والخوارزمي وخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم، ما الذي يملكه أولئك ويفقده هؤلاء؟ بمقدوركم أن تدركوا وجود نوع من الوعي والإدراك

الخاص لدى أولئك يفتقر إليه هؤلاء! سمّوه ما شئتم: فهم، شعور، وجدان، استعداد للهداية، إحساس فطري خاص، حاسة سادسة، إلهام أو أي شيء آخر[١] . . .

غير أنني أرجّح اللجوء إلى نفس الاصطلاح الذي يستخدمه سقراط، خاصة وأنه يعطيه ذات المعنى والمضمون الذي أتوخّى الوصول إليه، وأعتقد أن كلمة (الحكمة) كانت تنطوي على ذات المعنى في لغة العرب في الصدر الأول للإسلام، ومع هجوم الفلسفة اليونانية على البلاد الإسلامية وقع الاختيار على هذه الكلمة لتستخدم كمرادف للكلمة اليونانية (فيلاسوفيا)، وبمرور الوقت فقدت معناها الأول العميق . . . وفي القرآن لم تأتِ الحكمة إلاّ بمعنى الفهم الصحيح وإدراك الحق[٢]، وهذا هو معناها أيضاً في الحديث المتواتر: (الحكمة ضالة المؤمن)[٣].

---

(١) كلمة (intuition) تقرب من هذه المعاني.

(٢) القرآن يأتي دائماً أو غالباً بلفظي الكتاب والحكمة معاً، وأحياناً يأتي بهما مع التوراة والإنجيل، والمراد العلم والوعي الذي يعلّمه الله وأنبياء الله لبني البشر، تلاحظ الآيات:

٢/ ٢٧ـ ١٢٣ـ ١٤٦ـ ٢٣١ـ ٢٥٢، ٥/ ١١٠، ١٠/ ١، ١١/ ١، ١٦/ ١٢٦، ١٧/ ٤١، ٢٧/ ٦، ٣١/ ١ ـ ١١، ٣٣/ ٣٤، ٣٦/ ١، ٣٨/ ١٩، ٣٩/ ١، ٤١/ ٤٢، ٤٣/ ٦٣، ٤٤/ ٣، ٤٥/ ١، ٤٦/ ١، ٥٢/ ٥، ٦٢/ ١ـ ٢.

(٣) الحديث النبوي (الحكمة ضالّة المؤمن) واجه مصيراً حالكاً في المكتبة الإسلامية، وذلك بعد أن تناسى علماء المسلمين المعنى الأصلي للحكمة وفسّروها بالمعنى الذي يفهمه اليونانيون من كلمة (فلسفة)، وبالتالي وقعوا في =

وفي حديث (العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء) جاء (العلم) مرادفاً للحكمة بمعناها السقراطي، وذلك أن العلم الاكتسابي المعهود لا يتناسب مع ما ذكر من وصف له في الحديث. وأيّ نور يقذفه الله في قلوب علماء الفيزياء الذين صنعوا القنبلة الذرية، أو علماء الكيمياء الذين يقتلون بالسمّ آلاف الناس في معركة واحدة، أو الكتاب والمؤلفين الذين يوظّفون علومهم التاريخية والأدبية والاجتماعية في تزوير الحقائق وتضليل الناس وتبرير الظلم الذي يرتكب بحقّهم؟ هل

= تخبط كبير في محاولاتهم لفهم مغزى الحديث، والسبب في ذلك يعود إلى ما هو معروف من أن علماء المسلمين انقسموا فريقين متخاصمين حيال الموقف من الفلسفة، فوقف الفقهاء والعرفاء في جانب، فيما وقف الفلاسفة والحكماء على الجانب الآخر، فالفقيه والصوفي الذي يعتبر الفيلسوف منبوذاً بل كافراً، لم يكن مستعداً لقبول أن (الفلسفة) ضالة المؤمن، فلم يجد محيصاً من اللجوء كعادته إلى التأويل وحمل الكلام على خلاف كل القرائن اللغوية والعرفية - كما يفعلون في تفسيرهم للقرآن! - وبالتالي فقد أوّلت كلمة (ضالّة) من معناها اللغوي الظاهر بمعنى المفعول إلى معنى غريب بمعنى الفاعل، وصار معنى الحديث هكذا (الحكمة مضِلة المؤمن)!

أما الفلاسفة الذين فسّروا الحكمة - كأندادهم - بمعنى الفلسفة، فقد وجدوا في الحديث أدأ دليل على صحة منهجهم، وبرهاناً قاطعاً على حقانية الفلسفة المشائية والحكمة الأرسطية!

هل يمكن لعاقل أن يصدّق أن النبي ﷺ كان همّه في ذلك العصر الترويج للفلسفة اليونانية؟! وإذا كان كذلك فلماذا لم يحثّ أحداً من المسلمين على استلهامها وتعلّمها؟!

هذه هي الأنوار الإلهية؟ كلا بالطبع! وأحسب أن التعبير بالعلم وبالحكمة في هذين الحديثين يناسب أكثر المعنى الذي أستوحيه أنا من اللفظ وهو ذات المعنى الذي كان يعنيه سقراط لدى تعاطيه مع هذا الاصطلاح، ولولا ذلك يلزمنا أن نقول أن هذا النور الإلهي لم يقذف في قلب محمد وعلي وعيسى وموسى وإبراهيم وبوذا وزرادشت وغيرهم من الرواد (الأمّيين) للبشرية، والمبادرين إلى بناء صرح المعنوية، ولا يخفى بطلان ذلك.

المراد من العلم والحكمة ما فيه نجدة البشرية وكمال الإنسان، ومرادنا من الجهل هنا هو المعنى المقابل له أي الجهل الذي يسوق الإنسانيّة إلى الشر والفساد والجريمة. وفي ضوء هذا التصوير الدقيق للحكمة بمعناها السقراطي والقرآني المتضمن للوعي الأخلاقي والإنساني والمصحوب بفهم وشعور وإدراك خاص، بوسعكم أن تتصوروا كيف يتمكن (التوحيد) من خلق هذا الحسّ الوجداني وتربية هذه القوة الغيبية في ضمير الإنسان الموحد بما تشتمل عليه من معنى واقعي دقيق.

إن فهم الوجود ككيان ذي شعور وإدراك، وكائن حي يشرف عليه جهاز عقلي هادف، والنظر إلى هذا العالم كمنظومة متكاملة لها غاية وهدف، تحس وتشعر وتفكر وكل شيء فيها خاضع لحسابات منطقية دقيقة، وليس هناك مجال للصدفة والعبث، أما الإنسان فهو جزء من هذا الوجود الحيّ المدرك

المريد، السائر في طريقه نحو الكمال دون أن يشذ منه شيء عن مساره المرسوم، وهو بالتالي مضطرّ لأن يسيّر عجلة حياته وأفكاره وإحساساته على النحو الذي ينسجم مع نظام الكون، ويضبط إيقاع حركته بدقة بحيث يتناغم مع نواميس الكون ولا ينحرف عن قوانينه الحكيمة.

هكذا رؤية كونية، وهكذا إدراك لفلسفة الخلقة، والإحساس بهذا النوع من الالتزام إزاء الوجود، والفهم العميق والمتواصل للأنا والآخر وللعلاقات الفردية والاجتماعية، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، يمنح الإنسان فهماً وإدراكاً عميقاً لذاته ومعرفة شاملة بالعالم المحيط به ورؤية واضحة لمسؤولياته والتزاماته في هذا المجال.

إن حياة الإنسان وسيرته فيها، تتأثر تأثراً مباشراً بأنحاء تفكيره ونمط اعتقاداته، وبرؤيته الكونية، التي تلقي بظلالها على سائر جوانب شخصيته، فتتدخل في تحديد نوع القيم الأخلاقية والمعايير التي يتعامل بها مع الأشياء، وترسم له أهدافه التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج والمسارات التي يتعين عليه أن يختارها للوصول إلى تلك الأهداف والتطلعات.

الإيمان بأن للوجود معنى وهدفاً وعقلاً وشعوراً، والاعتقاد، تبعاً لذلك، بأن الحياة الإنسانيّة لا يمكن أن تكون محض عبث وحماقة - كما يزعم سارتسر -، هذا الاعتقاد

يقضي على الجهل ويمهّد الأرضية لبلورة رؤية كونية شاملة وبناءة، وتأسيس قاعدة رصينة للتعامل الأخلاقي في حياة الإنسان ببعديها الفردي والجماعي، ولعلّ هذا هو أحد الدوافع الرئيسية التي حملت انشتاين على الاعتقاد بأن (الشعور العرفاني عماد البحث العلمي)[١].

الخوف والنفعية:

من السهولة بمكان أن نفهم كيف يقتل التوحيد جذور الخوف والنفعية في روح الإنسان. إن الإيمان بالله وتوحيده يصرف الموحِّد الواقعي عن ارتكاب أي ردّ فعل مشين ناجم عن توقع الخطر أو الضرر، وذلك أن إنساناً موحداً كهذا لا يتهيّب من شيء، ويعتبر أن مبدأ الخطر الحقيقي لا يكون إلاّ من قبل (الله) فهو القوة الوحيدة ذات الإرادة المطلقة في عالم الوجود، وكل شيء سواه عاجز أمامه ومغلوب، وهذا العجز يشترك فيه الجميع، فلمإذا يخشى الإنسان من عاجز مثله؟! أن مخاوف الإنسان في حياته هي عبارة عن الخوف من الموت والخوف من الفقر والخوف من الضعف والخوف من المحرومية بمختلف

(١) كما حملت ماكس بلانك على الإيمان بأن الإقرار بشاعرية نظام الكون هو الذي أوجد علم الفيزياء يقول: على بوابة معبد العلم عبارة تقول: ممنوع الدخول لمن لاإيمان لهم!... العلم وأنشتاين، لينكولن بارنت، (إلى أين يتجه العلم؟)، ماكس بلانك.

أشكالها. بيد أن المتوكل على الله والمؤمن بالتوحيد، وبأن الله القدير الخبير والحاكم العادل، وليّ حميم له وناصر قديم على أعدائه، وبيده مقاليد الأمور جميعاً، كيف يمكنه الإقدام على الكذب والأعمال القبيحة؟ وهل يمكن أن ينقاد لكل أمر يصدر من باغ؟ وهل سيتملق لأحد مع علمنا جميعاً بأن التملّق يجرّ الإنسانَ من الناحية الأخلاقية من مقامه الإنساني إلى المقام والمنزلة الحيوانية، ناهيك عن عواقبه المشؤومة على الصعيد الاجتماعي. لماذا يخاف أو يطمع من يؤمن بالله حقاً ويستشعر وجوده بالوجدان؟ من سيكون القادر على ترهيبه وترغيبه؟

إن الخوف والطمع هما الأساس لكل مظاهر البخل والشره والاستئثار والاحتكار والاستيلاء على الثروة وحرمان الآخرين من المواهب الطبيعية والجرائم الرأسمالية التي تقاسي منها الإنسانيّة جمعاء، وظواهر الاستعمار واستغلال جهود الناس ونهب ثروات الشعوب وتبديد طاقاتها وغير ذلك من الأعمال التي من شأنها أن تودي بالمجتمعات وتحجب الفرد عن مواصلة مسيرته في التكامل المعنوي، وتقوده نحو هاوية الانحطاط.

الكذب والخداع والتملق والخيانة والغدر والتجاوز وعبادة الأهواء واللذّات وصيرورة الإنسان آلة بيد الغير، وقلماً وسيفاً ذابّاً عن الجور والفساد؛ كل هذه المظاهر السيّئة تنجم عن الخوف أو عن الطمع بمفهومه الأوسع الشامل للطمع المادي

والنفسي والجسدي؛ حبّ المال والمنال والجاه والسمعة. هذان العاملان - الخوف والطمع - هما اللذان صنّفا البشرية إلى ثلاث طوائف وأقسام:

القسم الأول: طائفة من الناس تتعدى على الآخرين وتتجاوز على حقوقهم.

والقسم الآخر: حفنة من الناس يجعلون أنفسهم - خوفاً أو طمعاً - آلة مسيّرة بيد الطائفة الأولى.

والقسم الثالث والأخير هم غالبية الناس ممّن يعتدى عليهم وتغتصب حقوقهم من قبل الطائفة الأولى وبواسطة الطائفة الثانية.

وهذه الطوائف الثلاث تعدّ - من الناحية الإنسانيّة - خائبة فاشلة وغير مستحقة لنيل الكمال وبلوغ الدراحل العليا من الرُقيّ الإنساني والتكامل المعنوي. وهذا هو السرّ في عودة التاريخ الإنساني القهقرى مع وجود الطاقات والإمكانات اللازمة للرقيّ والتقدّم. إن الإنسانيّة المتحضرة تتجه اليوم نحو الفساد والجريمة(١).

---

(١) ويدعم هذه الحقيقة الخط البياني المتصاعد لمعدلات الجريمة في أوربا وأمريكا، ومقارنة مع معدلات الجريمة في الدول الأكثر تخلفاً في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وتؤكد هذه الحقيقة أيضاً الأفلام والمسرحيات وكتب شهيرة من قبيل: (الطاعون) لألبرت كامو و(الأيدي الملوثة، والغثيان، والجدار) لسارتر وكتاب (الكركدن) ليونسكو و(منهج الحياة والمناجاة) لكارل، و(لا شيء في الغرب)=

انظروا إلى مستوى التقهقر المعنوي للحضارة الإنسانيّة، ألا ترون أن أكثر المجتمعات تمدّناً اليوم تزاول أفعالاً تضعها من المنظار الأخلاقي في مصافّ الإنسان البدائي بل في رتبة أدون! بين أيدينا مجتمعات تدمّر وتسحق عمداً لا لشيء إلا لتحويلها إلى أسواق جديدة للاستهلاك!(١)

الموحِّد، بالمعنى الواقعي الدقيق للكلمة، لا يمكن أن يكون صاحب شخصية قلقة متزلزلة. غير الموحُد لا يرى نفسه مضطراً لمقاومة عوامل الترهيب والترغيب التي تحيط به من كل حدب وصوب، فلمإذا لا يساوم إذن؟ ويتهرب من مواجهة تلك

= و(أمريكا السيئة)، وآلاف الملفات الجنائية والأبحاث الاجتماعية والتقارير الخبرية والصحفية حول الإجرام والجناية والحروب الطاحنة الدولية والإقليمية والثورات والانقلابات ومظاهر الاستعمار والاستغلال ومئات الأدلة والشواهد الأخرى . . . في عام ١٩٦١ نشرت صحيفة اللوموند الفرنسية إحصائية للجرائم التي حصلت في تقاطع شارعي (سان جيرمن ديبره) و(سان ميشال) في تلك السنة فقط، وكانت النتيجة الاجمالية (٧٠٠) جريمة وجنحة (Crime)، أي بمعدل ست جرائم لليوم الواحد. . أين؟ في قلب باريس!

(١) يشار إلى أن الجنرال سالان الذي اقترف كل جرائم القتل والاختطاف والتعذيب في الجزائر، وتعدّ فرقه المسلحة مسؤولة عن اقتحام مستشفى لمرضى السل في الجزائر وقتل الراقدين فيها، هذا الجنرال حاصل على شهادة التخرج من الجامعة التكنولوجية في فرنسا (بلي تكنيك). أما الجنرال آرغو فهو أكاديمي بارز يكتب رسالة إلى زوجته يقول فيها: (. . . كلّنا سالمون وحالنا طيبة، نحن وأولادنا وكلابنا وعربنا!). وهو الذي درّب ابنه على الرمي بالسلاح من خلال حثّه على قنص العرب إبان الحروب الجزائرية.

العوامل علنياً فيتظاهر أمامها بالتسليم والانقياد، ويتوسل بكل شيء من أجل تجنب مواجهة الأخطار والمشاكل، ويضمن الحصول على آلاف الفرص والمناصب الكفيلة بدرء الضرر وجلب النفع إليه، ما المانع من أن يتكيّف مع الوضع السائد ويظهر نفسه بالمظهر الذي ينسجم مع مقتضيات الزمن والبيئة والظروف والوضع السياسي الحاكم.

آنذاك لن يكون هو الجبان بالطبع، فقد تخلّى عن لون هويّته، وربّما لم يعد له لون أصلاً، فهو دائماً شخص آخر مغترب عن نفسه (Alienation). لم يعد ثمة وجود لذاته وشخصيته وال(أنا) الخاصة به، لقد اضمحلّت كل هذه الأشياء في عوامل الرهبة والرغبة، وقد صهرته هذه العوامل وسلبت منه إنسانيته، لم يعد هو هو، بل لم يعد أي شيء؛ إنه شكل بدون محتوى وقالب بلا مضمون؛

بعد الآن لن يكون هو (محمد علي)، نجل (محمد تقي) المشتمل على الخصال الأخلاقية والروحية والفكرية الكذائية، والذي كان يحمل في باطنه ميولاً وقناعات خاصة، إنه الآن لا يستطيع العثور على (ذاته)، لقد انصهرت شخصيته في شخصية الآخرين، ممن أرهبوه أو رغّبوه.

بعبارة أخرى، فإن عوامل الترهيب والترغيب قد ترسّخت وتوغّلت فيه وحلّت في وجوده حلول الجنّ في ابن آدم. لقد

مسّه الجن، وكيف يمكن لممسوس أن يكتشف ذاته؟! هذا هو معنى تغريب الإنسان (Alienation) الذي يذكره هيجل ويصوّره ماركس بطريقة أفضل. فلو كان هذا الإنسان تاجراً في السوق، فهو ليس برجل يسعى لكسب لقمة عيشه ويستخدم النقود وسيلة لذلك، لا بل سوف يكون هو النقد بعينه، إنه ورقة مالية، كمبيالة تدور في السوق من متجر لآخر، (وجوده) سوف يختزل في (موجود) دَخله!

أما إذا كان صاحبنا يعمل في الحقل الإداري، فلن يكون هو ذلك الموظف الذي يقضي ساعات عمله في دائرة ومن ثم يعود إلى البيت والعائلة، لن يكون هو (حسن الحسيني) مثلاً، بل يتبدّل إلى السيّد رقم (٧١٧) في القطاع الثاني من المركز الأول، ولن يستشعر من وجوده سوى رقمه في سجلّ الراتب وإضبارة الترفيع، فإذا ما وقف أمام المرآة لن يرى سوى هيكل فارغ وخالٍ من المعنى والمضمون، إذ لم يعد له معنى ثابت مستقل، هو الآن رتبة ومنصب ورقم وعنوان؛ مدير عام أو سكرتير أو رئيس شعبة أو معاون رئيس.

إن نمط التفكير هو الذي يُملي على صاحبه شكل سلوكه وعقائده وميوله؛ وهو الآن وجود خالٍ تتحدد ماهيّته بهذه الأمور، ألا ترون أن الموظف إذا تبدّل منصبه، سرعان ما تتبدل جميع أنماط سلوكه؟! لقد بات العامل ذيلاً للماكنة التي يعمل

عليها، وصار السائق يشعر أنه امتداد لسيّارته وجزء لا يتجزأ منها، لم تعد لديه قدرة تشخيص ولا إرادة انتخاب، وحتى ذوقه أمسى يحدّد له من قبل الآخرين، ولو قيل له في الليل أن الوقت نهار، يضع يده على عينيه لكي لا يلفحها ضوء القمر!

في البدء قد يبرّر الإنسان ذلك لنفسه بأن هذه الأعمال أعمال ظاهرية، الغرض منها التظاهر بالشكل الذي يؤمّن له تحقيق مآربه، أما ما هو موجود في الباطن وصميم الفؤاد فهو شيء آخر يختلف تماماً، ولكن بمرور الوقت ولطول المدة التي يبقى الإنسان خلالها مصطبغاً بلون معيّن، قد تحصل عملية نفوذ من الظاهر إلى الباطن وتفقد حالة الرياء والتظاهر والازدواجية طابعها العرضي المؤقت لتتحول إلى ملكة متأصلة في الذات وطبع روحي وأخلاقي دائم. لعلّكم لم تواجهوا كثيراً، أناساً تقمصوا أدواراً لا على حسب ما يرغبون، بل على حسب ما تقتضيه مصالحهم، وراحوا يتحدثون بخلاف ما يعتقدون، ويظهرون عكس ما يضمرون، يتظاهرون ويتملقون ويحبّون ما يبغضون، ولكنّهم بالتدريج نسوا واقع حالهم، نسوا ما كانوا عليه، ولم يعودوا قادرين على إدراك ذواتهم خارج المظاهر والألوان التي صبغوا أنفسهم بها من أجل المصالح. لو سألت أحدهم بحرقة؛ من هو، وبماذا يفكّر، وإلامَ يتطلّع؟ وأراد أن يجيبك بصدق وإخلاص، فسوف يخونه لسانه، لن يستطيع أن يقول شيئاً لأنه لا يعلم شيئاً، فمن لا وجود له كيف يعلم

بالأشياء، إنه كيان خاوٍ، لقد أمسى وجوداً (مصلحياً) وتخلّى عن وجوده الحقيقي كإنسان.

لماذا نبغض الديكتاتورية ونستنكرها؟ السبب في ذلك أن شخصية الديكتاتور تلغي ما سواها من الشخصيّات وتقهرها في شخصية واحدة، ويتحول المجتمع إلى ملايين من الشخصيات (المصلحيّة) الذائبة في شخصية حقيقية واحدة؛ في (أنا) واحدة هي (أنا) الرئيس، وتلك هي بداية النهاية لمجتمع ما. الشعب الأسباني يعدّ من أوائل الأمم والشعوب التي ألهمت الغرب حضارته، واليوم انصهر هذا الشعب باستثناء أفراد قلائل في شخصية (فارانكو). والملايين من الألمان ما بين عالم ومفكّر ورجل أعمال انصهروا في شخصية هتلر، وتحولت روسيا العظمى في عهد ستالين إلى شخص واحد من أهالي كرجستان! أين ذهب الباقون؟ لقد تحوّلوا إلى ذيول وامتدادات لعصا الامبراطور وقلمه ونظّارتيه، كل هذا بفعل أحد العاملين أو كليهما: الترغيب والترهيب.

بيد أن التوحيد لا يسمح مطلقاً بظهور أمراض اجتماعية من هذا القبيل: جنون العظمة وهوس الشهرة وعبادة المال . . . الموحّد لا يرى في دائرة الوجود عوامل الترهيب والترغيب ولا المصالح والأضرار ولا الفرص السانحة جداً!

في هذا العالم قطبان فقط لا ثالث لهما: الله وما سواه،

ويعتقد الموحّد أن كل الآمال والطموحات والمصالح والأخطار واقعة في قبضة القطب الأول، أما الثاني فليس بيده شيء. إن الإسلام يطالب الفرد المسلم بالمثول عشر مرات على الأقل كل يوم أمام الحاكم المطلق المتصرف بجميع الكائنات بلا رقيب، ليقرّ له، وله فقط، ويعترف من صميم القلب: إياك وحدك أعبد وبك لا بغيرك أستعين[١]! عند ذلك، هل سيبقى مجال للثناء والتزلّف والترجّي والخوف والالتماس والاستجداء من ما سوى الله. نعم يتعين على كل مسلم عشر مرات على الأقل يومياً طوال عمره، أن يلقّن نفسه بهذه المبادئ والأصول والشعارات ويكرر معالم التوحيد هذه ما بين نفسه وربّه، بجدّية وإخلاص. ثم أن ممارسة طقوس هذا الاعتراف لا تتمّ إلاّ بموجب تحقق شروط زمانية وروحية وبدنية خاصة، يجب على الروح قبل ممارسة هذه الطقوس أن تغرق تماماً في عالم من الطهارة والصفاء، وعليها أن تكرر هذه الطقوس باستمرار، خصوصاً في اللحظات التي تشهد تغييرات في أوضاع الطبيعة - مواقيت الصلاة: على مشارف طلوع الشمس حيث يبدأ اليوم، وحين ينتصف النهار، وعندما تنحدر الشمس نحو المغيب، والمغرب حيث يبتدئ الليل، وفي دجى الليل حيث يغرق الإنسان والطبيعة

(١) يتعين على كل مسلم أن يقرأ سورة الفاتحة عشر مرات في اليوم والليلة، (مرتين كل صلاة)، تأملوا في معاني هذه السورة من المنظار الآنف الذكر.

في الظلمة والسكون، معنى هذا أن الإنسان يجدّد، مع تبدل أحوال الطبيعة، خضوعه حيال الخالق الواحد، روح الوجود ونبض الكائنات، ويعلن أنه غير مستعدّ للخضوع لغيره أو الاستعانة بسواه.

بهذه الكيفية، تموت في روح الإنسان بذور الضعف والخوف والطمع، ويتحول إلى موجود مستقل لا حاجة فيه إلى أحد ولا رغبة بشيء، وعندها فقط يستطيع أن يحفظ شخصيته الإنسانيّة أمام التهديدات والإغراءات في كل عصر ومصر . . . الموحّد إنسان حرّ، شجاع ومستقل. ولكم أن تتخيّلوا مجتمعاً مثالياً - كما صنع افلاطون وتوماس مور - كل فرد من أفراده مقاطعة حرّة وشخصية مستقلة منزّهة عن الخوف والطمع والكذب والخداع والتملّق.

أي مجتمع سيكون هذا؟ هل سيواجه معاناة؟، هل سيوجد عامل يقدر على تعريضه للمرض أو الانحراف؟!

ليس جزافاً أن يبتدئ نبي الإسلام نهضته ورسالته برفع شعار التوحيد: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا!

إنّ (تفلحوا) هذه ليست مجرد اصطلاح ديني شائع، وليس المقصود هنا فحسب أن المعتقد بهذا المبدأ (التوحيد) سيكون في الآخرة من الناجين والمفلحين في محكمة القيامة، أن لـ(تفلحوا) هذه دائرة أوسع من حيث المعنى، الكلام هنا

يحوم حول موضوع نجاة الإنسان وتحرره من كل القيود والمعوقات، سواء في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى؛ نجاته من عذابات هذه الدنيا ودنيا ما بعد الموت، وتحرّره من كل ما يقيّد حريته، ويبدد آماله في النجاح . . . ما الذي يقيد حرية الإنسان ويسحق آماله غير الخوف والطمع واتباع الشهوات والظلم والاستعباد والتحجّر والجمود والكذب والخداع والنفاق وتقديم المصالح على القيم والمبادئ، وما إلى ذلك من مكامن الشر والرذيلة والتي ضيّقت وتضيق يوماً بعد آخر، خناق الحياة الاجتماعية على روح الإنسان وشخصيته وقواه الإنسانيّة. لقد تطورت ظاهرة اكتناز الذهب والفضة القديمة إلى نظام اقتصادي حديث ومروّع اسمه الرأسمالية، وانسلّ الاحتكار من ثوبه القديم لينتحل ثوباً جديداً هو نظام (الكارتلات)، أما الفواحش التي كانت تمارس في أطر ضيّقة وفي حدود شرائح اجتماعية خاصة، فقد باتت اليوم تمارس على نطاق أوسع وفي أماكن عامة كالمراقص والملاهي والكباريهات.

أما حالات الاستعباد فقد كانت تجري في السابق على نطاق محدود وفي إطار فردي وبدني، وفي الغالب شبه وحشي، ولكنها اليوم اتخذت أبعاداً أخطر وأصبحت تمارس على نحو جماعي وفي المجال الروحي والفكري على وجه الخصوص، فقد بات الاستبعاد يطال شعوباً بأسرها، ويهدف إلى إذلال أبنائها روحياً ومسخ إنسانيتهم. فيما مضى كان الإقطاع إنساناً على أي

حال، أما اليوم فالمهيمن على مصائر الشعوب أجهزة دعاية عظمى وأنظمة اقتصادية وحشية تمارس على نحو استعمار جليّ أو خفيّ، عبر وسائل وأساليب شتى أخطرها المكننة والبيروقراطية! . .

الأوربيون يفقهون ما أقول . . . ما زلنا نجهل هذين النوعين من الإقطاع: الأعمى الأصم (المكننة)، والمتوحش الذي لا يرحم (البيروقراطية) . . . في فيلم (العصر الحديث) تمكن شارلي شابلن، العدو الواعي لهذين الوحشين الكاسرين، من تسليط الضوء على ذلك العاقل المسكين وهو محشور بين أسنان عجلات الماكنة القاسية ينازع الموت والبقاء، لقد صوّر عبر ذلك المشهد السينمائي حال الإنسانيّة في القرن الحالي، والتي يتجلى فيها الرقّ والعبودية بدرجات أفظع آلاف المرات مما كانت عليه في العصور القديمة. وذلك أن عبودية الأمس كانت عبارة عن حبل ملفوف حول رقبة الإنسانيّة، لكنها اليوم منظومة معقدة من العلاقات والمظاهر الاجتماعية والثقافية المضلّلة تهيمن على قلب المرء وعقله، فيما مضى كانوا يأسرون الإنسان، واليوم يبدّلونه شيئاً آخر.

وإذا كان الغصب والاعتداء بالأمس يتجسد في غارة ليلية على قافلة، فهو اليوم نهب وسلب في وضح النهار لشعب أو أمة أو قارة بأكملها، وعلى حد تعبير سارتر إنه (تسلّط على مليار

وخمسمائة مليون مواطن أصلي من قبل خمسمائة مليون على وجه البسيطة)[١]، وليت الأمر يقتصر على سلب الأموال والثروات وكفى، بل الخطر يهدد ثقافات الشعوب وهويتها الحضاريّة وتاريخها وتراثها وأعرافها وعاداتها وتقاليدها، ويستهدف نسف البنى التحتية لاقتصاديات الأمم وتحويلها إلى أسواق استهلاكية بحتة. إن ما يهدد الكيان البشري اليوم هو هذه السلاسل والقيود والأغلال التي تضيق الخناق على الإنسان يوماً بعد يوم. الإنسان اليوم دودة قزّ تنسج سجنها بيديها إلى أن تختنق تماماً، و(الفلاح) هو المطلب الأكثر إلحاحاً باطنياً وظاهرياً لهذا الكائن الحبيس: الإنسان!

❀ ❀ ❀

وكما قلت، فإن التوحيد هو من المبادئ والشعارات التي كانت تسبق طلائع الفتح الإسلامي إلى البلاد المفتوحة، وفي هذا السياق نشير إلى ما ورد في (الشاهنامة)[*]، وفيها يظهر البطل الساساني رستم وكأنه غير متحامل على الدين الإسلامي ولا يخشى حلوله محل الديانة الزرادشتية، وإنما عداؤه موجّه

(١) من مقدمة لجان بول سارتر على كتاب فرانتز فانون (Les Damnes de la terre) يقول فيها أن المستعمرين يعتبرون خمسمائة مليون أوربي بشراً فقط، أما سكان العالم في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية واستراليا فهم من الأهالي.

(*) ملحمة شعرية إيرانية شهيرة للشاعر الكبير الفردوسي.

إلى عمر والعرب فقط! حتى أن الرجل يصرّح بهذا المعنى في الأبيات التالية في ضمن رسالته إلى أخيه، يقول:

لو كان الذي يواجهني محمد

لآثرت الدين الجديد على القديم

ولكنّ ما يحزّ في النفس أن هذا الأحدب

يتظاهر أمامنا بالعظمة

هذا كلام جارٍ على لسان شخصية تمثّل النظام الساساني القديم حينما كان مشرفاً على الانهيار، ويريد أن يقول أنه لا يحمل عداء للإسلام بل هو مستعد للقبول به بديلاً عن دينه القديم، ويظهر من هذا الكلام أن العقائد والمبادئ الإسلامية كانت تحظى بالقبول حتى لدى قادة الجيش الإيراني[١]، ولو فرضنا أن الرجل لم يكن صادقاً في كلامه، لا محيص أيضاً من الإذعان بأنه كان

---

(١) من وجهة نظر اجتماعية ونفسية طبقيّة، يعدّ الجيش مؤسسة محافظة، ويجب أن يكون كذلك لأنه يؤسس من أجل المحافظة على الوضع الموجود في دولة ما، وهذه هي فلسفة إيجاده. وسواء شئنا أم أبينا لابدّ أن يعارض الجيش كل قادم جديد، خاصة إذا كان القادم من الخارج يهدف إلى تغيير النظام السياسي أو الاجتماعي للبلد، ولو فرض أن مجتمعاً يستسلم للفكر القادم الجديد فلا شك أن الجيش والعسكر سيكونون بطبيعة الحال آخر من يستسلم ويقبل بالتطور الجديد. وبميسورنا أن نفهم في هذا السياق مغزى كلام قائد الجيش الإيراني لدى مخاطبته الجند وحثهم لهم للوقوف بوجه الإسلام والدفاع عن دين آبائهم وأجدادهم.

يلجأ إلى ذلك طمعاً في تحريض جمهور الناس، المتأثرين بالإسلام وبمحمد، ضد الجنود العرب في محاولة تكتيكية منه للتفريق بين العرب والإسلام، والإيحاء إلى الناس بأن الإسلام متعلق بمحمد وقد ذهب بذهاب محمد وأنه لو كان باقياً إلى الآن لآمن به رستم، ولكن الموجود الآن هو عمر منتحلاً لصبغة الإسلام، ومن هنا يجب على الإيرانيين المؤيدين للإسلام أو على الأقل المترددين في عداء الإسلام، أن يهبّوا لقتال العرب[1].

إن تضعضع الدين الزرادشتي والأزمة الحادة التي واجهتها إيران الساسانية آنذاك على المستوى الديني، ناهيك عن التوغل السريع للمسيحية في أوساط المجتمع الإيراني، كل هذه الأمور شواهد وقرائن تبرهن لنا أن إيران القرن السابع الميلادي كانت تتطلّع إلى مدرسة فكرية ترفع التوحيد والمساواة شعاراً لها، ويعزّز هذه القناعة النتائج الميدانية لمعركة القادسية والنهاوند، ومقولات رستم المتضمنة ليأسه من إمكانية الانتصار على العرب، وما تبع ذلك من الفتوحات الإسلامية وتراجع مكانة الحكومة الساسانية بين أوساط العوام والنخبة في إيران ذلك الوقت.

---

(١) وكانت هذه هي السياسة العامة لكل القادة العسكريين والكتاب والشعراء الإيرانيين في الصدر الأول للإسلام ممن وقفوا بوجه الخلافة وحالوا دون نفوذ وتوغّل العرب. لقد كان النفوذ المعنوي للإسلام في فكر الإيرانيين - لا في قلوب بعضهم - من القوة بحيث كانوا يوظّفونه في حملاتهم على العرب والحكومة العربية، عبر الإقرار بالإسلام رسمياً أو على الأقل عدم إنكاره.

شعار التوحيد

عندما جاء محمد جاء معه بكلمة واحدة لم يضف إليها شيئاً على مدى ثلاث سنوات: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

لقد رفع التوحيد في هذه الكلمة شعاراً بالمعنى الذي بيّنته آنفاً، دون أن يبدل هذا الشعار في غضون ثلاثة أعوام. وكما قلت فإن أهمية التوحيد تتجلى هاهنا أيضاً، كأنّ محمداً لم يأتِ إلا لنشر التوحيد والدعوة له. وثمة قضية أخرى جديرة بالإشارة من الناحية التكتيكية، وذلك أن فن الدعاية اليوم تحوّل إلى مادة علمية تخضع لأسس وقواعد وقوانين، وأحد قوانينها الرئيسية أن أية نهضة ومذهب فكري لابدّ له من اختزال نفسه في صورة شعار يتوفر على المواصفات التالية:

١ ـ أن يكون واضحاً.

٢ ـ أن يكون ملموساً.

٣ ـ أن يكون على تماس مباشر بمتطلبات الحياة اليومية وتطلعات أبناء المجتمع على اختلاف طبقاتهم وشرائحهم.

٤ ـ أن يكون مختصراً لكي يسهل فهمه وتفهيمه للآخرين.

٥ ـ أن لا يكون مركباً، بمعنى أن لا يتضمن مطالب

ونظريات متعددة، وذلك لكي تتركز كل الجهود الدعائية على مركز واحد ونقطة محورية تمثل جوهر الفكرة ولبّها، حتى تألف الأذهان الفكرة وتستوعبها بشكل راسخ وينشدّ إليها الناس فكرياً وعاطفياً.

٦ ـ أن يكون حاسماً جازماً تفوح منه رائحة الجزم واليقين بالغلبة والانتصار.

٧ ـ أن لا يتبدل ولا يُستعاض عنه بغيره إلى حين تحقيقه وأن لا يتخلى عنه أصحابه في الظرف الحرج، ولا تجرى عليه تعديلات حتى إذا اقتضت (المصلحة) ذلك.

٨ ـ أن لا يتفرع عنه شعار أو شعارات أخرى جانبية وذلك لكي لا تتوزع قوى الدفع والتحريك على أكثر من محور وتتشتّت فيضعف الشعار الأصلي.

والواقع أن شعار (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) يتوفر على جميع هذه الشروط والمواصفات، ولا شك أن أحد عوامل انتصار هذا الشعار هو هذا التكامل والقدرة العالية على صعيد التكنيك. وينبثق عن هذا الشعار قضية أخرى موجزها أن التوحيد هو كل الإسلام، فقد ربط الشعار ربطاً بتّياً بين التوحيد والفلاح (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)، كل من آمن بهذا الشعار واعتقد به ومات على هذا الاعتقاد فهو من المفلحين. وهذا يعدّ بحدّ ذاته

دليلاً آخر على أن التوحيد أبٌ لسائر العقائد وليس أخاً لها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ...﴾(١).

والقضية الأخرى اللازمة لمعرفة حدود دائرة التوحيد الإسلامي، هي دراسة العوامل التي تعتبر إسلامياً من موجبات (الشرك)، إذ الشرك ضد التوحيد، وبمعرفة أحدهما ترتسم حدود الآخر بدقة. ومن مصاديق الشرك أن يعتقد المرء أن شخصاً أو شيئاً يؤثر في سعادة الحياة وشقائها. وبالتالي فهو يخشاه أو يتأمل منه، فلو بالغنا بالثناء على عالم الدين ومنحناه قيمة بالأصالة بحيث ننقاد لكل ما يقوله وننفذ كل أوامره وفتاواه (بدون تفكير)، نكون قد زاولنا نمطاً من الشرك أنا أطلق عليه اسم (الصنمية الدينية)، وهو ما يشير إليه القرآن بالقول:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢).

كل من يجعل نفسه آلة لتنفيذ مآرب وأوامر غيره فهو مشرك إذا لم يكن ذلك لأجل حق أو حقيقة. فالانقياد لا يجوز إلا له (لله الأمر، لله الحكم ...)، سنكون مشركين لو سلّمنا زمام أمورنا بيد شخص آخر، أو ظننّا أنها كذلك. نكون مشركين إذا ساومنا على حريتنا، أو اعتقدنا بأننا ملك لأحد،

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) التوبة: ٣١.

أو أذعنّا لمن يدّعي ذلك.

إن عبادة الأهواء نوع من الصنميّة أيضاً، لو اعتمد إنسان على الثروة وظنّ أنها الحل الوحيد لمشكلاته كافة واعتمد على المال والثروة في ذلك، فصاحبنا مشرك ايضاً، وعلى هذا المنوال تكون التعلّقات والاتكالات والإرشادات والآمال والطموحات كلها من مظاهر الشرك! (من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه). هذه هي الأمور التي بها يتحدد المائز الدقيق بين الشرك والتوحيد.

نحن جميعاً نحمل تصوراً عن فرعون ونمرود بأنهما زعما الألوهية على النحو الذي نفهمه من ظاهر العبارة مع أن الواقع خلاف ذلك، أن أحداً منهم لم يزعم أنه خلق السموات والأرض أو كان شريكاً بخلقهنّ ولو على غرار ما يذهب إليه الدين الزردشتي من أن (أهريمن) هو خالق الشرّ في الطبيعة. كلاّ! فالفراعنة كانوا مؤمنين بالله أو بالآلهة، غايتها أنهم زعموا الولاية على الناس والهيمنة والتحكم بمصائرهم. فرعون يقول لقومه أن مصيرهم بيده وأن إرادته هي التي تتحكم فيهم، بيده رزقهم وعزّهم وذلّهم، وهكذا كان يستكبر على حد التعبير القرآني. بيد أن كل من يتكبّر ويتعالى على الآخرين باعتبار علمه أو ماله أو نسبه ويسعى لتحكيم إرادته وفرضها على الناس لهذا الاعتبار، فهو بمنزلة من يدّعي الألوهية، وكل من يوافقه ويطاوعه في ذلك

فهو بمنزلة المشرك، وإذ لما كانت الحكومة المطلقة والإرادة المطلقة والقدرة غير المحدودة والمالكية بالأصالة هي لله وحده، فالموحد لا يجد مبرراً للانقياد لغيره تعالى، وهذا هو الإسلام بعينه.

فرعون خاطب قومه بالقول: أنا ربكم الأعلى.

والرب هنا ليس بمعنى الخالق بل بمعنى الصاحب والسيّد والمالك والمربّي، وفحوى كلامه أنه هو صاحب القرار وله أن يفعل بهم ما يشاء ويوجههم حيث يريد هو لا حيث ما يريد الله أو هم يريدون فهم رعايا عبيد ليس إلا. وهاهنا نلاحظ كيف ينسلخ التوحيد عن إطاره العلمي والفلسفي، وما هي المديات التي يصل إليها.

س: قلتم أن النفع والخوف يعودان إلى الله، ولي أن أسأل أن ربّاً كهذا سيتحول إلى مركز للمطامع والمخاوف وربما إلى وجود مرعب مخيف، في حال إنني اعتقد أن الإله الذي خلق العالم رؤوف لطيف ولا ينبغي أن نستوحش منه.

جـ: الخوف على نحوين؛ خوف من القاضي وخوف من الحاكم (الدكتاتور)، وبينهما فرق جوهري أساسي. فخوفنا من الحاكم لإمكان أن يودي بحياتنا ويلحق بنا الضرر دون سبب ولا استحقاق عقوبة، بينما يعود خوفنا من القاضي إلى خوفنا من أنفسنا ومما كسبته أيدينا، القاضي واحد من أهم الأسماء

الإلهية، وجميع القضاة هم مندوبون عنه وممثلون له في هذا المجال، وخوفنا من الله هو خوف من القاضي لا من الحاكم، خوف ممن يصدر أحكامه على ضوء أعمالنا وما جنته جوارحنا.

ومن هذا المنطلق، فلكي يشملنا النفع منه لابدّ لنا أن نتحلّى عنده بأهلية ذلك، ولكي نأمن الخوف منه علينا أن نقتل دواعي الخوف في نفوسنا. إن الخوف من الحاكم يورث اللوعة والعذاب والذلة والانحراف، أما الخوف من القاضي فهو من موجبات الهدى والتكامل والتنزه عن الخيانة والانحراف.

س: هل يتدخل الله في كل الأمور؟

جـ: الله يتدخل في كلّ شيء، ولا يتدخل في أيّ شيء! وثمة قول مروي عن علي عليه السلام يرتبط بهذا الصدد يقول: (داخل في الأشياء لا بالممازجة وخارج عن الأشياء لا بالمباينة).

وتوجد هنا قضية فلسفية معقدة؛ فهناك فريق يؤمن بالحتمية الاجتماعية (الديترمينية) أو الجبر التاريخي، والفريق الآخر يعتقد بالمشيئة الإلهية (الكاثوليك وغالبية المتدينين) حيث يذهبون إلى أن هذه المشيئة هي التي تتحكم بالوقائع والأحداث التاريخية وهي التي توجدها.

أما الإسلام الأول الأصيل فيختار شقاً ثالثاً مفاده أن المشيئة الإلهية هي عبارة عن السنن الموجودة في المجتمع،

فليس المراد من المشيئة، الأوامر الإلهية المتلاعبة بقوانين الطبيعة ونواميسها.

فإرادته لا تتجسد بقوله للشجرة أثمري أو لا تثمري، بل هي متجسدة في ذات قانون النمو والتكاثر والإنتاج. وفي ضوء ذلك فأنا عندما أتبع القوانين الإلهية الجاريّة عليّ نفسياً وجسدياً أكون بذلك قد امتثلت للمشيئة الإلهية وانقدت لها تلقائياً، أما إذا تمرّدت على هذه القوانين وعملت على خلاف ما تقتضيه متطلبات النفس والبدن وقوانين الحياة أعدّ (ظالماً) من وجهة نظر قرآنية ومعارضاً للإرادة والمشيئة الإلهية.

وعلى حد تعبير ألكسيس كارل: (إن أفضل أسلوب لتطبيق الإنسان إرادته على مقتضى الإرادة الإلهية، هو انقياده للقوانين الفسلجية والنفسية والمادية والحياتية)[١].

س: المذاهب الفلسفية التي تبلورت عالمياً استمدّت أصولها من المجتمع وحاجاته، إلى أي حدّ تنطبق هذه الحالة على الإسلام؟

جـ: إلى حد بعيد! لماذا تراجع المثاليون واليوتوبيّون على الصعيد التاريخي والاجتماعي ولم يحققوا شيئاً مما حققته دعوات الأنبياء؟ المفروض أن توماس مور وأفلاطون والكثير من

---

(١) في كتاب المناجاة، ترجمة المؤلف.

الاشتراكيين المثاليين قبل ماركس، جاءوا بدعواتهم من أجل إصلاح البشر، وذلك على غرار ما صنع الأنبياء، ولكن لماذا فشل هؤلاء دون أولئك. السبب في ذلك يعود إلى أن الأنبياء شيّدوا المبادئ الأيديولوجية لدعواتهم على أساس نوع الحاجات المادية والاجتماعية للإنسان، بينما اليوتوبيّون لم يولوا أي اهتمام للظروف والإمكانيات المادية، وشيدوا في أوهامهم أبراجاً عالية لمدن مثالية ينعم سكانها الأمن والحرية والعدل والسلام والسعادة الكاملة، في حال أن بناء هذه المدن لم يؤمن الناس من خوف ولم يسمنهم من جوع، ولم توفرّ هذه المدن المثالية سوى مادة للقراءة والمطالعة من قبل فئة من الناس يعشقون التجول في أروقة المكتبات والعيش في عوالم الخيال البعيد عن الواقع، وكان من الطبيعي جداً أن تبقى هذه المذاهب الفلسفية حبيسة الكتب ورفوف المكتبات.

الإسلام اختلط بواقع الحياة الاجتماعية وعايش الناس، حتى أنه أخذ الكثير من آداب الجاهلية وتقاليدها وأيّدها وأمضاها، نظير (حلف الفضول) الذي كان رسماً موروثاً من زمان الجاهلية[١].

الطواف حول الكعبة، هو الآخر رسم وسنة جاهلية ويعدّ

(١) شباب تعاهدوا بدافع إنساني محض على نصرة المظلوم أيّاً كان، وقد انضمّ النبي لهذا الحلف قبل البعثة.

من الشعائر الدينية للوثنية، ومع حرص الإسلام على محو آثار الجاهلية ورسومها وكل شيء يذكّر بها، مع ذلك فهو يقرّ هذا الرسم بعد إجراء التعديلات اللازمة لجعله ينطبق مع مبادئ الإسلام وأهدافه السامية. والغسل أيضاً ظاهرة تعود إلى زمان ما قبل الإسلام، العربي إذا أصبح جنباً لم يكن يحرك ساكناً قبل أن يتطهّر، بل كان يتصور أن تمام أجزاء بدنه تصبح نجسة حتى العرق الذي يترشح من جبهته مادام في حال الجنابة مفسراً ذلك بأوهام وخرافات. بيد أن الإسلام أخذ هذا الرسم وأضفى عليه طابعاً صحياً وعدّه واحداً من تعاليمه السمحاء.

س : في ضوء ذلك، سيحصل لدينا شك في أن هذه التعاليم الدينية أوحيت إلى محمد أم أنه اخترعها بنبوغه؟

جـ : النبوغ والوحي مجتمعان معاً عند النبي؛ كما أن كلام محمد غير كلام القرآن، وهذه المغايرة ملموسة ومقررة ومتجلية في أفعال محمد وأفكاره، وكان ﷺ يميّز بدقة بين ما يوحى إليه وبين ما يصنعه هو من تلقاء نفسه. حينما يقول شيئاً يبيّن للناس أنه وحي أو رأي، وفي الحالة الثانية يعلم المسلمون أن بمقدورهم إبداء وجهات نظرهم الموافقة أو المخالفة واقتراحهم لتعديل الفكرة أو تبديلها، بينما كانوا يسلّمون تسليماً مطلقاً لكل ما جاء النبي عن طريق الوحي.

والنقطة الحساسة التي تجدر الإشارة إليها هنا، أن

الإسلام سلك في هذا المضمار منهجاً رائعاً وفريداً. قلنا أن المثالية اليوتوبية لم تكن تولي أي اهتمام بالظرف الاجتماعي والاقتصادي والزماني وظلّت تعيش في أبراجها العاجية بعيداً عن الواقع والسنن الاجتماعية والتقاليد الشعبية، كما أن المادية الواقعية قصرت اهتمامها على مستوى ما هو موجود في الواقع المشهود وراحت تفسر وتبرر (الوضع القائم)[١] (Statu quo) واصطبغت بصبغة تقليدية محافظة، وتراخت عن الانطلاق إلى الأمام وإحداث تغيير جذري في العادات والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ما أدى بالتالي إلى توقف حركة التكامل والتطور أو تباطؤها بشكل رتيب.

وعلى عادته في سلوك الطريق الوسط بين ضفتي الإفراط والتفريط، فقد اختار الإسلام للمجتمع المسلم الذي وصفه القرآن بالأمة الوسط[٢]، منهجاً معتدلاً بين الكونسرفاتية[٣] والمثالية، فكان يهتمّ بالظروف المادية والحقائق الاجتماعية، ولكنه ينظر إليها من خلال أهدافه المثالية بعيدة المدى.

وباختصار يمكن القول أن الإسلام يتلوّن بلون البيئة لكي

---

(١) statu quo، الوضع الذي وجد من قبل وما يزال قائماً.

(٢) (وجعلناكم أمة وسطاً)، (شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية...) قرآن كريم.

(٣) نوع من الواقعية المطلقة، تزعم انها تقوم على اسس اجتماعية واقعية.

يغيّر لونها فيما بعد. ولكن في نفس الوقت، ثمة مسائل عنونها الإسلام مع أنها كانت مغايرة تماماً للوضع البيئي السائد آنذاك. لا أريد هنا أن أردد بعض المزاعم الساذجة بأن كل ردّ فعل معاكس للواقع البيئي فهو غريب عن ذلك الواقع وليس وليداً له، كلاّ! فإن كل شيء يتمرد على بيئته، شخصاً كان أم فكرة، فهو وليد لتلك البيئة وناجم عنها بشكل أو آخر.

ولكن المسائل التي أتحدث عنها هنا هي ذلك النمط من المسائل التي ليس لها، مبدئياً، ربط بالبيئة لا على النحو السلبي ولا على النحو الإيجابي، بل هي تعدّ في سياق ظرفها الزمني أموراً عبثية لا معنى لها، ولا يمكن أن يتجلى لها أثر إلاّ في المستقبل البعيد وفي زمن آخر وبيئة أخرى.

ذات يوم وبالتحديد، في أوائل القرن السابع الميلادي، هبط رجل من جبل، وكان يخصص شطراً كبيراً من وقته للتفكر فيه، ومضى نحو واد يقطنه جمع من شيوخ القبائل والبدو والعبيد ووجدهم يطوفون حول الأصنام فنادى فيهم: جئتكم برسالة أوحيت إليّ من السماء، وهذا أوّلها:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

إنه لشيءٌ غريب حقاً! ما معنى هذه الكلمات في قوم لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يفقهون معنى القلم والدواة؟! ما هي الحكمة في هذا البلاغ؟!

وفي مكان آخر يصرّح هذا الرجل أيضاً بالقول: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ ما معنى أن يقسم المرء بالقلم وما يسطر به، بين ظهراني قوم لا يتفاخرون إلا بالسيف والسرج والنسب، ولا يوجد بينهم سوى بضعة أنفار من الروم أو القبط، ليس لهم شأن ولا منزلة اجتماعية ولا ثروة ولا مال سوى ما تدرّه عليهم أقلامهم من شيء يقتاتون عليه. ما هي الحكمة في أن يقسم الربّ بالقلم في نظر هؤلاء؟! القلم الذي لم يحظ تاريخياً بالأهمية والمكانة إلا بعد الثورة الفرنسية الكبرى وفي دائرة محدودة من العالم تشمل أوربا الغربية والمركزية فقط. الآن ونحن في القرن العشرين، قرن الكتاب والقلم والعلم والتعليم، ما هي المكانة التي يحظى بها الكاتب والمعلم في دول مثل دولنا التي وصلتها الحضارة ولو بعد حين؟! حتى في البلدان المتقدمة حيث أوج الحضارة الجديدة، ما زال القلم لا يتمتع بالاحترام والقدسية اللازمة إلا في نظر فئات قليلة من الناس، فلماذا يقسم الله بالقلم ويعدّ القراءة والكتابة نعمته الكبرى فيصف نفسه بعدها بأنه (الأكرم) على الإطلاق؟! والحريّ بالملاحظة هنا أيضاً أن الذي يردّد هذه الكلمات إنسان (أمّي) محروم من نعمة الكتابة والقراءة، ومن

المعروف أن من يجهل شيئاً يتخذ منه موقفاً عدائياً، أو يقلّل من شأنه، وفي أحسن الأحوال أنه يمتنع عن الترويج له.

هذا هو نموذج من المسائل التي ليس بالإمكان عدّها وليدة لبيئتها الاجتماعية أو ظرفها الزمني أو عبقرية ونبوغ المروّجين لها، وإن كنا عاجزين عن تعليل هذه الظاهرة أو تفسيرها علمياً. ولقد ظل القلم لدى العرب فاقداً لمكانته وحظوته بالقياس إلى السيف والرمح حتى في الحقبة الزمنية التي أعقبت الإسلام واستولى فيها العرب على العالم القديم، وهذا معاوية يمنّ على زياد بن أبيه أن أباه (أبو سفيان) نقل زياداً من عبودية ثقيف إلى سيادة قريش، ورقّاه من القلم والكتابة إلى المنبر والخطابة[١].

وقد أنشد سليط بن جرير النمري:

أتحقرني ولست لذاك أهلاً
وتدني الأصغرين من الخوانِ
جهابذة وكتاب وليسوا
بفرسان الكريهة والطعانِ
ستعرفني وتذكرني إذا ما
تلاقى الحلقتان من البطان[٢]

---

(١) إشارة إلى قضية الاستلحاق حيث ثبت أن والد معاوية وقع على سمية أم زياد، وفي ضوء ذلك يكون زياد ابناً لأبي سفيان لا لعبيد.
(٢) الوزراء والكتاب لـ(جهشياري).

إن الشعور الديني رافق الإنسان على طول التاريخ، وكان يتكامل ويتطور مع تطور فكر الإنسان ووعيه وشعوره. وقد تبلورت الرؤية الدينية في صورها البدائية بمذاهب شتى من قبيل (الطوطمية = Totemisme) حيث يعتقد أبناء القبيلة الواحدة بأن حيواناً معيناً هو جدّهم الأعلى وعليهم لذلك أن يعبدوه، و(الأنيميّة = Animisme) عبادة الأرواح، والصنمية الأطرية (Fetichisme) وعبادة الأوثان (Idolatrie) وعبادة الكواكب والنجوم (Sabeisme) وفروع هذه المذاهب والأديان التي ظهرت لدى الأمم البدائية قبل التاريخ أو في بوادر ظهور الحضارة (وإن كانت هناك قبائل مازالت إلى اليوم تعتنق هذه الأديان، ولكن ينبغي أن تصنّف نفس هذه القبائل على عصور ما قبل التاريخ وإن كانت تعيش في هذا العصر).

ثم تكاملت الرؤية الدينية لدى الإنسان فظهرت في المراحل اللاحقة أديان تؤمن بتعدد الآلهة (Polytheistes)، نظير الديانات التي اعتنقها الإيرانيون قبل (زرادشت)، كما أن الدين الزردشتي نفسه كان يقرّر أن لكل قوة من قوى الطبيعة إلهاً خاصاً بها، فكان هناك ربّ (يزدان) لكل من الأرض والماء والحرب والحب والعواصف والأمطار وغيرها من القوى والكوارث الطبيعية، وكان للروم واليونانيين في العهد القديم (قبل المسيحية) أديان تؤمن بالآلهة المتعددة وأرباب الأنواع.

وتتواصل المعرفة الإلهية في مسارها التكاملي نحو التوحيد، وهنا نرى أن الحضارة الغربية (الروم) والحضارة الشرقية (إيران) طوت مرحلة الآلهة المتعددة لتنتقل الأولى بعد ظهور المسيحية إلى التثليث (Trinite)، والثانية بعد ظهور زرادشت إلى الثنوية (Dualisme).

وما أن يصل التاريخ على مشارف ظهور الإسلام إذا بالبشرية تستعدّ لاستيعاب التوحيد المطلق، الغني في إثباته عن أي تأويل كلامي أو توجيه فلسفي أو سفاسف وسفسطة، وهو ما كانت تعمد إليه المسيحية من أجل حلّ اللغز العويص (الواحد ثلاثة والثلاثة واحد!)، فالله واحد له شخصيات ثلاثة متميّزة: الأب والابن وروح القدس، وهذه الشخصيات الثلاث هي في الحال ذاتها مندمجة في حقيقة واحدة هي الله . . . وعلى حد قول الشاعر: (اطلب من الكأس بلا خمر خمراً بلا كأس!).

ولكي لا تتكرر التجربة المريرة التي وقعت فيها المسيحية بإحياء الشرك وعبادة الأشخاص، حرص محمد على تهيئة مقدمات دقيقة لهذا الغرض(*). الخطر يكمن في كون الشرك في الأديان التوحيدية يتجلى في صورة عبادة النبي، ومن هنا نجد أن

(*) والواقع أن الحرص كان من الله قبل النبي، حيث كان يصف نبيّه دائماً بالعبد حذار أن ينحرف الناس إلى عبادة النبي (لاحظ: الإسراء، آية ١).

الشعائر الإسلامية حريصة على إلحاق وصف العبودية باسم النبي أينما ذكر. إن مكانة محمد في القرآن وسيرته وسلوكه لا تدع مجالاً للمسلمين لكي يقولوا بألوهيته. وهذا هو السرّ في ظهور فرق ألّهت عليّاً وسلمان والمختار وأبا مسلم، وهناك من ألّه حتى خادم الإمام الصادق (الخطابية) ومع ذلك لم تظهر في الإسلام فرقة تؤلّه محمداً!... لماذا؟ لأن محمداً سعى دائماً لإظهار نفسه بشراً مثل سائر الناس - كما أكدّ القرآن ذلك في أكثر من مناسبة - بل حرص النبي على أن يظهر نفسه حتى أقل مما هو عليه في الواقع من منزلة وعلوّ شأن. وصار يتوجّب على كل مسلم أن يكرر ليل نهار إقراره أمام الله وشهادته بأن محمداً عبده ورسوله (ليس أكثر).

والذي يخطر في الذهن مما يرتبط ببحث التوحيد الإسلامي، قضية الشيطان، فالأمر يبدو هنا وكأننا نواجه نوعاً آخر من الثنوية. ألا يسيء ذلك إلى التوحيد الخالص المجرّد؟ وهلاّ يعدّ ذلك الوجه الآخر لنفوذ الفلسفة الزردشتية والمانيّة في الرؤية الكونية الإسلامية؟ وهل لقائلٍ أن يقول أن الشيطان أو إبليس تعبير آخر عن (اهريمن = إله الشرّ) فيما يكون الله تعبيراً عن (آهورا مزدا = إله الخير)؟!

الواقع أن هناك اختلافين جوهريين بين ثنوية (الشيطان - الله) في الإسلام، وثنوية (اهريمن - آهورا مزدا) لدى الزرادشتية

أو ثنوية (زروان الظلمة - زروان النور) في الديانة المانوية:

الاختلاف الأول : في الثنوية الزردشتية أو المانوية، يتمتع اهريمن أو زروان الظلمة بنفس الأصالة والاستقلال الذي يتمتع به آهورا مزدا أو زروان النور، وكلاهما إله حقيقي له صفة الربوبية والخالقية والإرادة المطلقة؛ امبراطوريتان مقتدرتان لهما شأن واعتبار واحد تتنافسان من أجل الهيمنة على أكبر مساحة ممكنة من عالم الوجود، وهذه الثنوية والتنافس والاحتراب تتجلى في صورة صراع مستمر في ربوع الكون بأسره. والطبيعة قائمة على أساس هذه الخصوصية والتنافس المستمر، والإنسان بدوره، غير قادر عن الخروج من دوامة هذا الصراع، شاء أم أبى. بينما لا تعتبر الثنوية في الإسلام قانوناً عاماً سارياً في كل أنحاء الطبيعة والوجود. والمسلم لا ينظر إلى العالم عبر عدسة الثنوية، ولا يرى نفسه مضطراً للتعاطي مع الأشياء على أساس قانون التضاد وثنائية القوى. فالوجود في نظر المسلم بأسره، ميدان ظهور القدرة الإلهية والسلطانية الربانية على عالم الوجود، وليس للشيطان قدرة مستقلة ومطلقة يتمكن من خلالها أن يتحدى الإرادة الإلهية أو يتنافس معها للهيمنة على جزء من ميدان نفوذها. إنه ملك قريب من الله، مخلوق من قبله، ومتمرد عليه، ولكن التمرّد على الله شيء وادعاء أنه كفء له يغالبه ويصارعه ويتحداه - على غرار ما يفعل (اهريمن) حيال (آهورا مزدا) - شيء آخر يختلف تماماً.

إن عصيان الشيطان لله ناجم عن خطأ في التشخيص جعله يمتنع عن السجود لآدم إذ كان يعتبره أدون منه شأناً ومنزلة، ويتصور أنه هو وأبناؤه أشدّ خضوعاً وتقديساً لله من آدم وأبنائه. إن عصيان الشيطان وتمرّده عن طاعة الأمر الإلهي، يصنّف على مقولة الذنب الذي يرتكبه حتى الإنسان المتدين بتركه لأحد الفرائض والواجبات الدينية. وفي ضوء ذلك، يعدّ الشيطان من وجهة نظر فلسفية إسلامية عبداً عاصياً وليس قوة متحدية لله.

والاختلاف الجوهري الثاني، والذي غالباً ما يغفل عنه رغم أهميته أن ثنوية (الشيطان - الله) لا تمثل بالأساس جزءاً من الرؤية الكونية الإسلامية، خلافاً للثنوية الزرادشتية أو المانوية. فالمسلم لا ينظر إلى الوجود بنظارتين. والوجود في نظره كيان متسق ومتوافق تتواصل جميع أجزائه على أسس منطقية وعلمية دقيقة، ليتألف من اقترانها معاً وجود واحد حيّ ومريد وهادف اسمه (الخلقة). والكون امبراطورية واحدة يحكمها ملك واحد، له قدرة مطلقة لا حدّ لها ولا يقوى أحد على منافستها أو منازعتها ولا حتى مشاركتها في السلطنة، في حال أن فلسفة الأديان الثنوية قائمة في رؤيتها الكلية على أساس الإقرار بوجود مصدرين للقوة لكل منهما حكومة منحازة وميدان محدد لإعمال النفوذ، وهما دائماً في صدد التوسع على حساب بعضهما.

ولنا أن نقول أن الثنوية في الإسلام محدودة في عالم الإنسان، على أن هذه الثنوية لم يخترعها الإسلام ولم يحث الناس عليها ولم يدعهم لها. إنّها موجودة بمقتضى ذاتها. الإنسان في حدّ ذاته كائن ثنويّ مزدوج. كل واحد منا قادر على درك هذه الازدواجية في أعماق ذاته بمقدار ما يمتلك من وعي وشعور. هذا التضاد والتناقض راسخ في ذواتنا، وعنه ينبثق الصراع المحتدم بين الخير والشر، وليست هناك حقيقة أوضح وأجلى من وجود هذين القطبين المتخاصمين بل الإقنومين المتضادين. إن الصراع بين النور والظلمة وبين آهورا وأهريمن قائم على قدم وساق في دائرة العالم الصغير (الإنسان) وليس في العالم الكبير (الكون).

الشيطان ليس ندّاً لله بل عبدٌ له. والواقع أنه ندٌّ للإنسان، ندٌّ لعبد الله، وليس لله نفسه. والإنسان يشعر دائماً أنه واقع تحت تأثير قوتين تتجاذبانه معاً؛ إحداهما تدعوه ليرتقي نحو القمة حيث الحرية والكمال والإشراف على كل شيء والبصيرة والخير والجمال، والأخرى تجرّه نحو الراحة والدعة والاستقرار والتوقف بل التراجع والانحدار نحو الهاوية الظلماء وأودية الجهل والنسيان. القوة الأولى تدعو الإنسان وتحثّه، والثانية تسحبه وتجرّه، الأولى نحو القمة والثانية نحو القعر، والصعود والارتقاء أشقّ دائماً من النزول والانحدار. إن الطبع الإنساني أوفق بالنزول منه بالصعود لأن الأول يتم بسرعة ودون مشقة. . .

الإنسان هو الذي يتعين عليه أن يجرّ نفسه إذا كان يسير نحو الأعلى بينما النزول لا يكلّفه شيئاً من ذلك فإنه يُجرّ إلى الأسفل ولا يحتاج لأن يجرّ نفسه! ناهيك عن أن لنا أنساً بالوادي ومعرفة مسبقة فقد كنا فيما مضى فيه - كأغلب الناس -، أما القمة فلم نرها بعد ولم نألفها، وكلّما اقتربنا منها نبتعد عن الجمع الغفير، ويتضاءل عدد رفاقنا في السفر، ونبقى لوحدنا خطوة بعد أخرى. الطريق نحو القمة تعترضه معوقات وعراقيل شتى؛ ألم وعذاب ومشقة، نفسية وجسدية، وحشة ووحدة وانعزال، وتقطيع أواصر وصلات وقمع للشهوات وكبت للّذات واستعداد لشتى صنوف البلاء. والإنسان يتأرجح بين تأثير هاتين القوتين العليا والسفلى، وهو على سفح الجبل في منتصف الطريق بين الوادي والقمة. لقد صنع الإنسان من التضادّ والتناقض، وتلك حقيقة لم تخف على أصحاب أي مذهب ديني أو فلسفي في أي عصر أو مصر. وعلى أساس هذا التناقض والتضادّ شيّدت مجمل المدارس والمذاهب الأخلاقية التي عرفها الإنسان في طول التاريخ وعرضه.

ولقد بيّن القرآن هذا التناقض في وجود الإنسان في مشهد أخّاذ يصف فيه بعمق قصة خلق آدم، ويسلّط الضوء على حقيقة هاتين القوتين الجاذبتين والعاملين المحرّكين اللذين يسوقان الإنسان في اتجاهين متخالفين بالمرّة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. . . قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٣).

وكما يظهر من التأمل في الآيات القرآنية فإن فلسفة الخلقة تنطوي على الجوانب التالية:

١- المساواة بين كل الأعراق البشرية وذلك لرجوع الجميع إلى أسرة واحدة وأبوين مشتركين.

٢- المساواة بين الرجل والمرأة، لاتحادهما في الإنسانيّة

---

(١) الحجر: ٢٦ - ٢٩.
(٢) البقرة: ٣٠ - ٣٤.
(٣) الأعراف: ١٢.

واشتراكهما في المنشأ والطينة.

٣- أن جذور الإنسان ترجع إلى المادة وإلى التراب على وجه التحديد، وقد بيّنت هذه الحقيقة على نحو غير قابل للتأويل من قبل أكثر الناس سفسطة وجدلاً.

٤- أفضلية الملائكة على الإنسان من حيث منشأ الخلقة، وكونها موجودات غير مرئية ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1]. وبالاصطلاح الشائع يعدّ الملائكة جنساً أرقى من الإنسان وهو أدون منها.

٥- ومع الأفضلية العرقية للملائكة على الإنسان، فإنّ الله يأمرها بالسجود أمامه، وهكذا يتعين على أحفاد النار الخضوع والانقياد والتسليم لهذا الموجود المخلوق من طينة يابسة متعفنة (حمأ مسنون).

وقضية التمييز العنصري وإن كانت منتفية موضوعاً في المنظار القرآني بالنسبة لبني البشر، ولكن يُستوحى من هذه القصة أن هذه القضية حتى لو كان لها تحقق في وسط آخر فهي قضية اعتبارية لا أصالة لها، والشاهد على ذلك أن الأرجحية العنصرية للملائكة

(١) الرحمن: ١٥.

ومنهم الشيطان، حيال الإنسان، تعدّ حقيقة متسالماً عليها من قبل جميع الأطراف (الله وإبليس والإنسان)، ومع ذلك فهي لا تصلح هنا كمعيار للأفضلية والتقديم على الآخرين، ولم يكن الاستدلال بها لذلك إلا محاولة بائسة من إبليس، وهو استدلال (إبليسي) بالمعنى الحقيقي والمجازي للكلمة. والواقع أن الأساس الذي استند إليه إبليس صحيح في حدّ ذاته - وإن كان البناء الذي شيّده خطأ - إذ التفوق العنصري للملائكة على الإنسان مما لا مجال لإنكاره، فليس من شأن إبليس أن يستند إلى قضية ليس لها واقع موضوعي أصلاً، فذلك منطق مريض، وهو خاص بالنازيين والفاشيين والصهاينة والبيض في أمريكا وأشخاص من قبل أرنست رينان[١] وإيان دوغلاس سميث[٢] وسادات قريش وسلاطين بني أمية والمتشدّقين بمقولة (الفنّ عند الإيرانيين وحسب)!

---

(١) (١٨٢٣ - ١٨٩٢) مؤرخ وفيلسوف فرنسي عانى أزمة إيمان، ذو نزعة عقلانية ويؤمن بالعلم، كتابه الأشهر (حياة يسوع).

(٢) سياسي روديسي، رئيس الوزراء عام (١٩٦٤-١٩٧٩)، أعلن عام ١٩٦٥ استقلال روديسيا من طرف واحد على أساس حكم الأقلية البيضاء، شجب العالم كلّه سياسته العنصرية. فقد منصبه العام ١٩٧٩ م بعد تولّي الحكم من قبل الأكثرية السوداء.

٧- والتساؤل الأهم هنا: لمإذا توجّب على الملائكة أن تعبد الإنسان المخلوق من الطين؟ ولماذا لم يستثن من هذا الأمر الإلهي حتى الملائكة المقربون، ولماذا سجد كلهم أجمعون؟!

بالتأمل في تفاصيل قصة خلق الإنسان الواردة في القرآن وتعجّب الملائكة من الأمر بالسجود لآدم، والجواب الذي جاءهم من الحضرة الإلهية لإقناعهم بذلك وإثبات فضيلة هذه الطينة التي دبّت فيها الحياة توّاً، يمكن الخروج بالتصور التالي حول فضائل الإنسان:

أ - أن الله قرر خلق الإنسان على أثر اتخاذه قراراً بتعيين خليفة في الأرض: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾.

ب. مع أن الله اختار طينة حقيرة ليصنع منها بدن الإنسان، ولكنّه بعد ذلك نفخ فيها من روحه ﴿فلّما سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾.

جـ. علم آدم الأسماء كلّها، وهكذا وعى الإنسان كل المعاني والمضامين، ثم عرضت هذه المعاني على الملائكة وطلب منها تسميتها فلم تقدر، ثم توجه إلى آدم وطلب منه إخبار الملائكة بالأسماء.

ما هي تلك الأسماء؟ وما هي تلك المعاني؟ هل المقصود جميع الحقائق الموجودة في عالم الوجود؟ وهل المراد من تعليم (الأسماء) تعليم الحقائق عبر تعلّم أسمائها؟!

ليس من اليسير الإجابة على هذه التساؤلات ولا هنا مجال الخوض في ذلك. ولنفترض أن هذه (الأسماء) رموز للحقائق والعلوم الأخرى. بيد أن من المسلّم هنا أن الحديث يجري عن التعلم والتعليم، والاستعداد الموجود لدى الإنسان في فهم الحقائق واستلهام المعارف؛ الأمر الذي تفتقر إليه الملائكة، وهذا لعمري هو معيار الأفضلية والترجيح لآدم على الملائكة.

د. والبعد الآخر الذي يؤكد أفضلية الإنسان على سائر الموجودات، قوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١][٢].

لا نعلم بالضبط ما هي هذه الأمانة؟ ولكن من الواضح أنها ثقيلة جداً بحيث تمتنع السماوات والأرضون والجبال عن

---

(١) الأحزاب : ٧٢ .

(٢) لعل هذا البيت المعروف من حافظ الشيرازي ترجمة للآية:

أبت السماء حمل الأمانة ..... فوقعت عليّ أنا المجنون

قبول مسؤوليتها، ولا ينهض لتحمّلها سوى الإنسان.

وأعتقد أن أصحّ وأعمق معنى فسّرت به هذه الأمانة هو (الحرية والاختيار). وهو الصفة الوحيدة التي ينفرد بها الإنسان دون غيره من المخلوقات وهي الأمانة الثقيلة التي أشفقت الأرض والجبال والسماء أن يحملنها وحملها الإنسان. فعن الحرية والاختيار فقط، ينجم الشعور بالمسؤولية، والمسؤولية هذه هي التي تضع الإنسان في أحلك الظروف وأحرج المواقف أمام قضايا المجتمع والحياة و(أنا) والآخرين، وإلى هذا المعنى بالذات يُشير ذيل الآية ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾.

الشاعر مولوي من الذين فسّروا الأمانة بالإرادة والاختيار، وحاول أن يبيّن كيف أن الإنسان يقاسي دائماً من وطأة الاختيار - شعر بذلك أم لم يشعر - وهو دائماً بصدد الهروب عن مواجهة هذا الامتحان، وحيث لا يجد مناصاً من ذلك يلجا إلى تجاهله وتناسيه عبر احتساء الخمرة أو الخوض في الملاهي وصناعة آلات اللهو والتسلية، وذلك لكي يخادع شعوره بالمسؤولية ويتفادى العمل بمقتضى الاختيار.

الإنسان هو الوحيد الذي يتمتع بخصلة الاختيار من بين سائر الموجودات وهو يحاكي الله في هذه الصفة، ولا أقول يماثله فيها بالشكل والمقدار. ولعلّ الشيء الذي نفخه الله من روحه في هيكل الإنسان هو تلك الإرادة والحرية والاختيار.

وهذا يعني أن الإنسان هو الوحيد الذي بوسعه أن ينتخب ويقرّر ويختار؛ الخير من الشر، الهداية من الضلال، الصعود من الانحدار، الصلاح من الفساد. وفي الإنسان وحده تكون المسافة أحياناً بين فرد منه وفرد آخر منه أيضاً أكبر من المسافة بين قدرين من نوعين مختلفين. الفرق بين الفرس الجيد والفرس الرديء - مهما كان - يبقى محدوداً، وتبقى لكل منهما قيمة. أما النوع الإنساني فأمره مختلف فأحد فرديه (نيرون) الذي يحرق مدينة كبيرة كروما بالنار لكي يتأمل بمنظرها الجميل وهي تحترق بأهلها ويتمكن أن يرسم لها صورة وهي على تلك الحال.

والفرد الآخر منه (معين) البوذي الذي يلقي نفسه بالنار لكي ينقذ مدينة بأسرها من خطر الاحتراق. هل بوسع أحد تصوّر المسافة بين هذين الفردين؟!

وإبليس أيضاً يضرب ضربته هنا ويلعب دوره القذر؛ فلو لم يكن للإنسان حرية واختيار، لشلّت يدا إبليس ولم يكن قادراً على الإغواء والإضلال وسوق الناس نحو الانحراف والعصيان.

وفي ضوء ذلك، لنستوحي من فلسفة خلقة الإنسان على ما ورد في القرآن - النقاط التالية:

أولاً: أن طبيعة الإنسان مكونة من عنصر قذر ومهين، من طينة نتنة، رسوبية - مكونة من الشوائب المترسبة في قعر نهر جار - (صلصال كالفخار، من حمأ

مسنون). فهو إذن حقير بالطبع وميّال إلى الرسوب والتخلّف والانحدار إلى القعر.

ثانياً : بالرغم من هذه الطبيعة المنحطّة لهيكل الإنسان فهو يشتمل في باطنه على جوهر خالص هو روح الله التي نفخت فيه، وهو خليفة الله في الأرض وقد علّمه من الأسرار ما تعجز عن إدراكه الملائكة!

ثالثاً : إنه مختار؛ قادر على تمييز الخير من الشر والخدمة من الخيانة والصلاح من الفساد، واختيار الأصلح من بين الاثنين، وهو الموجود الوحيد - مما سوى الله - لديه إرادة وبالتالي مسؤولية والتزام.

فالإنسان - بالمنظار القرآني - قائم على التناقض؛ قوتان متضادتان تتجاذبان باتجاهين مختلفين؛ إحداهما نحو القعر الرسوبي للحياة والأخرى نحو القمة التي سجدت له فيها الملائكة أجمعون. المهم أن الإنسان الواقع دائماً تحت تأثير هاتين القوتين والمواجه أبداً لمفترق طريقين، قادر على الاختيار؛ بانتخاب أحد الطريقين، ومن هنا تنبثق المسؤولية، وعلى رأس هذا المفترق يقف إبليس بكامل قواه حذراً يقظاً لا يغفل عن صاحبه طرفة عين.

هذه هي (الثنوية الإنسانيّة)، الثنوية الوحيدة التي يعترف بها الإنسان كحقيقة واقعية، لكنّها ثنوية منحصرة في إطار عالم

الإنسان وروحه ونظام خلقته.

لا وجود للثنوية الإسلامية (إبليس - الله) خارج حدود الدائرة الإنسانيّة، وذلك على خلاف الثنوية الزردشتية والمانوية المسترسلة في كل أنحاء الوجود. ثنوية (إبليس - الله) لا توجد إلا في إطار الإنسان، بل هي الإنسان بعينه، الإنسان مؤلف من هذين القطبين، وهما دوماً في حالة تنازع وصراع في دائرة وجوده، وهو قادر - بموهبة الإرادة والاختيار - أن ينتخب أحد الاثنين، وله أن يتحالف مع أحد الإقنومين المتنافسين عليه: الاقنوم الرباني والاقنوم الشيطاني، ويختار أحدهما على الآخر. ومن الواضح جداً أن هذه الثنوية، الإنسانيّة لا الكونية، الأخلاقية لا الفلسفية، لا تتنافى مع وحدة الخلقة التي هي من لوازم التوحيد، إذ لو نظرنا من نافذة الإسلام إلى واقع القضية، فلن نرى أهريمن متحدياً لآهورا مزدا، سوف نراه متحدياً للإنسان!

الكون، امبراطورية مترامية الأطراف يحكمها امبراطور مقتدر، لا ندّ له ولا شريك، وفي ناحية من تلك الامبراطورية، كائن موجود نصفه من الله ونصفه الآخر من الشيطان، وفي داخله حرب مستعرة على الدوام، والمصير الذي في انتظاره يتوقف على نوع الجبهة التي سيميل إليها في خضمّ الصراع.

القسم الثاني

من هو محمد ؟

كان رسول الله يأكل أكل العبد
ويجلس جلوس العبد ويعلم أنه عبد
(الإمام الصادق)

بطل نهضة الإسلام ورمزها...

في مبحث (السنة والناس) أشرت إلى دور البطل الرمز في صناعة المجتمع والتاريخ من وجهات نظر مختلفة لدى فلاسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

ثمة جدل فكري واسع حول الدور والمكانة التي يتمتع بها الأبطال في التحولات الجذرية والمنعطفات التاريخية الحاسمة. وقد انقسم علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ إلى فريقين في تقديرهم لهذا الدور. ومن المعلوم ان جميع المفكرين النازيين والفاشيين يرون للرموز والأبطال دوراً مصيرياً في الأحداث التاريخية والتحولات الاجتماعية الكبرى. ومن هذا المنطلق نراهم يرتقون بمقام البطل إلى موقع خاص من القيادة أو الريادة، ويمنحون رجالاً من هذا القبيل طابعاً سوبرمانياً (Super man). ونقول (موقع خاص)، لأن القيادة هنا لا يراد منها معناها الشائع المتداول بل معنى أوسع وأوقع بكثير. فالقائد في هذا النمط من التفكير ليس مجرد رائد أو دليل يتقدم على الباقين في قافلة

المسيرة، بل هو آمر مطلق بيده مصير القوم أجمعين، والآخرون صمّ بكم لا يملكون حياله حق تقرير مصيرهم وليسوا سوى آلات لتنفيذ أوامره، وما من تفاوت في القيمة الإنسانية لأيٍّ منهم، إلاّ بمقدار ما يحسنه كأداة طيّعة بيد القائد المفدّى والحاكم؛ المفروضة طاعته على الإطلاق. فهو الذي يقرر مصير الجميع، هو عقل المجتمع وقلبه وروحه، ومحور حركته والمقود الموجّه لها في مسار التاريخ.

وعدا الفاشيين، هناك من يذهب أيضاً من العلماء والمفكرين الأحرار إلى الإقرار بالدور المصيري للعظماء في صناعة التاريخ. من بين هؤلاء (إمرسون = Emerson)[١] الذي يعدّ الرموز والعظماء مندوبين عن النوع البشري وممثلين عن الإنسانية (Les Represent ants de la humanity)، وأنهم هم الذين يجسّدون القدرات الخارقة للإنسانية فيطبقونها عينيّاً (مذهب الـ Transcendantalisme[٢] الذي وضع حجره الأساس بنفسه).

يقول إمرسون (التاريخ لا وجود له، الموجود هم

(١) ١٨٠٣ - ١٨٨٢ Ralph Waldo (Emerson)، فيلسوف أمريكي وأحد أعلام الذي فلسفة التعالي في بوسطن بأمريكا.

(٢) دعوة لفلسفة متعالية أنشأها جماعة من الفلاسفة المثاليين الامريكيين في بوسطن عام ١٨٣٦م، من بينهم امرسون.

الرجال فحسب)[١].

فيما يذهب الكاتب الإنجليزي الكبير توماس كارلايل (Tomas Carlyle) - مؤرخ وناقد في القرن الثامن عشر[٢] - إلى القول: (التاريخ الحقيقي هو علم الرجال لا غير)[٣].

وإيضاحاً للانطباع الذي يحمله كارلايل حول دور الرمز والبطل في التاريخ، أقتصر على إيراد المثال التالي من كتاب (البطل وعبادة الأبطال) حول دور شخصية محمد وعليّ في النهضة الإسلامية وتاريخ الإنسانية، يقول: (الكف الصغيرة التي ضمّتها في تلك اللحظة كفّ أكبر - ميثاق محمد وعليّ - هي التي غيّرت مجرى التاريخ).

وعلى خلاف هؤلاء المفكرين المولعين بالبطل والرمز بالمعنى الفلسفي والعلمي للاصطلاح والمعبِّر عن توجه فكري

(١) كتاب (Essays)، الرجال هنا بمعناها الاصطلاحي في ثقافتنا أي التراجم والبيوغرافيا. وهي بهذا المعنى مخفف علم الرجال، وقد اخترت هذا التعبير نظراً لملاءمته لهدف الكاتب من الجملة.

(٢) مؤلف الكتاب المعروف (الأبطال وعبادة الأبطال) والذي ترجم منه من العربية الى الفارسية القسم المتعلق بسيرة محمد تحت عنوان (زندكاني محمد) وأضاف اليه المرحوم واعظ جرندابي من العلماء المستنيرين في محافظة اذربيجان مقدمة وهوامش مفيدة.

(٣) ينقل ذلك البروفيسور آرون (Aron.R) استاذ علم الاجتماع في السوربون عن كتاب الثورة الفرنسية (French revolution).

جدير بالدراسة، وليس بمعناه السياسي والأخلاقي الكاشف عن نوع انحطاط في المنزلة الإنسانية ووجود نزعة ذليلة تواقة للاستعباد، أقول: على خلاف هؤلاء، يصرّ فريق من أنصار الديمقراطية والاشتراكية، والماركسيون على وجه الخصوص، على التقليل من مكانة الرمز والبطل، ودوره في التأثير على المجتمع والتاريخ، وذلك لصالح القول بأن الأصالة للمجتمع لا للأفراد، وأن التاريخ يسير بموجب قوانين علمية موجودة في المجتمعات، وليس بوسع الأفراد تغيير هذه القوانين أو تجييرها لصالح أحد. وبالتالي فإن هذا الفريق من المفكرين نافح وناهض الأمراض والأزمات الاجتماعية التي من شأنها الترويج لعبادة الأشخاص والرموز، والتمهيد لظهور الديكتاتوريات الفردية وتضعيف دور الأمم والشعوب[*].

أما أنا - وكما صرّحت في بحث السنة والناس - فلا أتفق مع إمرسون وكارليل وافلاطون[١] في اعتبار الأبطال صانعين

(*) يراجع كتاب (دور الشخصية في التاريخ) لمؤلفه بلخانوف.

(١) افلاطون الفيلسوف المعروف يعدّ من هذا الاتجاه أيضاً، فهو يعتقد ان المجتمع مثل قطيع غنم ولابد له من راع! ... ان مصطلح الراعي والقطيع شائع الاستخدام خاصة في القاموس السياسي الشرقي، وهو يعكس بدقة جوهر الحكم والسياسة القائمة في الشرق وفق الاعتبارات التالية:

أ- الراعي من جنس والقطيع من جنس آخر.

ب- ليس للقطيع دور في انتخاب الراعي بل يختاره المالك، والمالك هنا هو =

للتاريخ، ولا أتفق أيضاً مع الفريق المقابل من الاشتراكيين والديمقراطيين وأنصار الماركسية العلمية في إنكار دور الأبطال بالمرّة، إنما أعتبر التاريخ مزيجاً مركباً من (السنّة والناس

= الله (وفي ذلك ايحاء بدينية الحكومة الشرقية).

جـ- ليس للقطيع حق الاعتراض او النقد او ابداء الرأي فضلاً عن عزل الراعي ونصبه.

د- الراعي غير مسؤول أمام القطيع، انما هو مسؤول امام المالك فقط (الله هنا).

هـ - تدرك القطيع أفضلية جنس الراعي بالنسبة لجنسها ولا تشك في ذلك.

و- الطاعة العمياء للراعي معقولة ومبررة لأنها بحكم ناموس الخلقة .

ز- الراعي لا يكون ملزماً باستحصال رضا القطيع في طريقة الادارة والحكم فإن ذلك ليس ممكناً ولا مجدياً.

حـ- الأدهى من ذلك هو الهدف النهائي من الرعي وتربية القطيع!

وهكذا نرى ان هاتين الكلمتين (الراعي والقطيع) تنطويان على كل مبادئ الحكم والسياسة في الشرق وكذلك الهدف المنشود من تعامل الحكومة مع الشعب وليس من الصدفة المحضة ان يكون تسمية فن الحكومة وادارة الشعب - في الشرق- بالسياسة، كما انه ليس مصادفة ان يسمى هذا الفن في اليونان مهد الديمقراطية بـPolitic اشتقاقاً من لفظة Police وتعني المدينة.

فكما ان تمام خصائص الرعي مختزنة في كلمة السياسة كذلك هدفها واساليبها التطبيقية، اذ السياسة في اللغة بمعنى ارعاب الخيل لترويضها لأن الخيل بطبعها خاصة ما كان منها في مقتبل العمر تنزع نحو التمرد وعدم الانقياد بسهولة ولابد من ضربها وتأديبها لكي تتروض وتصبح (جياداً)!

من خلال هذين المصطلحين يتجلى الفرق الجوهري بين الحضارة الشرقية والحضارة اليونانية ورؤية كل منهما لمسألة الحكومة، فهي عند اليونانيين وظيفة لخدمة الناس وفي الشرق فرصة لاستخدامهم!

والصدفة والبطل)، وأن بين هذه العناصر الأربعة روابط ومعادلات معقدة، يتحتّم على علم التاريخ تشخيصها وتحليلها كمّاً ونوعاً، وأرى أن تلك هي مهمة المؤرخ الأساسية، وهي دون شك مهمة شاقة وعسيرة.

ولابدّ أن تضمّ إلى هذه الفرضية النقطتان التالبتان:

الأولى : أن العناصر الأربعة المذكورة لا تتحد بالضرورة في درجة تأثيرها في إيجاد تحول اجتماعي أو حركة تاريخية، بل يتفاوت هذا الدور لكل من هذه العناصر من حالة لأخرى تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال.

وللإيضاح نقول: إن دور الصدفة والبطل يتضاءل كثيراً في المجتمعات المغلقة - كما يسمّيها برغسون - وهي المجتمعات الدينية القديمة التي تتصلّب فيها السنن(*) والتقاليد والأعراف الاجتماعية نظراً لامتزاجها وتشابكها مع الدين، ويصبح من الصعب جداً تغييرها.

(الناس) في هذا النوع من المجتمعات تابعون منقادون للسنن إلى درجة لا يستطيعون معها الحفاظ على استقلالية شخصيتهم أو لعب دور حيوي فاعل في التحولات الاجتماعية.

(*) المراد من السنن هنا معناها الشائع أي الأعراف الاجتماعية لا القوانين العلمية التي تحكم المجتمع.

في وضع كهذا، ينقاد الرموز والأبطال لتلك السنن، ويصبح قصارى جهدهم افتعال الوقائع والأحداث. ربما يكونون قادرين على ارتكاب مجزرة أو تجريد حملة على بلد مجاور أو إجراء إصلاحات سطحية، أو حتى تغيير بعض المظاهر. لكن كل هذه الجهود لا يمكن أن ترقى إلى مستوى التأثير على السنن الاجتماعية والبنى التحتية للمجتمع ومكوناته الرئيسية[١]. وبعبارة أدق، قد يكون بوسع هؤلاء تغيير الوحدات والمؤسسات (Organisations) وأما النظم والتركيب العام للمجتمع (Structure) فيبقى بمأمن عن أن تطاله يد التغيير.

ونفس الشيء يقال بالنسبة لعامل الصدفة، ففي المجتمعات المتفككة طبقياً ودينياً وعلاقاتياً، والتي تعصف بها الأزمات وتهدد كيانها العام، قد يتمكن عامل الصدفة من لعب دور حاسم في المسارات العامة للمجتمع تبعاً لنوع الصدفة ودرجة فاعليتها. وفي المجتمع الإيراني - مثلاً - تعدّ حملات الاسكندر والعرب والمغول والغزنويين نماذج بارزة لتأثير عامل الصدفة بقوة، حيث تعتبر هذه الحملات حوادث مفاجئة داهمت المجتمع الإيراني من الخارج دون أن يكون للوضع الداخلي يدٌ مؤثرة فيها.

---

(١) المكوّنات (Institutions) على صنفين: المكونات الرئيسية كالاسرة والحكومة والمالكية والدين، والمكونات الفرعية كالمؤسسات الاجتماعية والبنوك ونحوها.

جحافل الاسكندر والغزنويون والمغول استغلوا ضعف الحكومة في إيران وداهموا البلد بمنتهى القسوة والوحشية، غير أن الدعائم الأساسية للمجتمع آنذاك كانت راسخة ومستحكمة، ولم تكن السنن والأعراف الاجتماعية الإيرانية تعاني من ضعف وتخلخل وانهيار. ومن هنا لم يستطع الاسكندر التوغل في نسيج المجتمع الإيراني وحلحلة أركانه الأساسية وتقويض بناه التحتية رغم أنه كان مجهزاً برصيد فكري فلسفي غني وعميق، بغنى أثينا وعمق حضارة اليونان. كما لم يستطع الغزنويون أو المغول تحقيق ذلك رغم قدراتهم التدميرية الرهيبة، بل التاريخ يشهد بخلاف ذلك، وأن هذه القوى المعادية الثلاث سرعان ما اضمحلت وذابت وتلاشت في النسيج الروحي القوي[١] للمجتمع الإيراني، وتأرننت هي دون العكس. فالاسكندر الذي دخل إيران من حدودها الغربية يختلف كثيراً عن الاسكندر الذي كان يتطلع إلى غزو الهند من الحدود الشرقية لإيران. فالأول كان شاباً حازماً شديد البأس قويّ العزم، شديد التعلّق بموطنه الأصلي اليونان، ذا منحى فلسفي في التفكير، سعى من خلاله إلى ترويج الفكر الأثيني في الشرق، أما الآن وعلى حدود إيران

(١) مع ان الكثيرين شاطروا ارسطو الرأي بـ (أن الايرانيين أذكياء ولكنهم سرعان ما يستسلمون للقوة)، إلاّ ان التاريخ يشهد بأن الروح الايرانية الكبيرة تتوفر على قابلية فريدة في هضم العدوّ واحتوائه.

الشرقية فنحن نواجه اسكندراً آخر بمواصفات مغايرة تماماً، فالرجل الآن بات إنساناً مغروراً قاسياً أنانياً منغمساً باللذات . . . . لم يعد شاباً يونانياً حكيماً بل امبراطوراً شرقياً، لم يعد تلميذاً لأرسطو بل مقلّداً لـ(خشايار شاه)[*].

أما الغزو العربي فقد كان عاملاً صدفويّاً بالنسبة لإيران، إلاّ أن هناك أموراً ومواصفات جعلته أهم الأحداث حسماً وتأثيراً في التاريخ الإيراني بحيث غيّر معالم المجتمع الإيراني وقلبها رأساً على عقب، وبدّل الكثير من الأسس التي يقوم عليها.

ومن هذه الأمور والمواصفات أن المجتمع الإيراني كان يعاني آنذاك من أزمات حادّة وضعف شديد في أسباب الديمومة والبقاء، وسرعان ما انهار بالتالي أمام هذا التحدي (الصدفوي) المفاجئ.

ومن هذه الأمور أن هذا التحدي الصدفويّ وعلى خلاف التحديات الثلاثة الأخرى، كان يتوفر على قاعدة فكرية وأيديولوجية ثورية هادفة[١]، وكما نعلم فإن هذا التصادف،

(*) ملك ايراني معروف بظلمه.

(١) ان التدهور والانحطاط المعنوي للدين الزردشتي نجم عنه فراغ فكري كبير في المجتمع الايراني، وان ظهور الديانة المانوية والمزدكية في زمن الساسانيين وتغلغل المسيحية بشكل سافر في ايران برغم المعارضة الشديدة التي كانت تلقاها المسيحية من قبل الحكومة الساسانية باعتبارها الدين الرسمي للعدو التقليدي لهم =

الذي لم يكن سوى عزم عمر على فتح إيران وهزيمة رستم في حربه أمام الجيش العربي، يعدّ العامل الأكثر حسماً على صعيد الدور المستقبلي لإيران آنذاك، والذي أسفرت عنه تحولات جذريّة كان لها تأثير مباشر في تغيير ملامح الهوية الإيرانية ومعالم وأركان الحياة الاجتماعية للإيرانيين.

إن معرفتنا الدقيقة نسبياً بطبيعة هذه العوامل الأربعة - الناس والسنة والصدفة والرمز - ومدى تأثيرها في المجتمعات المختلفة خاصة الآسيوية والأفريقية والأوروبية التي كان لها ارتباط واحتكاك مباشر بالإسلام في القرنين السادس والسابع الميلاديين، وكذلك وجود تصور واضح لدينا عن تاريخ حياة النبي وشخصيته، من شأنه أن يتيح لنا قدرة جيدة على تقييم دور هذه الشخصية في نشر الإسلام وتغيير وجهة التاريخ الإنساني.

لو كان محمد قد انطلق في نهضته التغييرية في غضون القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، وحقق هذه المنجزات العظيمة في مجتمعات متحضرة كاليونان والرومان وبلاد فارس، لكان من الطبيعي أن نتردد في الاعتقاد بأن شخصية محمد كانت

= (الامبراطورية الرومانية)، كلها أدلة وشواهد على مدى تطلع المجتمع الايراني آنذاك لشحنة معنوية وايمانية جديدة. وقد زاد من وخامة الوضع حالة الاضطراب السياسي والصراع الطبقي وظلم السلطات والكبت الجماهيري، الأمر الذي عبّد الطريق لمجيء الاسلام وصيرورته بلسماً لهذه الجراح.

عاملاً مصيرياً حاسماً (determinat) في تحقيق تلك الانتصارات الباهرة وتغيير مسار التاريخ، وكنا سنتحرى في ضوء ذلك عن عوامل أخرى مضاهية له أو فائقة عليه في القوة والتأثير.

ولكن ليس بوسع أي مؤرخ أو عالم اجتماع أن يقدم تفسيراً علمياً اجتماعياً لما حصل في أوائل القرن السابع الميلادي على رمال الحجاز الحارقة من انفجار بركاني مهيب وتحول عظيم ودفعيّ على كافة الأصعدة فكريةً ودينية واجتماعية وسياسية وإنسانية وأخلاقية، وفي أوساط قبلية نصف متوحشة، لتنبثق عنه إشعاعات حضارية غمرت العالم القديم بأسره وفي جميع آفاقه الحضارية.

من المؤكد، أني لا أعني هنا هزيمة الفرس أو روما الشرقية أمام العرب، وذلك أن سقوط الحضارات العريقة وانهيارها أمام جحافل الغزو القبلي المتوحش، حكاية طالما كررها التاريخ.

وقد تمكن الهجوم البربري من الاستيلاء على معظم أوربا الغربية وقضم أطراف الامبراطورية الرومانية العظمى للفترة بين القرن الثالث إلى السادس الميلادي. وقبل ذلك تمكن الآشوريون من الهيمنة على معاقل الحضارة في وادي الرافدين في غضون الألف الثانية قبل الميلاد، ومن هذا القبيل أيضاً الهجوم المغولي والغزنوي على الحواضر الإيرانية.

ولو كان محمد قد تمكّن - فحسب - من توحيد القبائل العربية الوحشية والمتفرقة، وإيجاد قوة عظيمة استطاعت في غضون عشرين عاماً فقط، كسر شوكة أكبر امبراطوريتين آنذاك (الروم والفرس)، لكان يعدّ بذلك محققاً لواحد من أكبر الإنجازات التاريخية، ولكنه دون شك سيحسب في عداد رجال أفذاذ كالاسكندر وآشور بانيبال وجنكيزخان وأمثالهم، بيد أن اللافت للنظر هنا أن هذه الفتوحات العسكرية ظلّت على الدوام هي الأقل جاذبيّة بالنسبة لسائر منجزات محمد، ومن هنا نرى بقدر ما يستدعي خطور أسماء أخرى عظيمة هي موسى وعيسى وبوذا وزردشت وسقراط، على ما بين محمد وهؤلاء من فارق كبير جداً.

معرفة محمد

الآن نعرف محمداً في المدينة، بعد أن واكبنا سيرته فيها على مدى عشرة أعوام من الجدّ والسعي والمثابرة، وتعرّفنا على قدراته الخارقة في القيادة وقابلياته المذهلة على الصعيد العسكري ونضجه السياسي ومعرفته الدقيقة بالأعراف والعادات والتقاليد والخصائص الاجتماعية والفردية والعرقية والنفسية لأبناء المجتمع الذي تعايش معه، وكذلك إدراكه العميق لطبيعة البيئة التي أرسى فيها أسس عقيدته السامية. وصار لنا أيضاً إلمام جيد بالانتصارات والنكسات التي واجهها في خط كفاحه، والأهداف التي كان يحملها، والطموحات التي يتطلع إليها من أجل الإنسانية، وأخيراً المؤهلات الفريدة التي تحلّى بها محمد لدى قيامه بالوظائف والمهام المناطة به في الأصعدة شتى خاصة في الظروف العصيبة التي واجهها أواخر حياته.

لقد سعيت هنا أولاً لتدوين سيرة واضحة ومعزّزة بالوثائق والمستندات على نحو ما يقوم به سائر المؤرخين وكتّاب السير،

والشيء الوحيد الذي أبغي قوله هنا أنني نظرت إلى محمد من أقرب فاصلة زمنية ممكنة. لا أزعم أنني رأيته من خلال أبواب المدينة فذلك أمر محال، ولكن من أقرب زاوية يمكن لمؤرخ معاصر أن ينطلق منها في النظر إليه؛ أعني مسافة قرنين من الزمن. وبوسعي أن أقول أن السيرة التي عرضتها على القرّاء الكرام سيرة دوّنت قبل حوالي ألف عام، ولا سبيل إليها مما نسبوا إلى محمد من حق أو باطل وأضافوه إليه. سيرة لم تتأثر بجدل الفرق الثلاث والسبعين التي كان مقرراً لها أن تظهر في أمة محمد، ولم تُطبع بأمزجة الحقب العلمية التي مرّت بها الأمة الإسلامية في غضون ألف عام أعقبت وفاة الرسول. بل حاولت مع ذلك أن أجرّد نفسي من آثار وتبعات رؤيتي المعاصرة، وذلك درس تعلّمته من أستاذي الكبير (Berque.J) الذي كان يحذّرنا دائماً من مغبة محاكمة حقبة زمنية وفق معايير حقبة زمنيّة أخرى، ويوصينا بقوله: (انظروا إلى كل حقبة بالمنظار الخاص بها! . . .)، رغم أني أرى اليوم نماذج كثيرة من الكتابات التي يقاضى فيها الأمس بقوانين اليوم، فيُمسخ وجه الحقائق التاريخية، ويصار إلى إصدار الأحكام وشنّ الهجوم أو الدفاع عنها على نحو يثير القرف ولا يستند إلى أساس.

في الوقت ذاته، حرصت على عدم الاعتماد كليّاً على الأدلة والوثائق الأولى والتي يعود تاريخها إلى ألف عام فاقتصرت عليها في تدوين السيرة فقط، وذلك أني أدرك أن أكثر

هذه الوثائق قدماً إنما دوّنت في عصر طغيان بني أمية وبني العباس، وأنا أعرف جيداً كم وكيف تلاعب سلاطين هذين (البيتين) بمجريات التاريخ حتى تدخّلوا في الدين والعلم ووقائع التاريخ واحداثه، عبر سلاحي الترغيب والترهيب، فيما صنع العباسيون الشيء ذاته بواسطة اللجوء إلى الحيلة والمكر والخداع. أعرف ذلك وأعرف أيضاً أن لا تهديد للعلم، خاصة في حقلي الدين والتاريخ، أشدّ خطورة وتدميراً من السياسة! السياسة المرساة على أساس قبلي والمدعومة بسلاح الدين.

بهذه البصيرة، سعيت لتصوير حياة محمد في المدينة، والتي منها انطلقت رسالته الاجتماعية الكبرى وفيها اختتمت، متوخياً طمأنة القارئ أنني تحرّزت - قدر المستطاع - من الرؤية الأوروبية النخبوية، ومن التعصب الطائفي والميول المذهبية، وأخيراً من الدسائس السياسية الأموية والعباسية التي هيمنت على عقول أكبر المؤرخين ففتنتهم أو جنّدتهم لصالحها، وإن ما تلوته من وقائع وأحداث كان لسان حال (منى) بقلم الطبري وابن إسحق وابن سعد وابن هشام، ولكن بأسلوب معاصر لا يختلف إلا في أمرين: أسلوب البيان، والتحرّر من إغراءات وإغواءات الخليفة البغدادي وغلمانه العرب والعجم. ولكن لابد من الإقرار سلفاً أن المعرفة الدقيقة بشخصية إنسان لا تكون متيسرة بمجرد استعراض وقائع حياته. المعرفة بحقيقة إنسان معين أمر في غاية الصعوبة، ولن أكون مبالغاً جداً لو قلت إنها مستحيلة، ويا

عجبي ممن يستسهلون ذلك!

الناس لا يثقون برأيهم وتشخيصهم في اختيار قطعة سجادة فيلجأون إلى استنطاق رأي خبير بأمور السجّاد! بينما هم في اختيار إنسان لتشكيل حياة زوجية، يكتفون برأي عطّار المحلّة أو أحد المستخدمين في دائرة يعملون فيها أو يعمل فيها الشخص مورد الفحص والسؤال، ويقتصرون في ذلك على معلومات من قبيل العمر والمنصب والمرتّب الشهري والهندام والمظهر الخارجي وربما بسؤال أو سؤالين عن خاله وعمّه ومن يلوذ به، ويعتبرون النتائج الحاصلة عن هذا الاستطلاع كافية لمعرفة روحه وشخصيته!

لاشكّ أن هناك أناساً كثيرين، يكفي لمعرفتهم حق المعرفة، أن تجمع معلومات حول عمرهم ووزنهم وطولهم وشكلهم، فيما توجد نفوس عظيمة لا يرقى إليها الفهم والإدراك بحدوده الطبيعية. ثمة نفوس وأرواح؛ الواحد منها إقليم قائم برأسه، لا يمكن تصويره بدقة الاّ بأن يرسم على النحو الذي ترسم فيه الخرائط في أطلس الجغرافيا. هناك نفوس واسعة سعة السماء سامية سموّها، وأحاسيس ومشاعر تمتدّ امتداد المجرّات. الجميع يزعمون أنهم يرون السماء والمجرّات، ولكن من يقدر على ذلك حقاً؟

يقول الكاتب العربي ذو الاتجاه الداروِيني شبلي شميل

مخاطباً المفكر الإسلامي المعروف رشيد رضا: (محمد في نظري أنا الذي لا أؤمن بالله وبالوحي ولا أقول بنبوته أعظم بكثير من محمد الذي تنظر إليه بعين النبوة)[١] . . كلامٌ حق! فإن العظمة الخارقة في روح محمد ينسبها المسلم إلى الله، بينما يعتبرها المفكر غير المسلم من مزايا محمد وخصائصه الشخصية! وبالتالي فإن من ينظر إليه المسلم بمنظار ﴿إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه﴾، يتجلّى في عيون غير المسلم موجوداً يسمو على الطابع البشري، ومن الواضح أن معرفة هكذا موجود، عزيز المنال بالنسبة لأناس مثلنا لا يفكّرون الاّ بالمعايير الاعتيادية.

أحاول هنا أن أدنو ما استطعت من هذه النفس الكبيرة، فإن الإشراف على قمة جبل عالٍ يناطح السحاب محال على إنسان أرضي، غير أن الجدّ والاجتهاد يمكن أن يوصلا صاحبهما إلى قاعدة الجبل فيستشعر بنفسه صلابة الجبل وعظمته وثقله على كاهله، وهذه بحدّ ذاتها مهمة عالية يمكن القيام بها.

الواقع أن حياة محمد تصنف على ثلاث مراحل؛ الأولى

---

(١) نص الرسالة : الى غزالي زمانه، السيد محمد رشيد رضاصاحب مجلة المنار: انت تنظر الى محمد كنبيّ وتكبره، وانا رغم كوني وإياك على طرفي نقيض، غير ان سعة العقل وصدق الحديث يقربنا الى بعض وهذا أمتن اواصر الصداقة) . . . يراجع كتاب (فايده ولزوم دين) لمحمد تقي شريعتي (والد المؤلف).

من الميلاد إلى البعثة (٥٧٠-٦١٠) والثانية من البعثة للهجرة (إسلام مكة ٦١٠-٦٢٢) والثالثة من الهجرة إلى الوفاة (٦٢٢-٦٣٢م)، وقد استعرضنا حياته بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب، وهو الفصل الذي تجلّت عظمة محمد فيه، وفيه أيضاً حقق رسالته الخطيرة. وبعد أن رأى القارئ محمداً وعرفه وهو في المدينة، يتطلع إلى أن يعرف من يكون الرجل، أين ولد وكيف نشأ وتربى وترعرع وما هي سيرته. هاهنا يتعطش الإنسان للتعرف على الرجل الذي عاش حياة عجيبة في هذه السنوات العشر.

أحاول هنا أن أتوخى الاجابة بشفافية عن بعض التساؤلات، ورسم الصورة المنتقشة في مخيلتي فيما يرتبط بحياته.

والنقطة الأخرى التي تجدر الإشارة إليها، أنكم إذا وجدتم في الصورة التي أرسمها لكم لوناً غريباً أو خطاً ناشزاً أو شعرتم أن هذه الصورة لا تنسجم كثيراً مع ما يرسمه الآخرون، فلكم الخيار في اعتباري رساماً غير ماهر أو التشكيك بما رسمه الآخرون، ولكن مهما يكن من أمر، فإني، وخلافاً للمعتاد، لم ألتزم بالنمط الذي سلكه الآخرون في تصوير الشمائل المعروفة لنبي الإسلام، بل حاولت أن أتناساها بالكامل، ومن ثم أبادر إلى رسم صورة للنبي، تماماً كما يلجأ الرسام إلى إبداع صورة لشخصية معينة للمرة الأولى وفي ضوء المعلومات المستجمعة لديه عن سمات

تلك الشخصية وخصائصها، وعلى اساس ما ينقله له من عرفوا تلك الشخصية وواكبوا حياتها عن كثب. ومن الواضح أن صورة كهذه لن تتطابق بالضرورة مع ما يرسمه (آخر) ويقلّده فيه (آخرون)، خاصة وأنني أزعم هنا أني سأمسك فرشاة الرسم بيد مؤرخ عارف بالإنسان وليس بيد مسلم عارف بالنبي، فإن الروعة تتجسّد في جمالية الصورة في نظر العالم لا في نظر العاشق.

من حيث الانتماء الأسري، كان محمد من النبلاء؛ قبيلته قريش، تعدّ أشهر وأعزّ وأمنع قبائل العرب في الحجاز، تتمتع من الناحية التجارية بموقع إستراتيجي حساس في شبه جزيرة العرب، وهو من بطن بني هاشم الذين أضفى عليهم انتماؤهم للكعبة مزيداً من الهيبة والقداسة والاحترام.

محمد كان يتيماً، محروماً من نعمة رب الأسرة وحنان الأب، فقد توفي أبوه قبيل ولادته، ألا يكون لهذا الحرمان دور إيجابي في النضج والتكامل الحرّ لشخصيته؟[١]

---

(١) ربيع عام ١٩٥٣م أخضعت مجموعة مكونة من مائة شخص راغبين بالاختصاص في مجال الإدارة والمسؤولية، إلى اختبار في جامعة كاليفورنيا على مدى ثلاثة أيام، وقد تم تصنيفهم إلى فئتين؛ فئة مراقبة وفئة اختبار، وكان على الفئة الأولى أن تجيب على جملة استفسارات وأسئلة مختلفة على نحو مستقل ودون الاستعانة بآخرين، فيما ينبغي للفئة الثانية أن تقدم إجاباتها في ضوء رأي الأكثرية (وهي أكثرية يخلقها نفس المشرفين على الاختبار على نحو متعمد ومقصود). وقد أسفرت نتائج الاختبار عن معدّلات انقياد وتأثر تتراوح ما بين (١) و (١٧) من=

ثمة قاسمان مشتركان في سيرة حياة الشخصيات الفذة تاريخياً ممن لعبوا دوراً تغييرياً عميقاً على صعيد المجتمع أو العصر الذي يعيشون فيه: القاسم المشترك الأول أنهم لم يكونوا أزواجاً جيدين (على الأقل في نظر زوجاتهم) والثاني أنهم لم يكونوا أبناء جيدين (على الأقل في نظر آبائهم).

الرجال الذين نافحوا الزمن ونازلوا التاريخ لم يكونوا قادرين بالطبع على النزول إلى المستوى الذي يلبّي الطلبات المادية لزوجاتهم اللاتي كنّ في الغالب نساءً عاديات جداً يعشن في عالم آخر ويحملن نزعات مختلفة، خاصة في القرون التي كانت فيها المرأة أكثر انحطاطاً من الرجل. كيف يسع المرء أن يتصور سقراط على النحو الذي يدور في خلد امرأة من أهالي أثينا إبان القرن الرابع قبل الميلاد، تريد من زوجها أن يكرس جزءاً مهماً من وقته لتزيين نفسه (نفسه كما تفهمها هي لا كما يفهمها سقراط). وفي ضوء ذلك يتوجب عليه أن يهتم بمظهره كثيراً وأن يعير أهمية بالغة للعلاقات الاجتماعية، يخرج معها

= مجموع عشرين سؤالاً. وظهرت حالة الانقياد عند ثمانية أفراد أي أكثر من الثلث بقليل، ومعنى ذلك أن أكثر من ثلث الآراء تأثرت برأي الأكثرية. وتبيّن أن الأشخاص المتأثرين قضوا طفولتهم في أحضان أسر مرفّهة وكانوا يحملون تصوراً مثالياً عن آبائهم وأمهاتهم، ولهم ميل شديد إلى المماثلة والتقليد، أما الأشخاص المستقلون فهم في الغالب ترعرعوا في أوساط أسرية فقيرة أو ناقصة أو متفككة. (الوجه الآخر للأشياء، ص ٤٠).

للنزهة بين الفينة والأخرى، وحينما يعود من نزهته يتحدث بقناعة وحماس عن الأحداث والمجريات التي تخللت النزهة. ومن ثم يعطف الكلام على أوضاع الأقارب، البيوت التي يقطنونها، والأثاث التي يقتنونها، والأموال التي يمتلكونها، والموضات التي يلبسونها، والأكلات التي يحبّذونها، وما إلى ذلك... هل يمكن لسقراط أن يكون كذلك؟ بالطبع؛ كلاّ! ...

ذات يوم كان جالساً يتأمل عدة ساعات والأفكار تتوافد عليه وتتقاطر كالمطر، كان يتأمل ويفكر كيف هبطت الفلسفة من السماء إلى الأرض. وفجأة صاحت به زوجته: يا رجل! مازلت منذ الصباح إلى الظهر تتمطى وتشخر في زاوية الغرفة، وأنت تراني من الفجر حتى الآن أعدو هنا وهناك لتدبير شؤون المنزل وأنت تنظر إليّ دون أن تحدّثك نفسك بأن تقوم على رجليك وتعينني قليلاً، قل لي ماذا عملت من الصباح لحدّ الآن، أيها العاطل الباطل!

أجابها سقراط بلسان البريء: كنت أفكر!.

احتدّ غضب المرأة أكثر واستشاطت غيظاً وصرخت به: أيها الرجل! ألا تخجل من نفسك، وهل يعدّ التفكير عملاً؟!.

فردّ عليها سقراط ببرود قاتل: التفكير عمل الرجال!.

لا أنوي هنا عرض تفاصيل شجار عائلي، بقدر ما أرغب

في توضيح المسافة بين نمطين من الهمّ والتفكير، وهذه المسافة عادة ما تكون موجودة بين الرجل والمرأة خاصة في العصور القديمة حيث كانت المرأة محرومة من كل الفرص والإمكانيات والتجارب التي تسهم في إنضاج شخصيتها وتنمية قابلياتها. وهي مسافة تزداد اتساعاً في حال كون المرأة عاديةً وزوجها عبقريّ فذّ كما هو حال أبطال الحكاية التي أوردتها قبل قليل.

القضية الأخرى؛ التفاوت بين الأولاد ذوي النبوغ والانجازات التاريخية وبين آبائهم، ولهذا التفاوت جذره المعروف على صعيد علم الاجتماع. فشخصية الأب تكون عادة مصنّفة على الماضي، فقد بلغ الرجل مرحلة من العمر لا تستهوي روحه وفكره التحولات والبدع ومحاولات التجديد والثورة، إنه حذر ومتوجسّ منها، يرفض التجديد ويميل إلى الوضع القديم، العادة تهيمن عليه أكثر من الإرادة، لقد تطبّع على السنن والتقاليد الدينية والاجتماعية القديمة، وصارت له ألفة خاصة بـ(أساطير الأولين) حتى بات يتعصّب لها بقوة.

هو الآن رجل محافظ، يرى أن العقل والمصلحة والأصالة والوقار أمور تتجسد في تقليد القدماء، والالتصاق بالماضي والتهرّب من مواجهة المستقبل والتذمر من كل تجديد أو تغيير. ويعتقد أن التغيير يساوق الانحراف والتجديد يساوي الجفاء، فالقدماء يتسمون بالعمق والأصالة، والجدد بالسطحية والسذاجة!

أما الشاب فهو ليس كذلك، فإن شخصيته، شئنا أم أبينا، لم تنعقد بعد على قالب محدد. حتى إذا كان عارفاً بالماضي فهو لا يلمسه حسّياً، ولا يشعر بثقله عليه، لم يتكيّف مع الوضع الموجود[1] ولم يتطبّع على الموروث القديم. إنه متحرر من كل ذلك، فتراه قادراً على التحليق عالياً نحو آفاق المستقبل؛ لا يرتضي التجديد فحسب بل يولع به، ويعزف عن الماضي، ولماذا لا يفعل!، إذ لم يكن قد عاش فيه، إنه توّاق إلى المستقبل، لأنه الزمن الذي سيعيش فيه.

من هنا، نرى أن ثمة تفاوتاً موجوداً على الدوام بين الشيخ والشاب على الصعيد الفكري أو المزاجي، وهذا التفاوت نلمسه أيضاً بين الأب والابن لنفس السبب الآنف الذكر. وفي تقديري أن هذا التفاوت والاختلاف يتجلى بدرجات متفاوتة ومختلفة في المراحل المختلفة لحياة مجتمع معين. ففي المجتمعات الخاملة يبلغ هذا التفاوت أدنى مستوى له، وذلك أن المجتمع الخامل يبقى على حاله لا يطرأ تغيير مهم عليه بين الجيل اللاحق والجيل الذي سبقه. ويكون فيه الحاضر (زمان الابن) والماضي (زمان الأب) متشابهين إلى حدّ كبير. الزمن الاجتماعي[2] لا يتطابق بالضرورة مع الزمن

---

(١) Statu quo.

(٢) Temps social.

التاريخي[١]، فقد يتقدم الأول وقد يتقدم الثاني وقد يتواكبان. ومايطلق عليه اليوم اسم (قضايا الشباب) أمر معروض للبحث منذ أمد بعيد في الغرب، وإن كانت هذه القضايا تعدّ مستحدثة على صعيد مجتمعات كمجتمعنا الإيراني.

ومردّ القضية أعلاه إلى التفاوت الشديد بين الآباء والأبناء والذي يعكس وجود أزمة علاقات بين هذين الجيلين المتعاقبين، ويبيّن بوضوح أن المجتمع في حال تبدّل وحركة وتغير، فآباؤنا في الغالب كانوا أبناء لائقين لآبائهم، بخلاف أبناء اليوم، والسرّ في ذلك أن المجتمع كان جامداً وراكداً في الماضي، وهو اليوم في حال تحوّل وحركة دؤوب. وبوسعنا الآن أن ندرك جيداً لماذا كان الرجال الأفذاذ عاقّين لآبائهم، لماذا كانوا بئس خلف للسلف؟ السبب أن هؤلاء الأبطال حطّموا قيود السنن والعادات والتقاليد الموروثة، ونسفوا البنى القديمة التي نشأ عليها آباؤهم وحرسوها ودافعوا عنها بكل ما أوتوا من قوة. في ضوء ما مرّ، فإن الآباء رغم كونهم أصحاب الدور الأكبر في تربية الأولاد وتوجيه شخصيتهم، إلا إنهم وعلى غرار ما تصنع المدارس والجامعات والاتجاهات التربوية، يمارسون في الوقت ذاته الدور الأول في إطفاء جذوات النبوغ في نفوسهم. الآباء

---

(١) الزمن الذي يعكسه التقويم.

والمذاهب يتطلعون إلى هدفين:

الأول: صهر شخصية الطفل وصبّها في قوالب مقبولة اجتماعياً ورائجة زمنياً، وتنمية الطفل وتنشئته على النحو الذي يريده المجتمع، والهدف الثاني الحيلولة دون انحرافه عن التوجه المرسوم له. ولما كان كل نبوغ يصنّف نوعاً من الانحراف، فإنهم يحولون، شاؤوا أم أبوا، دون بروز حالات النبوغ، لذلك فإن الغالب في النوابغ الكبار أنهم بين من لم ير المدرسة أصلاً أو لم يكن تلميذاً جيداً فيها!

محمد كان محروماً من كلا الأمرين؛ من قولبة شخصيته الإنسانية، ومن الحائل بينه وبين (الانحراف!)، وكذلك كان محروماً من العاملين التربويين الرئيسيين: الأب والمدرسة. وهذا الحرمان في رأيي كان واحدة من أكبر النعم التي تمتع بها خلال حياته، وذلك أن إشراف الأب وتربية المدرسة بقدر ما هما ضروريان لسائر أصناف البشر، يعدّان أمرين ضارّين بالنسبة للنوابغ والرجال الاستثنائيين الذين تنطوي نفوسهم الكبيرة على قدرات خفية تمكّنهم من تجاوز الماضي وخرق المألوف والإتيان بشيء جديد. إن الإرادة المطلقة التي شاءت اختيار رجل يتمكن في أول نظرة يلقيها على الكون أن يطفئ نيران المجوس ويسقط إيوان كسرى؛ هذه الإرادة وقع اختيارها على رجل انبثق من قلب صحراء ظامئة لافحة لم يسجّل التاريخ لها موقفاً يذكر. لقد

أحجمت تلك الإرادة عن اختيار نابغة من نوابغ أكاديمية أثينا أو هليوبوليس أو اسكندرية مصر، ولا من روما ولا من المدائن ولا غيرها من المراكز التي كانت آنذاك موئل الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء والفنانين الذين جمعوا فيها تجاربهم وأفكارهم واختراعاتهم الى تجارب وأفكار واختراعات أجيال متعاقبة من الحضارات البشرية لتوظيفها بخدمة الإنسان المتمدن.

إن من يراد له أن يشقّ طريقاً جديداً للإنسانية، وأن يغلق مدرسة ويفتتح أخرى، وأن يحطم القوالب القديمة ليأتي بغيرها، ويقوم بمهمة تطهير الأدمغة من الأفكار العتيقة البالية تمهيداً لترويج أوخلق أفكار جديدة، هكذا إنسان لا يجوز للأب أن يحمله على سلوك الطريق الذي طرقه آباؤه الأولون، ولا يحقّ للمدرسة أن تعلّمه على النحو الذي يخدم الاتجاه القائم الموجود. وليس للحضارة أن تصبّ روحه وشخصيته في قوالبها الجاهزة، ولا للعلم والفلسفة أن يعبّئا ذهنيته بما موجود في ذهنيات عقلاء زمانه، فإن من يراد له أن يرسي دعائم حضارة ومدنية جديدة، لا يصلح أن ينشأ في أحضان الحضارة القديمة. يجب أن لا تتدخل في صناعة الرمز والرجل الفذّ، العوامل التربوية الخمسة المتمثلة في رأيي بـ(الأم والأب والمدرسة والمدينة (المجتمع) والمدنية (الثقافة العامة).

ومن هنا لم يولد محمد في أوساط مجتمع متحضر.

المجتمع الذي برز فيه كان نائياً وعصيّاً على يد التربية والتطويع، تماماً كنباتات الصحراء. ولقد شاء القدر أن الشخص الذي كان مقدراً أن تناط به مهمة بناء المستقبل يولد محروماً من نعمة الأب الذي فارق الدنيا قبل أن يرى ابنه. وذلك لكي لا تكون تربية الأب عاملاً في تجفيف ينابيع العبقرية والنبوغ عند محمد وتجميد شخصيته في إطار سنن وعادات التراث، ولكي لا تتروض أفكاره الجامحة، في ظل تربية الأب وتوجيهاته الداعية إلى مراعاة العقل الجمعي العام والصيرورة جزءً منسجماً مع الاتجاه العام، متلوناً بلون الجماعة.

أما الأم؛ أليست هي العامل الأقوى بين العوامل التربوية التي تدخل في صناعة شخصية الرجل وهو في مرحلة الطفولة؟ أوليست هي أيضاً تشكّل الجسر إلى الماضي عبر العادات الاجتماعية ونقلها لهذه العادات والتقاليد إلى طفلها ولو عبر قنوات اللاوعي. اليسوعيون يقولون: أودع طفلك لدينا سبع سنوات، وبعدها أينما يذهب سيبقى يسوعياً مؤمناً إلى آخر عمره.

ثم إن عطف الأم وحنانها هو الذي يضفي على الروح طابع الرقة واللطافة ويحول دون ظهور الكثير من العقد النفسية، فتنشأ الروح نشأة سليمة تتسم بالتوسط والاعتدال، وتخفف من حالات الحدّة والشدة والتصلّب، لهذا السبب كان المقدّر أن تموت أم محمد وهو في السادسة من العمر.

بقيت مشكلة المدينة! مكة مدينة صغيرة وبدائية، ولكنها على كل حال مدينة، وبالتالي لها بنية اجتماعية خاصة وأنساق تربوية وأخلاقية ثابتة ومحددة. محمد ولد فيها ويُخشى على روحه وشخصيته أن تتأثر بالقوالب الثابتة والجامدة، ما هو الحلّ إذن؟!

حليمة السعدية! امرأة من عرب البادية تنتشل محمداً من ظلمة الأزقة الضيقة والجدران المغلقة ومن البيئة الاجتماعية لأناس تحجّرت عقولهم وعواطفهم وتقولبت، على حدّ وصف أندريه جياد، في شكل هذه البيوت المغلقة.. وتذهب حليمة بمحمد إلى الصحراء بعيداً عن أمه ومدينته. في الصحراء تلتقي الأرض والسماء في الآفاق المفتوحة من جميع الجهات، في أعماق الرمال حيث لا جبل شاهق ولا غابة سوداء ولا ضفاف بحر ولا جريان نهر ولا أثر لسقوف أو جدران ومدنية واستيطان، ولا أي شيء آخر يتسم بالثبات. أفق مترامي الأطراف لا يحدّه شكل ثابت وهو دوماً في حال تغير، وبين الفينة والأخرى تهبّ عاصفة تزيح كثبان الرمل من مواقعها، لتتكدس في مواقع أخرى فتنهار المرتفعات وترتفع المنخفضات، هدوء يسبق العاصفة، وعاصفة يعقبها الهدوء، ها هنا تبدأ الصحراء والسماء والأفق الرحيب بإعطاء دروسها لهذا الصبيّ الصغير، وتلك كانت أولى الدروس التي يتلقّاها محمد في مدرسة الحياة.

هل ستعود حليمة بالطفل إلى أهله، وهي تعلم أنه سوف ينسى في حضن أمه ودفء حنانها دروسه التربوية الأولى التي استلهمها من العاصفة والبيداء. سوف تتلاشى عظمة الصحراء وتندثر من ذاكرته على أعتاب رؤيته أسوار المدينة وجدرانها المتراصّة. نعم هذا الصبي سوف يعود إلى مدينته لأن حليمة أخذته منها للرضاعة لا غير، وها هنا يتدخل القدر مرة أخرى، فإن محمداً الذي كان ينبغي أن يعود إلى أحضان أمه بعد سنتين من الرضاعة في البادية، شأنه شأن سائر الأطفال، قدر له أن يغادر مكة ثانية عائداً مع حليمة التي أبدت رغبتها في ذلك، وبعد موافقة أمّ الرضيع عادت به حليمة إلى البادية ليبقى هناك إلى أن يكمل الخامسة من العمر وليعود بعدها إلى مدينته على أمل أن يستقرّ في أحضان أمه وعطفها الدافئ، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى وجد نفسه واقفاً بجوار قبر أمّه.

واعتباراً من تلك اللحظة سوف يكون يتيم عبد المطلب. ومرة أخرى لعب التاريخ دوره الباعث على الحيرة؛ الثورة تنطلق من أحضان الرجعية! وهذا واحد من النواميس الاجتماعية. ففي أحضان الرأسمالية تولد الشيوعية وفي أحضان الليبرالية البرجوازية تظهر الفاشية. وفيما مضى أيضاً، خرج الأبطال الثائرون المؤثرون في المجتمع من بين حماة الوضع القائم، فإبراهيم الذي سجل له التاريخ الإنساني شرف تحطيم الأصنام، نشأ وترعرع في أحضان آزر صانع الأصنام لأهل بابل، يا

للروعة! . أما البطل الذي أنيطت به مهمة القضاء على حكم فرعون، فهو ذاك الرضيع الذي وضعته أمه في صندوق وألقته في النيل ليأخذه عدوّه فرعون ويتولى أمر تربيته وتنشئته حتى يشبّ رجلاً وينقذ الأسباط من ظلم الأقباط. وبوذا الذي ثار ضد مظاهر الرخاء والترف الشرقي، كان بنفسه أميراً ترعرع في بلاط السلاطين. دراسات جديدة أثبتت أن زعماء ثورة أكتوبر كانوا في الغالب من أبناء النبلاء ولم يشارك فيها أكثر من ١٩٪ من الفلاحين والمزارعين.

هذه المرة تتجلى في التاريخ يد بيضاء أخرى، محمد ينمو في أحضان عبدة الأوثان. المؤرخون المسلمون يحاولون جاهدين تبرئة ساحة عبد المطلب وأبي طالب من الشرك، وهذا ميل طبيعي وعام لدى الإنسان يحمله على نسبة الأبطال الذين يكنّ لهم الودّ الى أسر نبيلة ومحترمة. ان جميع الأبطال الوطنيين ورجال الأساطير أما أن ينتموا إلى جنس الآلهة أو ينحدروا على الأقل من أسر نجيبة من قبيل أسر الملوك والقواد الكبار.

ويعدّ هذا من المبادئ العامة في قصص الملاحم والمآسي. عبد المطلب رجل شريف وجيه، ذو هيبة وبهاء ووقار، ولكن لا يسعنا أبداً إنكار كونه رافع ستائر الكعبة وساقي روّادها من المشركين، وهو الحارس لأوثانها والمتصدي رسمياً لمعبدها، بينما نجد أن محمداً الذي سيكون عليه تحطيم هذه

الأوثان في الغد القريب، نشأ وكبر في بيت عبد المطلب(*).

كبر محمد وبات صبياً قادراً على التجوال في مكة ورؤية الأوثان وقريش وأرضها ومناخها، شخصيته الآن في حال صيرورة وتكوّن، الآن ترتسم معالم روحه وخطوطها العريضة. ويعاود القدر تدخّله فيعيده مرة ثالثة الى الصحراء، هذه المرة على هيئة راعٍ في ريعان شبابه، يرعى أغنام أهل مكة في وادي القراريط، لقد عاد في الحقيقة مرة أخرى الى الأحضان الأولى التي تقاسمت مهام تربيته؛ الطبيعة والصحراء وكثبان الرمال وأشعة الشمس والسكون والعظمة وعالم اللاحدود! الطبيعة والصحراء علّماه دروساً جديدة: النظم الدقيق الى جانب التحول المستمر؛ لا شيء يحصل اعتباطاً وبدون قانون، ولاشيء ثابت على الإطلاق، . كل شيء في حال تبدل وتغير، وصيرورة وسيرورة، في ضوء نواميس مدهشة.

إن عظمة الخلقة تتجلى بوضوح أكبر في البيداء، من هناك يمكن للمرء أن ينظر بدقة وعمق الى المدينة والى المجتمع الذي يقطن فيه. المرء لا يرى المدينة من داخلها ولا يتمكن من إدراك هذا النظم والتكرار والتحول والعظمة المحيّرة للألباب، إلاّ أن

(*) يعتقد علماء الشيعة ومفسروهم بطيب اصلاب وارحام آباء واجداد النبي والائمة، وفي بعض الزيارات: اشهد انك . . . في الاصلاب الشامخة والارحام المطهرة.

ذلك كان ممكناً لمحمد وهو يعيش في الصحراء ويطلّ على مكة من هناك. هذه الإطلالة على المدينة وأهلها استثارت في نفس محمد سؤالاً وولّدت في صدره الصافي كسماء الصحراء استفهاماً حول حقيقة ما يجري حوله.

محمد راعٍ. وكذلك الأنبياء السابقون عليه، فهل بين الرعي والنبوة من وجه اشتراك؟ نعم، وهو القيادة! فالراعي يرعى القطيع ويصونه من الأخطار ويدرء عنه خطر الذئاب، ويسوقه نحو المرتع الوفير والماء الغدير. ناهيك عن أن الرعي هي الحرفة الوحيدة التي يضحّي فيها صاحبها بكل ما لديه من أجل القطيع، إنه يهجر الأهل والديار وينطلق بها إلى الصحراء، رابطاً مصيره بمصير القطعان التي يرعاها، حارماً نفسه من مجمل مواهب الحياة، حقاً من أجلها. ويتعلم الراعي درساً آخر يصعب على الآخرين تحمله إن لم نقل إنه يستحيل، إنه درس التضحية من أجل الجماعة التي لا تدرك قيمة هذه التضحية ولا تفقه معناها، وحمل همّ مخلوقات لا همّ لها إلا بطنها وإشباع رغباتها، وهذه - لعمري - أسمى مستويات القيادة، وهذا هو السرّ في احتراف الأنبياء لمهنة الرعي، وذلك أنهم يريدون التضحية من أجل قوم يشبهون في واقعهم القطيع من حيث أنهم مكبّون على وجههم ولا يفكرون سوى بملء بطونهم كالأغنام، وهكذا يتمرّن الأنبياء على تحمل العذاب والمشقة والمعاناة!

هل تطاق رؤية وجوه حمقاء تثير اللّوعة والغثيان فضلاً عن معايشتها ومشاركتها في الحياة المعنوية والاجتماعية والعمل الفكري والنضال السياسي، وفي بيئة مثل هذه ومع أناس كهؤلاء؟! ها هنا يتجلّى مغزى قول النبي: (شيّبتني سورة هود)!(*).

الدرس الآخر هو فن (العزلة) وعلى حدّ تعبير كاتب روسيّ هو (فن العيش مع الذات)، بكلّ ما ينطوي عليه من الاستقلال والاستغناء عن الآخرين وعدم صيرورة الإنسان أسيراً للمجاملات والمماﻵت والروابط والعلاقات والاختلاط بالآخرين والاستعانة بهم والاحتياج إليهم. هناك صنف من الناس إذا كانوا لوحدهم فهم ليسوا بشيء، إذ لا شخصية لهم إلا في ظلّ العيش مع الآخرين والكون معهم، ولذا هم يخشون الوحدة والعزلة، لأنّ بها يتعرّى بؤس شخصياتهم وفراغها وضحالتها، فيلجأ هؤلاء عادةً إلى زجّ أنفسهم في المجموع ودسّ أرواحهم في وسط الزحام، ليشعروا على الأقل بوجود الآخرين وينسوا حقيقة أن ليس لهم وجود، إنهم أعشاب صغيرة لابدّ لها أن تأتلف مع بعضها لكي تحظى بدرجة من الوجود اللافت لأنظار الآخرين، ليسوا نباتات

(*) لوجود الآية التي تحمّل النبي نوع مسؤولية في استقامة الامة: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ).

برية تنبت رغم أنف الطبيعة وتبرز من بين الصخور لتقف وحدها شامخة!

مهنة الرعي تلهم صاحبها دروساً وعبراً في الوحدة والعزلة مع الذات والغنى عما في أيدي الناس. العصفور يحلّق نهاراً وسط ازدحام الأصوات ويغرّد، فيما يقف طير الحق وحيداً تحت جنح الظلام ويغرّد في غنى عن الآخرين غير آبه بهم ولا في انتظار جواب منهم.

في أكاديمية أفلاطون ومتحف بطليموس وجامعة انوشيروان والمدرسة النظامية، لن يعثر أحد على دروس عميقة كهذه. لقد تلقى الراعي الشاب أولى دروسه في فن الزعامة والقيادة في مدرسة (القراريط).

ذات يوم اصطحبه عمه أبو طالب في رحلة معه إلى الشام برفقة إحدى القوافل، وكان عمره حينها ١٢ عاماً، لم يتجاوز في رحلته تلك حدود (بصرى). يميل بعض المؤرخين، البارعين في مجاراة الغرب وأوربا، إلى إعطاء هذه الرحلة زخماً مضاعفاً من الأهمية، وذلك تماشياً مع النزعة السائدة في محاولة تفسير كل شيء عبر قواعد علم النفس والاجتماع المعمول بها اليوم. وذلك على افتراض أن النبي التقى خلال هذه الرحلة بالراهب المسيحي (بحيرا سرجيوس) الذي يصنّفه البعض على الفرقة

النسطورية[١]. وبعد عودة محمد من هذه الرحلة، دهمت أبا طالب حالة فقر واضطراب شديد حالت دون تكراره للرحلات لاحقاً، الأمر الذي تسبب في أن يواجه هو وأولاده المتعددون محنة اقتصادية عصيبة في مكة، كان لابدّ لمحمد الشابّ أن يستشعرها بكل وجوده ويتحسس تفاصيلها من الفقر والجوع والمشقة.

اليتم، قساوة العيش في البادية إلى خمس سنوات، فراق الأم في السنة السادسة، وفاة عبد المطلب جده العطوف ذي الجاه والثروة والاقتدار ومحمد مازال في الثامنة، ومن ثم حياة الرعاة في عمق الصحراء، وحياة الفقر والحرمان من كل مواهب الحياة والتي استمرت حتى الخامسة والعشرين؛ هذه وغيرها دروس نفيسة للغاية، سوف تكون نافعة جداً في تأهيله لحمل الرسالة والأمانة الثقيلة التي تنتظره بفارغ الصبر. لقد تعلّم الصبر والصفاء والبساطة والجلد والأنس بالطبيعة، من معايشته للصحراء. وتعلّم القيادة والمسؤولية والتضحية من أجل الآخرين دون انتظار أجر، من مهنة الرعي. وتعلّم أيضاً الرياضة وصلابة

---

(١) يذهب البروفيسور لوي ماسينيون الى الاعتقاد بأن بحيرا سرجيوس وتميم الداري وسائر الشخصيات التي تذكر كشهود على نبوة محمد، من أهل الكتاب أوغيرهم، شخصيات شبحية ليس لها وجود، إنما هم من نسج خيال القصاص .. راجع (سلمان باك)، ص ٨١ ، ترجمة المؤلف.

الروح والنضج وحبّ الجماهير وبغض الجور والظلم والتزوير، من مكابدة الفقر والجوع. وهكذا شاء القدر للرجل الذي عليه أن يغير مجرى التاريخ أن ينشأ في أحضان اليتم والبادية والمراعي والفقر، وبهذا الواقع المؤلم شحذ السيف الذي قدّر له أن ينزل على رؤوس الأباطرة المتجبّرين.

❁ ❁ ❁

خمسة عشر عاماً من الصمت(*)

(*) ما أوردته هنا تحليل نفسي لشخصية محمد من منظار علم الاجتماع، وإذا لم يكن هذا التحليل منسجماً مع الحقيقة، فلأنّ تفاصيل حياة محمد وسيرته لا يمكن إخضاعها جميعاً لقوانين علم الاجتماع وضوابط علم النفس، ولا يمكن حشرها في قوالب علمية متعارفة. في هذه الخمسة عشر عاماً من عمر محمد لا أحسب عالم الاجتماع يهتدي الى شيء غير ما قلته هنا؛ من أن في أعماق وجود محمد وقعت حوادث وتحولات ليس بوسع أي عالم اجتماع أن يضع يده عليها حتى لو كان معايشاً للنبي فضلاً أن يكون جاء بعده بأربعة عشر قرناً من الزمن.

في الوقت ذاته أرى من الضروري الإشارة إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي أن محاولة تضخيم شخصية محمد قبل البعثة وإضفاء طابع غيبي خارق للعادة عليها، تفضي إلى إضعاف مكانته في نفوس أناس آمنوا بمحمد عبر التحقيق لا عبر التقليد، وبعكس ذلك لو أضفينا طابعاً بشرياً على تلك الشخصية، فإننا بذلك سوف نظهر البعد الإعجازي للرسالة وحجم الدور الذي لعبته يد الغيب في تنشئة محمد وإعداده لتحمل هذه رسالته الكبرى.

علينا أن نجعل القرآن هو المعيار في معرفة محمد بدلاً من الإسرائيليات، والإيرانيات، والهنديات، والعنديّات. ولنفهم عظمة محمد في كونه رسول الله والقائد الإنساني الكبير، لا في أنه حين يمشي ليس له ظلّ!.. لندرك إعجاز الرجل في أنه أميّ لا يعرف القراءة والكتابة ومع ذاك فآيته الكتاب! لا أن نقول إنه كان يعرف القراءة والكتابة ولكنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ولو كان يبغي ذلك لفعل!.. تلك - لعمري - مشكلة (الرفقة مع الدبّ) !! ولو لم يكن لمحمد أصدقاء جهلة كهؤلاء لآمن به كل أعدائه الحكماء..

(إشارة الى مثل وقصة تراثية مفادها أن رجلاً رافق دبّاً، وذات يوم وبينما كان الرجل غافياً جاء الدب فوجد ذبابة على وجهه فأراد أن يقدم لرفيقه خدمة بضرب الذبابة فتناول حجراً وهوى به على الذبابة !!! - المترجم).

كان عمره يناهز الخامسة والعشرين عندما تزوج بخديجة؛ المرأة الثريّة البالغة من العمر خمساً وأربعين سنة. خديجة كانت من أعالي القوم وأشراف مكة. أقدمت على عمل تضحويّ كبير حينما قرّرت الزواج من محمد، وكان يعمل لها في التجارة لقاء أجر قدره أربعة من الإبل. ولكن خلق الرجل وأمانته، دعاها إلى اتخاذ ذلك القرار التضحويّ الجريء، غير أنها لقيت جزاء الخير على ما أحسنت من صنع. لقد سجّل التاريخ اسمها في أكثر صفحاته إشراقاً. المرأة التي أعرضت عن الزواج لأجل الثروة، الآن هي تعرض عن الثروة لأجل هذا الزواج. ولقد كافأها القدر على ذلك أحسن المكافأة. فكأنّ القدر نحت هذه المرأة الحجازية ذات الخمس وأربعين، زوجةً لمحمد وأماً لفاطمة ومربيةً لعليّ. لم يحصل أحد على هكذا مكافأة وأجرٍ، لقاء هكذا تضحية وفداء.

لقد انقلبت حياة محمد، يتيم أبي طالب الذي كان يسرح في غنم أهل مكة في القراريط، هو الآن زوج خديجة، له حق التصرف بجميع أموالها وإبلها الوفيرة جداً. لقد بدأ محمد يتذوق طعم الرفاه. ولكن مهلاً.. ففي مكة هذه الأيام إرهاصات لحدث جديد أو توجه جديد.

إثر وفاة عبد المطلب، اشرأبّت أعناق، وتطلّعت رؤوس، إلى الاستيلاء على زعامة قريش واحتلال مكان الصدارة فيها،

خاصة ما يتعلق بسدانة الكعبة، الشرف الذي كان يتفرد به بنو هاشم، غير أنهم اليوم أمام منافسين!

في أجواء مكة، بدأ يخيّم العداء والتنافس بين بطون قريش على زعامتها؛ الأمر الذي يؤذن بتشظي المدينة وتفكك القبيلة. وفي أثر ذلك تراجعت هيبة قريش وتضاءل احترام الكعبة في عيون القبائل الأخرى، وضعفت قدرة مكة بين قبائل الحجاز ونجد. اليهود والنصارى باتوا ينالون من دين مكة، سرّاً وعلانية، وقد شمل هذا الأمر وجوهاً بارزة من قريش نفسها، لقد تردّت مكانة دين الآباء في نفوس الناس، وبرزت حالات الضعف في الإيمان بشكل ملحوظ. المرافقون لقوافل التجارة الذين يتردّدون بين مكة وبين الشام واليمن والحيرة أخذوا يتناقلون أشياء غريبة جديدة ويروّجونها في أوساط المكيين.

ورقة بن نوفل وعثمان بن حويرث وزيد بن عمرو وعبد الله بن جحش، أقلعوا عن المشاركة في مراسيم عبادة الآلهة، بل راحوا ينتقصون منها على رؤوس الأشهاد. حتى ان ورقة بن نوفل ابن عمّ خديجة اعتنق الدين المسيحي وراح يترجم الإنجيل إلى العربية. أما زيد بن عمرو الذي ذهب إلى الشام والعراق هرباً من زوجته، فقد عاد إلى مكة ليعلن صراحة أن الأوثان ليست أكثر من قطع صخرية عاجزة! يقولون أنه وفد إلى مكة ووقف مقابل اللات والعزّى وصاح بصوت عال: ربّاه! لو كنت أعلم

الطريقة الذي تحب أن تعبد فيها لفعلت ولكني لا أعلم!.

من جهة، فإن عثمان بن الحويرث، وهو من أقرباء خديجة، قصد القسطنطينية وعاد منها نصرانياً، وأراد قيصر الروم أن ينصّبه حاكماً على مكة من قبل مصر لإلحاقها بالامبراطورية الرومية. ولكنّ أهل مكة طردوه منها، فلجأ إلى الغساسنة، وأراد تأليبهم لكي يقطعوا طريق التجارة على أهل مكة، ولكنّ المكيين استطاعوا، عبر تقديم رشاوى، إقناع الغساسنة بالانصراف عن هذا الأمر وقد نجحوا في ذلك، ودُسّ السمّ إلى عثمان وأحبطت مخطّطاته.

الألسن تتداول في كل مكان من مكة قصة الإله سعد:

رجل يأتي بإبله ليجعلها وقفاً على الوثن سعد، ما أن تصل الإبل قريباً من الوثن إذا بها تهيج وتهيم على وجهها في الصحراء. غضب الرجل فأخذ حجراً فرمى (الإله) به ثم قال: لا بارك الله فيك، نفّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها فلما اجتمعت له قال:

أتينا اليسعد ليجمع شملنا
فشتّتناسعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلاّ صخرة بتنوفة
من الأرض لا تدعو لغيٍّ ولا رشد

وكان لطئ صنم يقال له الفلس . . . وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ولا يأتيه خائف إلا أمن ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت ولم تخفر حويته ، وكان سدنته بني بولان ، وبولان هو الذي بدأ بعبادته، فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي فاطرد ناقة خلية لامرأة من كلب من بني عليم كانت جارة لمالك ابن كلثوم الشمخي وكان شريفاً فانطلق بها حتى أوقفها بفناء الفلس، وخرجت جارة مالك وأخبرته بذهاب ناقتها فركب فرساً عرياً وأخذ رمحاً وخرج في أثره فأدركه وهو عند الفلس والناقة موقوفة عند الفلس ، فقال : خل سبيل ناقة جارتي ، فقال : إنها لربِّك ، قال : خلٍّ سبيلها ، قال : أتخفر إلهك ؟ فناوله الرمح وحلّ عقالها وانصرف بها مالك وأقبل السادن إلى الفلس ونظر إلى مالك ورفع يده وهو يشير بيده إليه ويقول:

يا رب إن يك مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بناب علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

يحرّضه عليه ، وعدي بن حاتم يومئذ قد جلس عنده، هو ونفر يتحدّثون بما صنع مالك، وفزع من ذلك عدي بن حاتم وقال: انظروا ما يصيبه في يومه، فمضت له أيام لم يصبه شئ! فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام وتنصّر ولم يزل متنصراً حتى

جاء الله بالإسلام فأسلم[١] . . .

في هذه الأثناء لا نسمع عن محمد شيئاً، وهذا أمر عجيب ومحيّر. صحيح أننا لا نجد سنداً أو وثيقة تاريخية تقول أن محمداً سجد لصنم أو شارك في طقوس دينية مع أهل مكة، ولكن التاريخ لايذكر موقفاً لمحمد يجعله في جبهة أولئك الذين سخروا من الآلهة أو كان لهم موقف نقديّ منها. وهذه إحدى النقاط الغريبة في حياة محمد؛ الرجل الذي فاجأ الجميع بتمرّده الخطير على الأوثان في السابع والعشرين من رجب من السنة الأربعين من عمره (آب ٦١٠م) ومهاجمته لها بأقسى الأشكال والألفاظ، كيف لا ينضمّ من قبل ذلك إلى صفّ المعترضين على الآلهة من مستنيري مكة وغيرها من مدن الحجاز، أو على الأقل أن يُتّهم في أوساط أهله بضعف الإيمان.

يقول توينبي: ثمة مرحلتان في السيرة الحياتية لنوابغ التاريخ (المراد من النوابغ الرجال الأفذاذ الذين غيّروا وجه الحياة الاجتماعية لأممهم وصنعوا لها تاريخاً جديداً، لا نوابغ الفلسفة والعلم ممن اكتشفوا قانوناً أو اختراعاً جديداً)، وهاتان المرحلتان هما (العودة عن المجتمع) و(العودة إليه).

في المرحلة الأولى، لا يطيق الرجل أوضاع مجتمعه

(١) معجم البلدان، الحموي، ج ٤، ص ٢٧٣ .

فيبتعد عنه ويهجره ويغيب فترة تطول أو تقصر، فإذا انتهت فترة الغيبة عاد إلى المجتمع ليبدأ حمل رسالته. في هذه العودة، يكون الرجل قد تبدل إلى آخر تبدّلاً كليّاً، موسى قتل القبطي ففرّ من مصر، ولم يعد إليها إلا بعد سنين من الغيبة، هذه المرة بزيّ النبوة، يرافقه أخوه هارون. موسى الذي ذهب كان من روّاد البلاط الفرعوني، وموسى الذي عاد رجل ثائر على هذا البلاط. أما بوذا فقد عزف عن حياة الملوك واللهو والترف والملذات والشهوات، وبعد أعوام من الغيبة والعزلة عن الناس عاد بلباس نبي ثائر إلى موطن يقال له بنارس. كان في أوان ذهابه يلقّب بـ(سيزارتا) وتعني الأمير، والآن يعود ملقباً بـ(بوذا) ومعناها الرجل المستنير، وهكذا الحال مع المصلح الايراني (ماني).

محمد لم يهجر مكة في الفترة بين سنّ الخامسة والعشرين وبين الأربعين، إلاّ إن حياته انطوت على المرحلتين اللتين يقول بهما توينبي: فراق المجتمع والعودة إليه، سوى أن هاتين المرحلتين تحققتا في وجدانه المليء بالأسرار وروحه المضطربة بحثاً عن الحقيقة. تأملاته وهو في عزلته بغار حراء بجبل ثور، تمثل مرحلة الابتعاد عن المجتمع؛ عن مكة وأوثانها ورسومها وعاداتها وعلاقاتها وحياتها اليومية، وفي تلك الليلة العظيمة التي انحدر فيها محمد من حراء إلى الوادي الذي تناثرت بيوت مكة على جانبيه، كأنه يهدف - على حد تعبير المؤرخ الكبير -

لمواجهة التاريخ كلّه. في تلك الليلة بدأت مرحلة العودة إلى المجتمع، ولكن شخص محمد لم يكن مغيّباً عن الأنظار.

لاشك أن الأنبياء الآخرين استعدّوا لحمل الرسالة عبر الغياب عن مجتمعاتهم لفترات أطول، تمرّنوا خلالها روحياً وفكرياً على القيام بمهامهم التاريخية. ولو قدّر للتاريخ أن يكون على تواصل مستمر معهم في مرحلة العزلة عن الناس، لسجّل لنا كثيراً من الحقائق حول كيفية تبدّل شخصياتهم في غضون تلك الفترة من أناس عاديين إلى أنبياء وهداة للبشرية، وما هي المقدمات التي أسهمت في تحقيق تلك الثورة الكبرى على صعيد الفكر والروح والأخلاق، كما حصل في سيرة بوذا من تحول عظيم في الشخصية تحدثت عنه الحكايات الأسطورية (في عمق الغابات نشبت المعركة بينه وبين آلهة الموت والمرض والجهل والفقر والظلم . . .) في وصف لعملية تبدّل الأمير (سيزارتا) إلى الرجل المستنير (بوذا).

غير أن أهالي مكة كانوا يتعاطون مع محمد كل يوم، ويرونه حاضراً في مجمل الفعاليات الاجتماعية الحاصلة في المدينة، يرونه يرتاد أسواق عكاظ ومجنة، ويشارك في حروب فجار التي دامت اربع سنين، ويتردد على دار الندوة ويلتقي بزعماء قريش في الكعبة، ويساهم في تجديد بنائها ونصب الحجر الأسود فيها، يصغي إلى الشعر والشعراء ويبدي رأيه

فيهما. في هذه الفترة الطويلة نسبياً من حياة محمد - من سنّ الخامسة والعشرين إلى الأربعين عاماً - كان ذا شخصية بارزة؛ إنه حفيد عبد المطلب (صاحب أستار الكعبة وساقي الحجيج وأقدس شخصية دينية في قريش وأكثرها نفوذاً)، وهو أيضاً زوج خديجة (أكثر نساء مكة مالاً وكمالاً)، إن محمداً الآن يعدّ في الأثرياء، وبالتالي فإن أقل حركة أو تصرف يصدر عنه سرعان ما ينتشر على مستوى المدينة، كيف يمكن أن يظهر ابن عبد المطلب وزوج خديجة تذمّره من عبادة الأوثان، ويحجم عن الاشتراك في الطقوس الدينية لأهل مكة دون أن تشعر قريش بذلك أو تتنبّه له، كيف يمكن أن يظلّ ضعف إيمان محمد بدين الآباء خفيّاً على المكيين وهو حفيد عبد المطلب وربيب الأسرة التي تعدّ المرجع الديني الأعلى لقريش والمسؤولة عن إدارة شؤون الكعبة وزوّارها. وإذا لم يكن ذلك خفيّاً عنهم كيف يكون بوسع المكيين السكوت عنه وعدم اعتباره انحرافاً خطيراً وكبيراً؟!

ما يمكن استيحاؤه من التاريخ، أن الكرامات والمعجزات التي تنقل عن شخصية محمد في الجاهلية، وبالتحديد في السنوات الخمس عشرة ما بين زواجه من خديجة إلى حين البعثة، لم ترسم لمحمد صورة بطل استثنائي خارق للعادة، أو عنصر متذمر من الدين القائم أورجل متأثر بالأفكار المستوردة حديثاً، كالمسيحية واليهودية والزردشتية أو المسالك العرفانية

القادمة من الشرق أو الفلسفة اليونانية والاسكندرانية، أو صورة لمفكر عبقري أو نابغة ذكيّ يستقطب الأفكار إليه بشدة. . .

والواقع إن الأصالة والصدق والأمانة وحسن الأخلاق طغت، فيما هو المعروف عن شخصية محمد، على الأبعاد الأخرى الفكرية والعقائدية. إن لـ(موريس دوبارا)(*) عبارة جميلة يقول فيها: (المستنيرون أشخاص خسروا الوجدان ولم يربحوا الشعور)(١). محمد لم يكن معروفاً في مكة كشخصية نخبوية مستنيرة، وظلّ البعد الوجداني في شخصيته غالباً على البعد الفكري فيها. إن لقب (الأمين) الذي منحوه لمحمد، يعكس طبيعة الانطباع الذي يحمله المجتمع المكي إزاء شخصية محمد، في حال أن دهاة مكة أربعة ولم يكن محمد أحدهم: معاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن العاص، وزياد بن أبيه. ولم يكن محمد واحداً من بين الشعراء والتجار وأرباب القوافل المعروفين الذين كان لهم تردد مستمر جيئةً وذهاباً بين مكة وغيرها من الأمصار.

أما الأشخاص الذين كانوا على صلة باليهودية والنصرانية ويعدّون من علماء مكة، فهم ورقة بن نوفل وبعض الشعراء أو الأعاجم، وليس محمد بواحد منهم. وهو ليس واحداً ممن

(*) Maurice de Barres.

(١) Argument,II,p. . .

عرفوا برقّة الطبع ورهافة الحسّ وسعة الخيال ممن كانوا يعدّون في نظر الناس أكثر وعياً من غيرهم - كما يستفاد من قول الشاعر - فالتاريخ لم يدرج اسم محمد بين هؤلاء أيضاً.

النقطة الأولى :

رمضان هذا العام أيضاً، توجه محمد بن عبد الله زوج خديجة إلى غار حراء، وذلك كي يبتعد عن ضوضاء مكة وابتذالها اليومي، يختلي بنفسه، يصوم، ويروّض نفسه ويهذّب روحه من شوائب الحياة وهمومها في العدو وراء لقمة العيش وكسب الجاه واللذة والترف، في البيت والأسرة والسوق والمدينة. تجدر الإشارة هنا أن فراق المدينة مرّة في العام والاعتكاف في مكان ناءٍ والتفرّغ للتأمل والتفكر، لم يكن تقليداً مقصوراً على محمد في تلك البرهة من الزمن، وبالتالي لا يسعنا القول أن هذا العمل هو الذي جعل من محمد رجلاً استثنائياً في نظر الناس، فيكونوا مستعدّين لسماع ادعاء غريب منه (بمستوى النبوة) كلاّ، كانت تلك سنّة متبعة، يلتزم بها أغلب رجال قريش (الحنفاء)[١].

لقد قصد محمد الغار هذا العام على غرار ما فعل في

(١) تدعى هذه السنة بالتحنف، والحنفاء هم أتباع الديانة الابراهيمية من عرب الجاهلية.

السنوات الماضية، وعلى المنوال الذي يلتزم به القرشيون من أجل العزلة والاعتكاف. هذه السنة راح يُمضي ساعات وساعات وحده في الغار يفكر مع نفسه ويتأمل بماضيه وبحاضره ومستقبله، ببيت إبراهيم والأوثان والمتضرعين إليها، بالعرب والبشرية جمعاء، بالأرض والسماء والكون. ومن ثم كان يخرج من معتكفه، ليتمشى على الجبل حوالي الغار، ينظر إلى هيبة الجبل وسكون الوادي وعظمة السماء الصافية لشبه جزيرة العرب، وكثافة النجوم التي تتحدث بصمت، لتنتشل يد الإنسان الذي ضاقت روحه بالخلقة والحياة، وتأخذ به صوب عالم الخلود.

في تلك الليلة، وبينما كانت أصوات وقع خطى الرجل تخرق سكون الجبل، إذا بها تهدأ فجأة، لقد أنهكته الأفكار البعيدة والتأملات الأليمة التي تشابكت في روحه كأنها لا تريد أن يستقرّ به المطاف. عاد إلى داخل الغار، و عادت نظراته الفاحصة واختفت في عينيه المتطلعتين إلى المجهول دون أن تفوزا بشيء جرّاء تأمّلهما مليّاً في السماوات والآفاق البعيدة. جلس قليلاً ، وعاود التدبّر مع نفسه، ومن ثم أخلد إلى النوم حسرة على المجهول الذي يشعر بوجوده وبأنه قريب منه، ولكن لا سبيل له إليه.

فجأة، انتفض من نومه، كأنّ أحداً يمسك بخناقه، أحسّ بقرب لحظات الموت، حالة ذعر ورعب شديد جداً إلى درجة

أن المرء لا يشعر به! اليد الخفية التي تقبض على حنجرته، تركته لحظة، ليجد أمام ناظريه ورقة، ويسمع صوتاً خفيّاً كأنه يصدر من كل ناحية من نواحي الكون ونواحي وجوده:

- اقرأ !

- ما أنا بقارئ ؛

وعادت اليد الغيبية تقبض على حنجرته ليستشعر الموت، وتتركه ليعود الصوت:

- اقرأ !

- ما أنا بقارئ ؛

ويتكرر الموقف للمرة الثالثة، ضغط على الحنجرة، شعور بالموت، إرخاء وصوت يقول:

- اقرأ !

- ما أنا بقارئ ؟

- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

---

(١) العلق: ١-٥، ويذهب الأكثر الى ان هذه الآيات هي أول ما نزل من الوحي، ولمزيد الاطلاع يراجع (التفسير الحديث) و(بداية الوحي) لوالدي محمد تقي شريعتي.

وانتهى الأمر! وتوقف الكون عن الحركة والكلام، سكوت وسكون مطلق، لم يبق سوى محمد والغار والعزلة، اجتاح الخوف وجوده، غادر الغار فزعاً مذعوراً وانحدر صوب الوادي، الخوف يداهمه من كل صوب، يعدو بسرعة علّه يصل إلى بيته، رأسه مطرق إلى الأرض يخاف أن يرفعه، السماء صامتة . . . أحس فجأة وهو ما زال على سفح الجبل كأنّ هذا المجهول ظهر مرة أخرى في كبد سماء الليل، كأنه يتحدث إليه ويخاطبه، انتابه الهلع، صرف بوجهه عنه إلى الجهة الأخرى، ولكن هيهات، فلقد كان ينتظره على الجانب الآخر، كأنه موجود في كل مكان. تسمّر محمد مكانه، ماذا يفعل؟! لقد استولى عليه الرعب والهلع بما لا يطيق. من الناحية الأخرى، كانت خديجة وقد بدأ القلق والاضطراب يستوليان عليها، لقد تأخر زوجها، فبعثت وراءه من يستقصي الحال، لكن المبعوث أقفل راجعاً دون نتيجة. أما محمد فقد أحسّ مجدداً بسكون السماء وهدأة الأرض، فطفق يواصل الانحدار السريع والقفز على جلاميد الصخور حتى وصل إلى البيت . . .

(خديجة ! زمّليني، أي دثّريني، صبّي عليّ الماء)، بدنه يرتجف، لم يعد قادراً على الكلام. انتحى جانباً في زاوية من البيت، ألقت خديجة لحافاً عليه، كان جسمه ساخناً جداً كأن الرجل انتابه شيء، التفّ بلحافه، ومضت فترة وهو على هذه الحال، حتى هدأ بعض الشيء، فالتفت إلى خديجة، ووقعت

عيناه على زوجته العطوف، كانت جالسة إلى جانبه، تنظر إليه باضطراب، ما أن رآها ولمس العطف المشوب بالقلق في عينيها حتى اطمأن قلبه وأنس بوجودها، كانت تنظر إليه ساكتة، وكان هو ساكتاً ينظر إليها، لم يكن ثمة مجال للحديث، مرّت لحظات وهما على هذه الحال.

لكن خديجة التي خبرت زوجها وجرّبت صدقه وأمانته، فلم تر منه سوى الخلق الرفيع والحنوّ والاستقامة، وهو عندها منزّه عن كل عيب، هذه المرة صارت - كما كانت خلال ١٥ عاماً - ملاك رحمة للرجل الذي ينتظره مستقبل غامض، فقالت له برفق وحنان:

(أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبدا ووالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق).

ومحمد ظلّ يحدّق بعينين معترفتين بالجميل في وجه خديجة، الواثقة من نفسها، خديجة التي كانت له مصدره الوحيد في العطف والمودة والحب والمداراة والتضحية. سكن محمد، كان يشعر بصدمة شديدة، وخلد إلى نوم عميق ملتحفاً بلحافه. كانت هذه آخر (نومة) له.

نهضت خديجة قاصدة عمّها الشيخ العالم المستنير، ورقة بن نوفل، لتنقل ما جرى لزوجها إلى الرجل الذي ترك عبادة

الأوثان منذ فترة بعيدة، وصار نصرانياً خبيراً بمثل هذه الأمور. ورقة كان قد اطلع على حياة الأنبياء، وسمع وقرأ كيف تكون البوادر الأولى للوحي إليهم، شرع بالحديث بسكينة وهدوء واطمئنان، قارن بين واقعة غار حراء وبين ما جرى لموسى في طور سيناء، التفت إلى ابنة أخيه ليطمئنها:

(هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجه قومه قالت: أمخرجيه هم؟ قال: نعم إنه لم يجئ رجل قط بما جاء به إلاّ عودي ولئن أدركني يومه أنصره نصراً مؤزراً)[١].

عادت خديجة إلى بيتها مفعمة بالأمل والإيمان بنبوة زوجها، والقلق والخشية من المستقبل المجهول الحافل بالأحداث والوقائع التي سوف تدور عليه. وجدت محمداً على حاله ملتفاً بلحافه، جلست بهدوء إلى جواره، كانت تتفحص صورة الرجل الذي سكّن حبه روحها على مدى خمسة عشر عاماً، وهي منحته بالمقابل كل ما لديها وضحّت من أجله بكل شيء. كانت تفكر في نفسها، لحظات، وينهض هذا الرجل ليبدأ حياة جديدة، ماذا سيصنع؟ ماذا سيحدث له ولأسرته؟ بماذا سيأمره الله من مهام وواجبات؟ وكيف سيتعامل معه الناس؟

---

(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٥٣١ .

كانت تنظر إليه غارقة في هذه التأملات، وفجأة تحرك محمد! اقشعر بدنه، أخذ نفسه يصعد وينزل بصعوبة بالغة، كأن أحدهم يقبض على حنجرته. حبّات عرق كبيرة تنحدر من جبهته وتنهمر على شيبته، فزع من نومه ولكنه لم يستيقظ بعد، كأنه يعاني من ألم خفيّ، فجأة سمع مرة أخرى نفس الصوت السابق، هذه المرة على شكل أوامر صارمة وبإيقاع لا يماثل كلام البشر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[1].

دبّ الأمل والشعور بالعظمة والعنفوان في روح محمد، وثب من مكانه تأهباً لاستقبال دفعات جديدة من الوحي توضح له معالم وظيفته الخطيرة ورسالته الكبيرة، مدركاً أنه يقف الآن على مشارف حياة جديدة يتصل خلالها بعالم الماوراء. انتشر خبره في مكة وتداولته الألسن. كم ستكون هذه الحادثة جديرة باهتمام مجتمع خامل عاطل في مدينة صغيرة، ليس لهم همّ سوى الاجتماع في محافل عامة يتجاذبون فيها أطراف الحديث عن كل شاردة وواردة وهم يحتسون الخمر ويغيبون عن الوعي باختيارهم. الناس البسطاء تلقّوا هذا النبأ بحيرة وذهول، وتحدثوا عنه بشيء من الفضول، وأضفوا عليه من عندهم

---

(١) المدثر: ١-٧.

تفاصيل مختلقة. أما رجال القوم الذين شعروا أن الأمر يرتبط بهم أكثر من الآخرين فقد أخذوا القضية مأخذ جدّ وقلّبوا أوجهها: ابن عبد الله وحفيد عبد المطلب وزوج خديجة ويتيم أبي طالب يدّعي النبوة! ويزعم أنه أوحي إليه؟ حقاً، هل يتيمنا هذا أصبح نبياً بين عشية وضحاها؟ ياله من ادعاء خطير! ماذا دهى محمداً، ما هكذا الظن به، إنه رجل عاقل رزن وقور، كيف يصدر زعم كهذا من حفيد عبد المطلب وهو الذي أفنى عمره في خدمة الكعبة وزوارها، كيف يفكر محمد وهو الذي تلقى تربيته في أسرة دينية محافظة، هل صبأ محمد؟! كيف سوّغ لنفسه أن يفتري فرية بهذا الحجم، وهو المشهور بين الناس بالصدق والأمانة والحياء والتواضع؟ كلاّ، الرجل لا يكذب، ليس هذا شأنه، لعله أصيب بشيء من السحر أو الجنون، لقد لعبت بعقله الشياطين... وشيئاً فشيئاً، تحولت هذه الاستفهامات المصحوبة بالدهشة والفضول إلى سخرية واستهزاء بمحمد ومزاعمه. بات حديث محمد حديث الساعة في مكة. الناس يجتمعون أفواجاً وزرافات وخاصة كبار القوم ليتبادلوا الرأي حول محمد، يلتقون أطراف الكعبة يحتسون الخمر وينالون من محمد بسخرية واستهزاء. كل امرئ منهم يسعى أن يكون له سهم خاص في سوق الطرائف بحقّ محمد ومدّعاه الجديد ليُضحك الآخرين ويثير في نفوسهم نزعة السخرية والاستهزاء ويشبع فيهم الرغبة العارمة في ذلك.

آن الآوان لكي يواجه محمد أصعب لحظات حياته، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة وطويلة من المشقة والعذاب. فلقد تحولت مكة بأسرها إلى ساحة تذمر وسخرية واتهام لمحمد. لم يعد قادراً على الخروج من البيت، في هذا العالم الفسيح لم يعد لمحمد سوى ملاذين آمنين يلجأ إليهما؛ الأول بيته، إلى جوار خديجة الكبرى وعليّ الفتى الطاهر الودود وابنه العزيز زيد وبناته الكريمات زينب ورقية وأم كلثوم وصبيّته الصغيرة الزهراء. أما الملاذ الثاني الذي يسلّي روحه ويهبها قدرة خارقة على تحمل المصائب والمصاعب والتحديات، فهو غار حراء. قرّر محمد هجر مكة التي بات لا يتردد اسمه فيها إلاّ مع السخرية والتهمة والطعن والافتراء. قصد الجبل الذي جاء منه وملؤه الأمل بأن يقف إلى جانبه، أسلم روحه وقلبه إلى من فيه، وتحول إلى كتلة من الانتظار، كان شيئاً فشيئاً يجد نفسه في مواجهته، وصل إلى جوار الغار، وقف يتنهد هناك ونظراته تجوب المكان متلهفة للعثور عليـ(ه)! نظر في الأرض والسماء والأفق الرحيب، لم يعثر على شيء، دفع بنفسه إلى داخل الغار، وتوجه إلى ذات النقطة التي جاءه منها النداء تلك الليلة، جلس، عيناه تتجولان بين الغار والخارج، ينهض، ويجلس، لا يستقر له قرار، ساعات من اللوعة مرّت عليه ببطء شديد وهو ينتظر المجهول، كأن عجلة الزمان توقفت عن الحركة، ما أوحش هذا السكون! وأيّ هدوء مروع! السماء تنظر إليه بصمت وبرود، والقمر يمرّ

بهدوء قاتل، لقد توقفت الطبيعة عن الحراك، ومات كل شيء.

وشيئاً فشيئاً استلّ محمد نفسه من حالة اليأس والقنوط، أجهش باكياً، وثب من مكانه، خرج من الغار، كان مرهقاً للغاية، يعتريه القلق، الطبيعة ما زالت مصرّة على التزام الصمت، السماء ظلّت جامدة، والقمر ما يزال حالكاً، عاد محمد إلى الغار، ثم خرج مرة أخرى، واندفع منحدراً في الوادي.

رمى ببصره صوب مكة، بيوتها تحت قدميه في عمق الوادي تتناثر حول الكعبة، كلّها معبّأة ضدّه بالحقد والكراهية تنتظر وصوله إليها، النوافذ تغلق بوجهه، فالمدينة غارقة في الذنوب، وعاكفة بلا حياء على التضرع إلى أوثان عمياء بكماء صمّاء، مكة الآن في سبات عميق، وغداً مع الفجر تستيقظ لتبدأ جولة جديدة في إيذاء محمد، والسخرية منه والاستهزاء بما يقول.

خلد محمد إلى النوم تلك الليلة، ولا أمل لديه بالغد. وغداً، وحينما أرخى الليل ستاره، عاد محمد إلى الجبل عسى أن يتلقى نداءً جديداً، وبقي ثمة إلى وقت السحر؛ وعاد منكسراً، فمكة ما تزال في غيّها، وهو ما يزال في انتظار قدوم النداء.

وتوالت أيام اللوعة وليالي الانتظار، ولكنّ الغار ما زال ساكتاً، والطبيعة خرساء، والسماء موصدة بوجهه.

ثلاثة أعوام على هذه الحال، ولم يأت النداء. لقد انقطع

الوحي ثلاث سنوات؛ وكل آن من آناتها تنوء بثقلها على صدر محمد لدرجة أنه يتمنى الموت، قتله الانتظار الطويل بلا طائل في جنح الظلام وأعماق الليل، ساعات طوال، وهو يتلوّى في خلوة الغار الأبكم، كالأفعى، حدّثته نفسه مرات بأن يلقي بنفسه إلى أعماق الوادي، كيما يريحه الموت المحتوم من مخالب الحزن واللوعة التي تنشب بروحه.

ما كان يلوّع محمداً، ليس استهزاء الناس وخصومه الأعداء وضجر الأقرباء، ذلك أن روح محمد الكبيرة نضجت على نار الألم والعذاب، فعادت قادرة على احتواء الأزمات وامتصاص الصدمات دون أن تتأثر بها. إن أكثر ما يؤلم محمداً ويؤرقه هو انقطاع الوحي[١]، هل نساه حبيبه؟ هل عزف عن التحدث إليه؟ هل بدر من محمد خطأ أغضب صاحبه عليه، فعدل عن تفويض الرسالة إليه؟ ألن يتكرر الوحي؟ هل كان على محمد أن يكتفي بذلك النداء الأول وينهض بأعباء الرسالة ولم يفعل؟ هل هو مأمور بشيء ولا يدري ما هو؟ هل سيُترك وحده في ميدان الصراع مع مكة وأهلها المتوحشّين؟ ألن تمدّ له يد العون لتنتشله من حافة الانهيار؟ هل نُسي محمد؟!

ثلاث سنوات مرّت على هذا المنوال. وذات يوم، وبينما

---

(١) انقطاع الوحي متفق عليه وان اختلفوا في تحديد مدته من اربعين يوماً الى ثلاث سنوات.

كان محمد في أقصى حالات اليأس والاضطراب, يغمره وابل من الأفكار الملوعة والمفزعة، قلبه يتشظى يأساً ومرارة، وعينه لا تبصر سوى أفق موحش ومستقبل مظلم، فجأة إذا بتلك اليد تقبض مرة أخرى على حنجرته، فيقشعرّ بدنه، ويتلّوى كأنه يكابد من ألم خفيّ. نضحت حبات العرق على جبينه الملتهب، سكن قليلاً، إنه ذات الإيقاع الذي عزف في وجدانه قبل ثلاث سنين، صوت آمر عطوف لنفس الرجل الذي أضرم النار في قلبه آنذاك وتركه يتلوّع فيها ثلاثة أعوام، ها هو الآن يعود مطمئناً إياه عبر تأدية القسم الغليظ بظاهرتين طبيعيتين تعكسان مجرى حياته:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾[١].

وثب محمد من مكانه مفعماً بالنشاط والأمل، ووضع - دون تردد - قدمه الأولى على الطريق الصعب الطويل في أداء رسالته. كان عليه أن يزرع أسمى الملكات الإنسانية في أحطّ النفوس وأشدّها جموداً ووحشية. كان مكلّفاً بأن يحمل أسمى

(١) سورة الضحى.

الأفكار وأعزّها على عقول علماء أثينا والقسطنطينية والمدائن والاسكندرية وأصحاب الحضارات العريقة آنذاك (الروم والفرس)، ويرسّخها في عقول لم تكن مستعدة لاستيعاب ما يتجاوز - في علوّه - سنام إبلهم. كان عليه أن يرقى بقوم يخجل التاريخ عن ذكر اسمهم، إلى مستوى أمة صنعت تأريخاً مجيداً ما زال قبلة أنظار المؤرخين قاطبة.

كان على محمد أن يشيد في قلب الصحراء القاتلة الحالكة، وعلى هذه الرمال الحارقة المتحركة، حضارة تقوم على دعامة التوحيد، جدرانها الأربعة: (المساواة، والعدل، والحرية، والمحبة)، ويعيش أهلها أحراراً من سلطة آلهة الترغيب والترهيب.

المهمة الأولى :

شاء القدر أن أول مدينة تشيّد لـ(الناس)، تكون في الأرض التي شيّد فيها أول بيت للناس، ولأجل أن يتسلّط على أهلها رباعي الهيمنة والتسلّط المؤلف من: فرعون؛ رمز الاستبداد السياسي, وقارون؛ رمز الاستبداد الاقتصادي, وبلعم بن باعورا؛ رمز الاستبداد الديني ممثلاً برجل الدين الرجعيّ الذي مثّله القرآن بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[1]، وأخيراً

---

(١) الأعراف : ١٧٦ .

الملأ؛ رمز الاستبداد الاجتماعي.

وجاء النداء مفصحاً عن المهمة الأولى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

ما أصعبها من مهمة! محمد يعرف أقرباءه جيداً، فهم من أشراف وملأ قريش ومن أعالي طبقتها الدينية أيضاً، وليس ثمة عامل أكثر رجعية وجموداً في المجتمع من (دين الملأ) و(الملأ الديني). حينما يتقلّد أعيان المجتمع وأشرافه مناصب دينية، أو يتحول رجال الدين إلى أشراف وأعيان في المجتمع، حينذاك سيقف هؤلاء صخرة عنيدة بوجه أي تيار تجديدي، ويصبحون سدّاً حائلاً بوجه أي عملية تحوّل أو تغيير. وعلى محمد الآن أن يحرث في قلب صخرة لينثر البذور الأولى للدين الجديد (الإسلام).

أول المسلمين خديجة؛ المرأة الكريمة التي ضحّت بوجودها بالأمس قرباناً على عتبة المحبّة، واليوم على عتبة الحقيقة. ليس بوسعنا أن نحدد بالضبط الوقت الذي اعتنقت به خديجة الإسلام، ذلك أن خديجة فوق حبّها لمحمد كانت مؤمنة به إلى حدّ الذوبان، إلى درجة لا يمكن القول معها أن محمداً

---

(١) الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦.

دعا خديجة رسمياً لاعتناق الإسلام في لحظة معينة. إن مطالعة المراحل الأولى للوحي تقود إلى قناعة بأن محمداً كان جبريل خديجة، ليكون قلبها مهبط وحي وحلقوم ظامئ لزلال الوحي والإلهام الإلهي.

الوضع السنّي والطبقي لهذين الزوجين، يستحق هنا الوقوف مليّاً. فمحمد أصغر سناً من خديجة بعشرين عاماً. وثروة العائلة كلها من تلك المرأة، أما الزوج فكان فقيراً بمعنى الكلمة، وبالتالي فإن الشأن الطبقي للأسرة مرهون بأموال هذه المرأة وثروتها. الزوج كان شاباً يعمل تحت إمرة هذه المرأة ولقاء أجر محدود، وفي زيجة كهذه تأخذ العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة منحى معروفاً على الصعيد الروحي والأخلاقي. ويكون التسلّط والهيمنة بطبيعة الحال للزوجة التي تتفوق على الزوج بكل شيء سوى أنه يتمتع بشبابه. في علاقة زوجية كهذه يكون من المتوقع جداً أن تنصهر شخصية الزوج في شخصية زوجته، فلا يحتفظ الرجل باستقلاليته الروحية أو الفكرية أو الأخلاقية. الهيمنة المطلقة تكون حينئذ من نصيب المرأة، ولن تعبأ به كثيراً أو تكترث بشخصيته إلاّ بحدود ما يلبّي حاجتها الجسدية. ومن المعروف أن فراغاً روحياً ومعنوياً شديداً تشعر به غالبية النساء اللائي يعانين في زواجهنّ من وضع مماثل.

بيد أن علاقة هذين الزوجين كانت على الضدّ مما تقتضي

طبيعة الوضع الطبقي للاثنين. لقد عمدت خديجة إلى صهر شخصيتها ومُكنتها وتفوقها في شخصية ذلك الشاب الفقير الذي كان يعمل لها ذات يوم ويتقاضى منها أجراً، وجعلت من نفسها مرآة صافية حيال روحه العظيمة وشخصيته الجذابة، تعكس ما يدور في هذه الشخصية من مشاعر وأحاسيس وعواطف وأفكار. من هنا ينبغي القول أن خديجة كانت تواكب بفارق خطوة واحدة فقط، كلّ مراحل الوحي من انطلاقته الأولى إلى آخر نداء واضح ومسدّد حدّد رسالة محمد الكبرى.

عليّ بن أبي طالب، في بيت محمد. أبوه الذي تكفل محمداً ذات يوم، خانه الزمان إلى حدّ أجبره على توزيع أولاده بين أقاربه. وكان عليّ سهم محمد لقد خطط القدر بهذه الحيلة الظريفة لجرّ عليّ إلى بيت محمد وإعداده لمستقبل الإنسانية كأكمل شخصية في الإسلام.

دخل عليٌّ بيت خديجة ومحمد، ولعلّها المرة الأولى التي يقف بها هذان الزوجان للصلاة إلى الله راكعين ساجدين. بهت عليّ وهو ينظر إلى هذه الحركات التي لم يرها من ذي قبل. تاق لرؤية نهاية هذا المشهد الساحر، وفور تسليمهما دار الحوار البريء التالي:

- لمن السجود؟!

- لله الذي أمرني أن أدعو الناس إليه. وأنا أدعوك الآن

لكي تؤمن به وتصدق رسالتي.

من ثم دعا محمد علياً لإنكار الآلهة، وتلى عليه ما أوحي إليه من آيات. عليّ ما زال صبياً صغيراً لم يتجاوز الثامنة من العمر[١]، وهو ربيب محمد ويؤمن به إيماناً مطلقاً، لكنْ أنّى لرجل عجنت فطرته بالاستقلال والاستقامة أن ينقاد بهذه السهولة لعقيدة أو يتظاهر بالانقياد لها كذباً؟! فكان أن قال:

(أمهلني أفكّر بالأمر أو أستشير أبي!)

ترك عليّ الغرفة، واتجه مباشرة نحو فراشه، وأمضى تلك الليلة يفكر في تلك الدعوة؛ وفي الآيات التي تلاها عليه محمد، وفي محمد نفسه ورسالته، وفي الله، والآلهة والأوثان . . كان يجسّم كل هذه الأمور في ذهنه، هجوم هذه الأفكار جميعاً وتقاطرها عليه أبقاه مستيقظاً حتى الصباح. وفي الصباح حسم موقفه لصالح محمد، كأنه أيقن أن هذا الأمر مما لا يستشار فيه!

يقول كارلايل: (إن مصافحة هذه اليد الصغيرة لتلك اليد الكبيرة غيّرت مجرى التاريخ).

محمد وخديجة وعليّ أول الناس إسلاماً.

وكان رابعهم زيد بن حارثة، العبد الذي اشترته خديجة

---

(١) والعاشرة، حسب ابن اسحق (ج٢ ص٢٤٥).

بمالها وأعتقه محمد، غير إنه آثر البقاء مع محمد على اللحاق بأهله ولم يصحب أباه الذي جاء ليصطحبه معه، ومن ثم تبنّاه محمد رسميّاً، وطلب من الجميع أن يسمّوه زيد بن محمد. ومع ذلك فالإسلام مازال إلى الآن في حدود بيت محمد ولم يخرج من هذه الدائرة الضيقة، وقد أمر الله محمداً بإنذار الأقربين منه ودعوتهم إلى الإسلام.

أخذ محمد يستعرض وجوه عشيرته واحداً تلو الآخر في مخيّلته، ويفكر في إمكانية دعوتهم، وكلّما فكّر أكثر تضاءل أمله فيهم:

من هم أقرباء محمد؟! العباس، المرابي الذي يعبد الثراء ولا تستأنس أذناه بغير الحديث عن الثروة والأموال، هل من شأن إنسان كهذا أن يخاطر بماله من أجل عقيدته؟ حمزة! إنه شاب طاهر وبسيط، شجاع لا يهاب أحداً، إلاّ إنه يعشق القتال والفتوة أكثر من الحق والباطل، إنه يفكّر بمنكبيه العريضين وعضديه المفتولين ويستخدمهما أكثر مما يستخدم عقله. فريق رياضة وفتوة وصيد، ولا يصلح للهموم الفكرية والعقائدية.

الأهم من هؤلاء جميعاً أبو طالب نفسه، فهو أكبر شخصية في قريش وأكثرها وجاهة واحتراماً، وهو زعيم بني هاشم. ورجل شريف ذو كرم وسماحة، ويكنّ لمحمد خاصة حباً جماً، بيد أنه على كل حال رجل محافظ ويتمتع بمكانة

اجتماعية لا تسمح له بأن يتبع محمداً في كل شيء، ويقطع كل أواصره مع دينه ومجتمعه ووجهاء مدينته وأقربائه.

والشخص الآخر المهم أبو لهب، رجل حقود بغيض، مستعد للتضحية بكل شيء؛ من أجل تجارته. حتى أنه يعبد الأوثان لأنها تضمن الأمن لمكّة، وهو يريد الأمن لأنه عنصر مهم في ازدهار التجارة. إن دين أبي لهب ومقدساته تختزل في شيء واحد اسمه الأمن والأمان، فكيف يمكنه أن يرضى بدين سيأتي في أول خطوة له على هذا الأمان، ويجعل كل شيء عرضة للتبدل والانقلاب؟ أما زوجته فهي شريكة له في الشرّ والخبث، جميلة أخت أبي سفيان! ولا توجد في مكة أسرة تؤذي محمداً أكثر من آل أبي لهب.

لم يعثر محمد على بارقة أمل في جباه أي من هؤلاء، وهو من ناحية أخرى مطالب بأن يبتدئ دعوته منهم؛ مهمة صعبة للغاية. ظل متردداً ومضطرباً في هذا الأمر شهراً كاملاً حتى مرض من شدة اللوعة وكثرة التفكير.

التاريخ يشهد بأن رجال الثورة يترعرعون - كما أسلفت - في احضان الرجعية، ومن هنا، فإن أول أعداء الثورة وأشدّهم خصومة لهم، أقرباؤهم. وعلى أي حال، فإن محمداً مأمور بإبلاغ دعوته إلى هؤلاء كنقطة للانطلاق نحو غيرهم.

أبلغ محمد خديجة بأن تعدّ طعاماً ليستضيف بني

عمومته، لكي يفاتحهم بالأمر. اجتمع الضيوف أربعين شخصاً من أبناء وبنات عبد المطلب وغيرهم من أقارب محمد، ليبتدئ هو الحديث، ولكنّ أبا لهب قطع حديثه وصرخ بأن محمداً ساحر، ولم يفسح له المجال بأن يعرض دعوته على الحاضرين، وتفرّق القوم بلا نتيجة.

عاود محمد دعوة أولاد عبد المطلب، وبعد تناول الطعام وقف بينهم ليقول:

(يا بني عبد المطلب! اني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي عليكم؟

أشار الأعمام إلى بعضهم بغضب أو بابتسامة ساخرة أن انصرفوا. وفجأة وثب عليّ صبيّ أبي طالب، من جوار والده الذي أطبق حاسراً أسفاً على ما يجري، فصاح بصوت طفولي بريء، وحماسيّ قويّ:

((أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا)) [(١)].

ضحك الحاضرون وسخروا من محمد الذي لم يجد

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٢.

ناصراً له سوى طفل صغير، ومن أبي طالب الذي ظهر له صبيّ يتأمّر عليه، ومن عليّ الذي أطلق لسانه بالكفر بحضور أبيه.

هكذا تفرّق الجمع، ولم يبق سوى محمد وخديجة وعليّ. وفي اليوم التالي بدا محمد مسروراً كونه نجح في أداء الوظيفة الملقاة على عاتقه، خرج من بيته وأخذ يدعو الناس إلى الخروج إلى ظهر مكة لسماع خبر مهمّ، تجمّع القوم أعلى جبل الصفا. كانت السنّة في مكة أنه متى ما كان ثمة خبر هام يتعلّق بمصير مكة ومستقبل أهلها، ينادى بالناس في الأزقة ويدعون إلى الاجتماع في مكان محدد للإصغاء للخبر. وهذا ما صنعه محمد أيضاً. صعد رسول الله ذات يوم الصفا، فصاح يا صباحاه!!

انتشر الخبر في مكة أن محمداً يدعو الناس لخبر مهم، خرجوا عن بكرة أبيهم واجتمعوا حول محمد في الصفا فنادى فيهم:

أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أوممسيكم، أماكنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، فال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال ابو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله عز وجل: تبت يدا أبي لهب وتب الى أخر السورة(١).

---

(١) (ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا)، يراجع: سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٣٩ .

وهكذا ترك القوم محمداً على قمة جبل الصفا، وعادوا أدراجهم بين شاتم وشامت، يتوسطهم أبو لهب وزوجته. وبينما محمد ينظر بعينيه الدافئتين إلى القوم الذين بعث لهدايتهم، ويلاحظ السعي المحموم لأبي جهل وزوجته، سمع نفسه يقول:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[١].

المسلمون الأوائل

ذهبت جهود محمد عبثاً، ولم يحرّك نسيم الوحي ساكناً في شجرة بني هاشم بما لها من جذر عميق وساق رفيع.

ومرّت الشهور، دون أن يلقى محمد حيال دعوته سوى السخرية والتهديد أو الصمت في أحسن الأحوال. ولكن فجأة وقعت حادثة مهمة؛ طرق الباب على بيت محمد الذي مازال الإسلام محصوراً فيه، من الطارق؟ إنه الشيخ الثريّ صديق محمد. لم يكن متوقعاً أبداً أن تنضمّ شخصية تنتمي إلى طبقة الأشراف وكبار السن، إلى التوجه الثوري الجديد، وفي المراحل الأولى لهذا التوجّه الفكري، رغم ما هو معروف من أن

(١) سورة المسد.

الانتماء لهاتين الطبقتين يستبطن احتراماً كبيراً للعلاقات الدينية والروابط الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية المصنّفة على الوضع القائم.

كان هذا الشيخ خامس الناس إسلاماً، وأولهم من خارج بيت محمد. أبو بكر بن أبي قحافة، التاجر المعروف ذو الوجاهة والنفوذ في أوساط قريش، يقبل بدعوة محمد ويؤمن به دون تردد[١].

لقد أخرج أبو بكر الإسلام من دائرة بيت محمد، إلى دائرة مكة، ليؤمن به أصدقاؤه من أصحاب النفوذ أيضاً، وهم خمسة أشخاص:

الأول: عثمان بن عفان، جدّته لأمه، البيضاء بنت عبد المطلب. تزوّج بابنتي الرسول تباعاً ولذا يلقّب بذي النورين. رجل يميل إلى التظاهر بالقدسية سطحيّ الشخصية، ودود، ذو وجاهة، مترف، ضعيف حيال نفوذ الأقرباء والأصدقاء، لم يحضر بدراً بسبب مرض زوجته رقية.

الثاني: الزبير بن العوام، ابن عمة النبي (صفية بنت عبد المطلب)، كان في هذه الأثناء صبيّاً لم يتجاوز الثامنة أو الخامسة عشرة، على اختلاف الروايات. لم يتخلّف عن أي غزوة، وهو

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٢٥٢ .

أول من سلّ سيفاً في الإسلام.

رجل ثريّ [فيما بعد] كان له ألف مملوك يدفعون له الخراج دون أن يصل من تلك الأموال الطائلة شيء إلى بيته، كان يفرّقها على المحتاجين. ناوء عثمان خلال خلافته، وناصر علياً لما بينهما من آصرة قربى، صار لاحقاً من قادة النهضة ضد عثمان أواخر خلافة الأخير والتي انتهت باستقرار الخلافة بيد عليّ. غير أن عليّاً لم يمنحه المنصب الذي كان يرجوه وذلك لعدم ثقته بأهلية الزبير من الناحية السلوكية؛ الأمر الذي أثار زبيراً وحمله هو وطلحة لتحريض عائشة على الخروج ضدّ علي في معركة الجمل التي قتل فيها طلحة والزبير[١].

الثالث: **عبد الرحمن بن عوف**، هاجر الهجرتين واشترك في جميع الغزوات. صار مستشاراً نافذاً في حكومة عثمان، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة ويشيد قصوراً فخمة. لعب في الشورى التي شكّلها عمر لتعيين الخليفة من بعده، دوراً مؤثراً في حجب الخلافة من عليّ لصالح عثمان، فلقد كان صهره.

الرابع: **سعد بن أبي وقاص** الذي قاد جيش عمر لفتح بلاد فارس ومصر، وله في الفتوحات الإسلامية مآثر ومشاهد لا تنسى.

---

(١) تكلم عليّ مع الزبير وأقنعه بالانسحاب من المعركة لكنه قتل في الطريق.

الخامس: طلحة بن عبيد الله، لقّبه النبي بـ(طلحة الخير)، ولكنه تظافر مع الزبير في خلافه مع عليّ أيام خلافته، وذلك أنه لم يحظ من علي بما كان يتوخّاه من مكرمة وهبات، اشترك في معركة الجمل ضد عليّ وقتل فيها.

بعد إسلام هؤلاء النفر الستة، وكانوا عموماً من أثرياء مكة ووجهائها، ذاع صيت الإسلام في كل مكان، وحمل المكيّون دعوة محمد على محمل الجدّ، واستجاب للدعوة شخصيات ووجوه معروفة أخرى وذلك خلال سنينها الأولى: أبو عبيد عامر بن الجراح، القائد الإسلامي الشهير، أبو سلمة ابن عمة النبي (برّة بنت عبد المطلب) الذي هاجر مع زوجته أم سلمة إلى الحبشة، شهد بدراً وأصيب خلالها بجراح استشهد على أثرها وتزوج النبي من أرملته، الأرقم بن أبي الأرقم الذي كانت داره فوق جبل الصفا محلّ الدعوة السرّية التي مارسها النبي إلى أن بلغ عدد المسلمين أربعين شخصاً كان آخرهم عمر بن الخطاب، ومن بعد دخول عمر الإسلام، انتقلت الدعوة النبوية من السرّ إلى العلن. وعثمان بن مظعون وأخواه عبد الله وقدامة، كان عثمان رابع عشر فيمن أسلم، وهو من الذين حرّموا على أنفسهم شرب الخمر في الجاهلية، وقال: لا أشرب ما يذهب بعقلي فيسخر مني من هو دوني!

عبيدة بن الحارث الذي آمن بمحمد قبل أن يتخفى بدعوته

في دار ابن أبي الأرقم، وهاجر مع أخويه طفيل وحصين إلى المدينة، وكان له حظوة ومكانة عند النبي. سعيد بن زيد ابن عم عمر بن الخطاب. وكانت فاطمة أخت عمر زوجته، وأخت سعيد عاتكة كانت زوجة عمر، وحينما أسلم سعيد وزوجته فاطمة، بلغ الخبر عمراً بينما كان يستعدّ لقتل محمد، ولكنه أراد أن يطهّر أسرته من هذا الخطر قبل أن يخلّص قريشاً من محمد، قصد دار أخته ودخل عليها غاضباً وهمّ بضربها حتى الموت، وبينما كان مستنداً على ناحية في الدار لشدّة حنقه وإرهاقه، وقعت عيناه على آيات من القرآن كتبت على قرطاس من جلد، قرئت عليه فأحدث ذلك انقلاباً روحياً في وجدانه، وطلب من أخته وزوجها أن يذهبا به إلى حيث يختفي محمد ليعلن إسلامه على يديه، ففعلا وخرج عمر بعد أول لقاء له بالنبي مسلماً عنيداً. أسماء وعائشة الصبية الصغيرة ابنتا أبي بكر، الأولى تزوجت من الزبير بن العوام، والثانية تزوجها النبي. خباب بن الأرت حليف بني زهرة الذي عذّب عذاباً شديداً من أجل إيمانه حديثاً، وصبر صبر الرجال. عمير أخو سعد بن أبي وقاص، كان صبيّاً، منعه النبي من الاشتراك في غزوة بدر نظراً لصغر سنّه، فبكى بكاءً شديداً وأصرّ على النبي لكي يسمح له، ففعل ﷺ، وداهم عمير جيش العدو في القلب طلباً للشهادة فنالها وهو لما يبلغ من العمر (١٦) عاماً.

جندب بن جنادة، رجل من قبيلة خطيرة وسيئة الصيت

في الصحراء، قبيلة (غفار) التي كان رجالها قطاع طريق لا يقيمون وزناً حتى للأشهر الحرم، ولا يتورعون عن اقتراف أي جريمة. غير أن جندباً ومنذ ثلاث سنوات شهد على مستوى الوجدان ثورة روحية أقضّت مضجعه، قطعت صلته بـ(فلس) وثن بني غفار، وأضرمت نار الشك في قلبه وضميره، وأحرقت كل ما كان يحيط بقلبه وعقله من حجب الوراثة والبيئة وحوّلها إلى رماد تذروه الرياح. كان يتحرق بلوعة في سنوات الظلمة والجاهلية ويكابد مما يراه بعينيه ولا يقبله بقلبه وعقله، إلى أن ذات ليلة، وبينما كانت غفار تدور حول (فلس) ضمن أداء طقوسها العبادية، كان جندب يموج في بحر الأفكار المتلاطمة، وقد رمى ببصره نحو السماء الحاشدة بالنجوم، فجأة إذا بنور قبس يشتعل في ظلمة صدره ويحسّ أنه قد عثر لتوّه على ما كان يبحث عنه ويقتفي أثره، سجد لهذا المحبوب ومن فرط الاشتياق أجهش باكياً.

بعد ثلاث سنوات بلغه أن في مكة أخباراً! بعث بأخيه إلى مكة ليستقصي الحقيقة، لكنه لم يقنع بما رواه له أخوه، فقرر الذهاب بنفسه، ولأن محمداً كان متخفياً حينها، ولأن أحداً لم يكن مستعداً لإيواء رجل من (غفار) قبيلة قطاع الطرق واللصوص، وفي مدينة التجار والقوافل (مكة)، لم يجد جندب بداً من أن يلوذ بالمسجد الحرام. وصادف أن يلقاه عليّ، وحمل هذا الغريب البائس إلى داره ثلاثة ليال متوالية، وفي الليلة

الثالثة، اطلع على سرّ الرجل، وسار به يسبقه ببضع خطوات نحو دار ابن الأرقم.

لقد أمضى جندب سنوات طويلة يتجرّع المرارة بانتظار هذه اللحظة، وحينما كان ينحدر من جبل الصفا نحو دار الأرقم، كان في حالة الصيرورة مسلماً، وكلّما كان يقترب خطوة يزداد إيماناً وإسلاماً، ولم يبق سوى أن يلتقي محمداً الذي تاق إلى رؤيته منذ زمن.

الإيمان والحب ينفذان إلى أعماق الوجدان على نحو خفيّ، دون أن يشعر بهما أحد، ولا يلتفت العقل لذلك إلاّ بعد ما تضطرم النار في أعماق الوجدان، ويرى أن ملكوت الحب قد استولى على الوجود الإنساني بأسره، وأن ينبوع الإيمان غمر الروح، ولم يعد ثمة مجال للعقل والتدبير والتفكير المقرون بالمصلحة، ولا خيار سوى التسليم وإلقاء السلاح ومن ثم التحول إلى خندق الدفاع عمّن يحبّ ومن يؤمن به.

(جندب بن جنادة) الأعرابي المنتمي إلى قبيلة (غفار)، الهمج الرعاع وقطاع الطرق، هو الآن يفد على دار ابن أبي الأرقم، ليصبح بعد لحظات (أبا ذر الغفاري). لا نعلم ماذا قال له محمد في ذلك البيت، وماذا سمع هو من محمد، وما الذي رآه في محيّا محمد واستوحاه من نظراته ولحن كلامه الخلاّب، ما الذي وجده فيه؟ الشيء الوحيد الذي نعرفه أن وجه أبي ذر،

بعد ذلك اللقاء الأول، بات متلهباً وفي عينيه بريق لم يعهد من قبل، لقد أضرم محمد النار في روح أبي ذر، وفجّر في صدره طاقة جبارة لم يكن أبو ذر يطيق تحملها، وأوصاه محمد أن يكتم هذه الطاقة ويخفيها عن عيون قريش إذا مرّ في أزقة مكة واقترب من الكعبة حيث اللات والعزى وهبل وأساف ونائلة، عليه أن يبادر للعودة إلى قومه ويتجنب المكوث في مكة فالخطر يحدق به من كل جانب، فليذهب إلى غفار وينتظر اليوم الموعود. كان على أبي ذر أن يلزم جانب التقية لكي لا تخطف يد الجهل والعصبية الصحابي الوفيّ الذي سيصبح فيما بعد خليلاً للنبي وصديقاً حميماً له.

ولكن، أنى لربيب الصحراء وقلبه الولهان أن يتحمّلا هذه النار المضطرمة ويكتماها عن عيون الرقابة المكية. الروح المتولدة من اقتران السماء والصحراء مرآة لا تقدر أن تخفي ضوء الشمس. ماذا أقول؟ الشمس لا تشرق على المرآة، المرآة تستهوي الشمس لكي تطلع فيها من جديد.

بعد ردهة وجيزة من اللقاء بمحمد، وقف أبو ذر حيال الكعبة وأوثانها متحدياً قريشاً بأسرها ليصرخ عالياً بشهادة (أن لا إله إلا الله) و(أن محمداً رسول الله). لم تلبث قريش أن جعلت أبا ذر تحت أقدامها، لتشبعه ركلاً وضرباً، ولم يخلّصه من أيديهم سوى وصول أبي طالب وتهديده لهم بأن الرجل من

غفار، وقتله يعني إغضابها، وإغضابها يعني سدّ الطريق بوجه قوافل قريش نحو الشام. ولما كانت التجارة روح مكة فسرعان ما استوعب القوم رسالة أبي طالب وتركوا أبا ذر طريح الأرض مثخناً بجراحه ومضمّخاً بدمه. حاول أبو ذر جاهداً أن يوصل نفسه زحفاً نحو بئر زمزم ليغسل جراحه، وليعاود الكرة في اليوم التالي، إلى أن أمره الرسول بالإقلاع والعودة إلى أهله فوراً وتحمل مرارة الصبر والصمت حتى حلول العام القادم. وفي غفار أخذ أبو ذر يدعو قومه إلى الإسلام، وصار صديقاً حميماً للنبي ومن أجلّة الصحابة الأوفياء وتعلّم الكثير من المعارف. وفي المدينة (يثرب) صار أبو ذر فيما بعد من أصحاب الصفة يقطن المسجد وبعد وفاة حبيبه الأكبر نصب لنفسه خيمة خارج المدينة، وعكف يعيش فيها لوحده. في أيام خلافة عثمان تصدى لقيادة حملة نضالية شعواء لا أمان فيها ضد جهاز الحكم الجائر لعثمان وصاحبه معاوية، انتهت بنفيه إلى الربذة ليعيش وحده ويموت وحده كما تنبأ النبي بذلك في حديث(١).

على الجانب الآخر، استمرت دعوة محمد بالانتشار والسريان بين أوساط العبيد والموالي والبؤساء من الناس و(الأراذل) من أهل مكة، وبقدر ما اصطف الأثرياء والوجهاء

---

(١) للمزيد يراجع (ابو ذر الغفاري) ترجمة وتأليف المؤلف.

سدّاً منيعاً بوجه الدعوة المحمدية، نجد أن ضحايا الظلم والجور ورأس المال في المجتمع المكي راحوا يلتفّون حول هذه الدعوة معتبرين أن شعاراتها الأساسية هي التي تكفل لهم النجاة، وبات الإسلام في نظرهم الملاذ الآمن الوحيد لهم، حتى شعروا وكأن الإسلام دينهم هم وأن ثورة محمد هي ثورة العبيد والفقراء على السادة والأثرياء. لقد عزّز سلوك محمد هذا الشعور لديهم وذلك من خلال مجالسته للبؤساء والمحرومين، وميله إليهم أكثر ممن سواهم حتى وصفوه بأنه (أبو الفقراء) ونبزوه بأنهم لا يجمع حوله إلاّ أراذل القوم.

وكان الهم الأكبر لمحمد هو ممارسات التعذيب التي كانت تجري على قدم وساق بحق هؤلاء. فالمسلمون المنتسبون إلى أسر معتبرة معروفة من قريش كانوا يتمتعون بحصانة اجتماعية تمنع من قتلهم أو تعذيبهم. وكان المكيون يكتفون بتقريعهم وتوبيخهم وإسماعهم كلمات نابذه في أسوأ الأحوال. أما المحرومون والمغمورون فهم الفريسة السهلة لأشراف مكة.

بلال، العبد النحيف، الغريب، يخرجه سيّده أمية بن خلف يوماً إلى موقع يقال له (مسيل) خارج مكة، وهناك يلقيه في غدير ماء ويأخذ برأسه ويغمره بالماء حتى ينقطع نفسه، ويكرر هذا العمل الذي لا يطاق حتى يغمى عليه ولا يعود بالإمكان الاستمرار باللعبة. وحيال إصرار أمية وتهديده بلالاً

لكي ينال من محمد ويذكره بسوء، كان بلال يغتنم فرصة إخراج رأسه من الماء للحظة فيرمي ببصره إلى أمية وأبي جهل وينطق بكلمة واحدة كأنه لا يعرف غيرها: أحد .. أحد..

هذا الأمر كان يزيد أمية وأبا جهل حنقاً عليه فيجرّدانه من ملابسه ويلقيان بدنه العاري على الحصى اللاهب جرّاء شمس الصحراء، ولا يكتفيان بذلك, بل يأتيان بصخرة كبيرة يضعانها على صدره النحيف، ومع الركل والضرب والشتم والسب يطالبانه مجدداً بالنيل من محمد، فيجابه رغبتهما بالصمت المطبق، وإذا أتيحت له فرصة النطق بشيء لا ينطق سوى الكلمة الوحيدة التي يبدو أنه نسي ما سواها آنذاك: أحد .. أحد. ليستشيط أمية ويصاب بالهستيريا والجنون من هذا العبد الحبشي العنيد، فيرفع الصخرة عن صدر بلال ويجيء بحبل من مسد يربطه في ساق بلال ويدعو صبية مكة وأوباشها ليسحبوه على رمال مكة.

هذه اللعبة الوحشية المقيتة تتكرر كل يوم، ومحمد يراها أو يسمع بها، ولم تكن معاناته منها بأقلّ من معاناة بلال. وأخيراً وتلبيةً لطلب من الرسول، أقدم أبو بكر وبعض الصحابة على شراء بلال من أمية وعتقه. وكان مصير آل ياسر أشدّ بأساً وتنكيلاً. سمية جارية سوداء تزوجت من ياسر، وكانت ثمرة زواجهما عماراً، وهو الشخصية الكبيرة التي واكبت دعوة محمد

منذ انطلاقاتها الأولى إلى آخر أيام خلافة عليّ، وعلى مدى نصف قرن وقف عمار حياته رخيصة من أجل الإسلام، وتحمل ألوان العذاب والمشقة نصرة لمحمد ودفاعاً عن حق علي حتى استشهد في هذا الطريق. وتعدّ هذه الأسرة الثلاثية الأفراد، واحدة من أسمى الأسر شأناً وقداسة وشجاعة على صعيد البشرية، وهي الثانية - دون شك - بعد آل عليّ على صعيد التربية الإنسانية الصالحة.

لم يكن لدى ياسر وسمية وعمار في مكة من متاع ورأسمال سوى حبّهم وإيمانهم. ولم يكن لهم نصير وصاحب سوى محمد. كانوا أسهل فريسة لأشراف قريش، وقد تفنّن أبو جهل وأعوانه في تعذيبهم بطرق وحشية. كانوا يحملون عماراً وأبويه العجوزين يومياً إلى الوادي القريب من مكة حيث يعذّب المسلمون، ويربطونهم على الحصى اللاهب تحت أشعة الشمس الحارقة ساعات وساعات. وكان محمد يمرّ بمنطقة التعذيب، ويستطلع عن حال أصحابه ويدعوهم للصبر والتحمل ويسلّيهم، لكنه كان قلقاً خاصة على مصير آل ياسر ويتفقدهم يومياً. وذات يوم واجه منظراً مروعاً، لقد اكتشف أن ياسر وسمية قد فارقا الحياة تحت وطأة التعذيب الشديد؛ سمية، المرأة الرشيدة السوداء، أغضبت أبا جهل بصبرها العجيب وعنادها الغريب، إلى درجة استشاط غيظاً منها ومن صمودها الذي ليس له نظير، فنادى على رمح ليغرزه في صدرها ويقضي

عليها أمام ناظرَي زوجها وابنها.

مرّ محمد على عمّار الذي بقي ذلك اليوم فريداً وحيداً، في الأيام السالفة كان عمار يواجه محمداً وهو في مسرح التعذيب شامخاً مرفوع الرأس باعتبار صموده بوجه التعذيب، ولكن عماراً اليوم مطرق برأسه والعرق يتصبب من جبينه حياءً وخجلاً, حتى أنه لا يقوى على رفع عينيه والنظر في عيني محمد، ما الخبر؟!

لقد علم محمد أن الموت الفجيع لسمية وياسر وكذلك التعذيب الوحشي للغاية الذي لقيه عمّار، بلغ حدّاً لم يطق عمار الصبر عليه، فانهار لحظة وصدرت منه الكلمة التي كان يكره النطق بها فيما كان أبو جهل يتمنى سماعها على لسان أحد من آل ياسر؛ مسح محمد بيديه، على رأس عمّار وداعب شعره الأشعث المغبرّ وقال له بصوت رؤوم: لا تخف مما نطقت بلسانك ولم يكن في قلبك.

رفع عمار رأسه بانكسار، ونظر إلى محمد نظرة خجل واستحياء، وقال بصوت ملؤه الأسى والحسرة: هكذا الدهر، وأجهش باكياً.(١)

ويوماً بعد آخر يسخن حمام التعذيب أكثر، ومسلمو مكة

(١) الوعد الحق، د. طه حسين.

العزّل الأبرياء يواصلون تسجيل أروع الأمثلة في الصبر والتحدي والمقاومة رجالاً ونساءً من أجل العقيدة التي آمنوا بها.

رجال مثل صهيب الرومي، وحباب بن الأرت وأبي فكيهة، ونساء مثل جارية عمر بن الخطاب التي كان يعذّبها بشدّة، صمدوا بقوة أمام تعذيب المشركين. هذه امرأة تموت تحت وطأة التعذيب لرفضها التخلّي عن دين محمد، وتلك يصار بها إلى الصحراء ليقضى عليها هناك، غير أن هذه الممارسات الوحشية لم تزد النساء والعبيد والفقراء إلا صلابة في الموقف، وثباتاً على الإيمان، ومغالاة في حبّ محمد؛ محمد الذي كان يدعو هؤلاء المحرومين لمزيد من الصبر، ويعدهم بالنصر القريب وبالسيطرة على ملك كسرى وقيصر . . . قريش تسخر من كلام محمد. الأسود بن عبد يغوث يمرّ على المسلمين في ميدان التعذيب، ويقول مقهقهاً: انظروا الى الملوك على الأرض، هؤلاء من وعدهم محمد بملك كسرى وقيصر!

إسلام عمر وحمزة غيّر المعادلة بمقدار ما، لقد قويت شوكة المسلمين قليلاً. حمزة عمّ محمد وصياد الأسود، البطل الصنديد، عاد يوماً من الصيد ومرّ على أبي جهل وسمعه ينال من محمد ويذكره بسوء، ثارت حميّته لابن أخيه، ورأى أن السكوت يخالف المروءة، فاتجه فوراً صوب المسجد الحرام،

ووقف أمام أنظار بني مخزوم [قوم أبي جهل] وانهال على رأسه ضرباً بقوسه حتى أدماه، أما أبو جهل فمن شدة خوفه لم يكتف بالسكوت بل بادر إلى الاعتذار.

هؤلاء هم أوائل الرجال الذين آمنوا بمحمد ساعة العسرة ووقت الشدة ولم يبخلوا في ذلك عن تحمل ألوان العذاب والتضحية بالمال والمنال وراحة البال. وإذا كان الإسلام قد قدّم خدمات جليلة للإنسانية على صعيد إيقاظ البشر وتهذيبهم معنوياً ورفع مستواهم الحضاري، فلا ريب

أن لهؤلاء الأفذاذ دَيناً ليس في أعناق المسلمين فحسب بل في عنق التمدن البشري على الأصعدة كافة. وإن التعرف على هؤلاء لا يعيننا في فهم الإسلام من مصادره الأولى فحسب، بل سيكون بوسعنا قراءة شخصية محمد بمعالمها الدقيقة في عيون هؤلاء الرجال.

محمد والمعجزة

ما يستهوي الإنسان المعاصر من شخصية محمد وسيرته، هو احترامه لنواميس الطبيعة وقوانين الحياة وفلسفة الأخلاق ونظامها المنطقي وسائر الحقائق العلمية والعملية، في حال أن المناخ والبيئة التي كان يعيش فيها محمد حافلة بالخرافات والعقائد الوهمية وخوارق العادات.

ولم يكن يؤثر في نفس الإنسان وشعوره آنذاك سوى الأمر المعجز والعمل المخالف للعادة عقلاً أو حساً، لم يكن الناس يؤمنون ويوقنون ويذعنون إلاّ لما يثير دهشتهم وإعجابهم ويبقيهم حيارى مذهولين. ومن هنا، نلاحظ أن البشرية على مرّ التاريخ كانت تتطلع إلى (المعجزة) وتنشد إلى (الغيب) وهذا هو السرّ في امتلاء سجلاّت التاريخ بالأوهام والخرافات.

إن هذا التعلّق والانشداد الكبير نحو اللامعقول واللامحسوس، يتجلّى بطبيعة الحال بدرجات أكبر، في أوساط أناس هم أبعد شيء عن الحضارة والمدنية. وقد أثبت علماء الاجتماع أن المجتمعات البدوية وخاصة سكان الصحراء توّاقون دائماً إلى التصديق بالوهم والخرافة، وبقدر ما هم قريبون من الطبيعة، نجد عندهم نزوعاً شديداً نحو (ما وراء الطبيعة)، والخرافة هي الوليد المشؤوم لهذه الظاهرة الاجتماعية. سكان الصحاري والبوادي يتطلعون دائماً إلى رؤية (المعجزة) وهم يسيحون في الصحراء المترامية الأطراف الصامتة صمتاً محيّراً، وتحت سماء صافية ساحة ممتدة لا يحجبها إلاّ الأفق البعيد. العالم الذي يقطن فيه الإنسان البدوي مليء بالأرواح والأشباح والأسرار العجيبة، السماء موطن الآلهة والملائكة التي لا تعدّ ولا تحصى، والفضاء الرحب روضة تموج فيها أرواح الخير والشر، أما الطبقات الأرضية السفلى فهي مركز تجمع الكائنات الغيبية. كل الأشياء لها في عين الإنسان البدوي حظّ من الحياة؛

الكواكب والنجوم، البحار والجبال، الرياح والظلال، لكل كائن من هذه الكائنات حياة خفية وإرادة غامضة وتأثير غيبيّ في العالم وفي مصير الإنسان وروحه ومشاعره وحياته اليومية.

ومن هنا، نلاحظ أن كل شيء في حياتهم قائم على افتراضات ترتبط بأمور غيبية خارقة للعادة؛ علومهم وفنونهم وأعمالهم وحرفهم، كل قبيلة وكل صنف من الناس يجمعهم قاسم مشترك ولو كان هو الحرفة والمهنة من نجار أو بناء أو حداد، كل هذه الصنوف مردّها إلى أمور غيبية وبالذات (المعجزة)[١]. الأب الأعلى لكل قبيلة عبارة عن روح خفية تتسم بالخلود ولو عبر الحلول في هيئة حيوان يرعى من العالم الأعلى مصير قبيلته، فتارة يكون غراباً وأخرى نسراً وثالثة صقراً وربما ذئباً أو نمراً أو أسداً[٢]. فيما مضى كان يتعين على كل كيان موجود أن يبرّر بقاءه وخلوده على نحو يرتبط بمعجزة أو بأمر خارق للعادة[٣].

---

(١) يراجع بدايات الكتب التي تؤرخ للمدن مثل تاريخ قم ويزد ونيسابور وكرمان وتاريخ بغداد وبخارى وغيرها.

(٢) مسألة الاعتقاد بالأب الأعلى عند القبائل البدوية، يراجع (التاريخ العام للأديان) ودروسي في تاريخ الاديان في كلية الآداب للعام الدراسي ٦٧-١٩٦٨م.

(٣) وهذه قضية جديرة بالتأمل لأنها تكشف بعمق عن سرّ تكوين الانسان، وللمزيد تراجع مقدمتي على كتاب (في النقد والادب) وهو تحليل للفطرة الانسانية وتفسير جديد للدين والعرفان والفن، وكذلك كتاب (الدين او البعد الانساني الرابع)، ترجمة المهندس بياني وتقديم المهندس بازركان.

هاهنا يتضح لنا كيف يستند الدين والثقافة والتراث والعلوم والفنون والآداب وكل المظاهر المادية والمعنوية للحياة البشرية، إلى أسس غيبية، فتكون بطبيعة الحال مليئة بالخرافات والأوهام والأراجيف غير المستندة إلى عقل أو حس.

إن روح الإنسان القديم لم تكن تتأثر بشيء إلا اذا سحر ذلك الشيء عينيه ولم يجدْ بدّاً من الانبهار به فيضطر إلى تفسيره تفسيراً غيبياً مشوباً بهالة من الغموض والإبهام.

ومن هنا نرى أيضاً، أن الأمر لم يقتصر على الأنبياء فحسب، بل إن القادة والزعماء والحكماء عمدوا بدورهم إلى تبرير أفعالهم أو أقوالهم عبر ربطها بأمور غيبية خارقة للمألوف(١). وفي هذا السياق يكون من الحريّ بالأنبياء أن يلجأوا إلى التمسك بالمعجزة الغيبية، خاصة وأن رسالاتهم قائمة على أساس الغيب، وذلك أن الإعجاز هو الأكثر تأثيراً في نفوس أبناء ذلك الزمان أكثر مما يكون للمنطق والعلم والفلسفة والاستدلال العقلي والحسي من دور وتأثير(*).

---

(١) مثل المجد الايزدي لدى ملوك فارس، وابناء الشمس عند اليابانيين، وظل الله عند الفرنسيين، وعبادة الملوك في وادي الرافدين.

(*) المعجزة تعدّ مبدئياً أحد المعايير المعرفية العامة، التي يمكن بواسطتها التمييز بين العباقرة من بني البشر وبين الأنبياء الإلهيين، ومعروف أن المعجزة الخالدة لنبي الإسلام هي القرآن الكريم.

ولكن قصة محمد، المبعوث نبياً إلى أكثر المجتمعات بدائية، استثناء من القاعدة. لم يكن في مجتمع محمد وفي أكثر مدنه انفتاحاً وتطوراً، أي في مكة العاصمة التجارية لشبه جزيرة العرب، لم يكن فيها سوى سبعة أنفار يعرفون القراءة والكتابة، وما سوى هؤلاء من أهل الجزيرة ومكة لم يكونوا يفكرون فيما عدا الحرب والغارة والقتال والسيف والإبل وكثرة الأولاد الذكور. في مجتمع كهذا يعلن محمد معجزته في صورة (كتاب)، وهذا لعمري معجزة في حد ذاته. الكتاب! في بلد لم يذكر التاريخ أن أهله يفقهون ماذا يعني الكتاب أو يكونون قد رأوه من ذي قبل. وإله محمد لا يقسم إلا بـ(القلم وما يسطرون) في أوساط مجتمع يعتبر أبناؤه القلم جهد العاجز وآلة المغمورين، وتلك معجزة أخرى.

في المجتمع الرومي المتحضر، ظهر عيسى بمعجزته متمثلةً بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ومحمد جاء لمجتمعه بكتاب! موسى انبرى لمقارعة فرعون بعصاه الإعجازية ومحمد رفع (القلم) سلاحاً للمواجهة!

ما أعجب ذلك! دين معجزته الكتاب وإلهه يقسم بالقلم وما يسطرون، ولكن المجتمع أمّي والنبي أمّي، كذلك يصفه ربّه بصريح العبارة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن

كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[١].

لم تظهر معجزة الكتاب لا في أثينا ولا في روما ولا في المدائن ولا في الإسكندرية بل في قلب الصحراء وعلى رمالها اللاهبة وفي أوساط إبلها الوحشية، والذي يأتي بهذه المعجزة لا هو أفلاطون ولا ارسطو ولا سيلون ولا ابيكتوت ولا افلوطين ولا حكماء الصين أو عرفاء الهند ولا علماء إيران، بل شاب يتيم مغمور لا سند له ولا ظهير. كان إلى وقت قريب يرعى أغنام الناس لقاء قراريط. نبي معجزته الكتاب وربّه يقسم بالقلم وما يسطرون، وهو بنفسه محروم من نعمة القدرة على القراءة والكتابة، وهذا بعينه معجزة! معجزة كبرى، مذهلة وخالدة[٢].

الكتاب هو المعجزة الوحيدة التي يمكن رؤيتها على الدوام، ويتجلّى البعد الإعجازي فيه يوماً بعد آخر. وهو المعجزة الوحيدة التي تضمر للمستقبل بعداً إعجازياً قد لا يكتشفه أهل هذا الزمان. وهو المعجزة الوحيدة التي كلّما زاد عقل المرء وحكمته وكلما تكامل المجتمع وتطور، كلما كان قادراً على إدراك كنه إعجازه بمستوى أكبر وأعمق. المعجزة

---

(١) العنكبوت : ٤٨ .

(٢) من الجوانب الإعجازية في القرآن أن له قالباً واحداً على صعيد اللغة والبيان، في حال أن الكاتب الواحد لا يقدر على الاحتفاظ بنمط واحد من الكتابة على مدى ثلاث وعشرين سنة.

الوحيدة التي لا يقتصر الإيمان بها على المعتقدين بالأمور الغيبية، بل يعترف بها كل ذي عقل وتدبير. المعجزة الوحيدة المؤثرة في النخبة قبل العوام وفي المجتمعات المتحضرة ذات النظرة الواقعية أكثر من المجتمعات البدوية ذات النزعة الخرافية. الكتاب هو المعجزة الوحيدة التي لا تتطلع إلى إثارة إعجاب الناظرين ودهشتهم على غرار المعجزات الأخرى. وهي ليست مقدمة أو وسيلة للإذعان للرسالة، بل هو الرسالة ذاتها والهدف بعينه والمتمثل بتربية وتعليم المؤمنين به. وبكلمة واحدة ان معجزة محمد ليست مقولة من المقولات اللابشرية، وإن كانت إنجازاً غير بشري.

المعاجز السابقة كانت تستخدم وتوظّف كعامل مساعد في حضّ الناس على الإيمان بالنبي وعلى نطاق محدود بعدد الذين أتيحت لهم رؤية المعجزة حال وقوعها، وليس لها جدوى غير ذلك. لكن معجزة محمد تمثل أعلى أنواع الاستعداد الإنساني، وبوسعها أن تشكل أسمى شيء يقتدى به؛ قدوة متى ما شاء المرء وجدها. معجزة محمد ليست ببارقة نور اتقدت فجأة في كبد السماء ثم خمدت بمجرد أن اتجهت إليها الأنظار. إنها ينبوع فياض تفجّر من بطن الأرض ليفيض على الإنسانية، ويتزايد عطاؤه ونبعه في كل عصر ومصر، وعلى ضفافه يزدحم الناس ويتوافدون عليه في تزايد مستمر ولهفة مضاعفة وظمأ لا يروى، بلى إن معجزة محمد في حالة صيرورة وتحقق مستمر.

غير أن مهمة محمد عسيرة للغاية، إن استقطاب بدو جزيرة العرب وإقناعهم بالاجتماع حول (كتاب) أمر في غاية الصعوبة، إنه يتطلب إعجازاً آخر. اليوم كذلك وفي هذا القرن، قرن العلم والنور، وحضارة القلم والكتابة، مازالت قيمة الكتاب بين أوساط شعب ما تقاس عبر التعرف على المكانة الاجتماعية التي يحظى بها الكتّاب والمؤلفون البارزون بين أوساط ذلك المجتمع. في ثقافتنا وثقافة من هم أفضل منا وأكثر تحضراً، ما زال من يجيد لكْم الآخرين بيده أو ركلهم برجله، ومن يستطيع أن يقفز نصف الارتفاع الذي تقفزه دجاجة سمينة، مازال يكتسب في أوساطنا الاجتماعية شهرة أكبر ومكانة أجدر بمئات المرات ممّن يحسن الكتابة والتأليف. وهذا الأمر ينسحب حتى على الأوساط العلمية والجامعية فينا حيث تكون الأولوية فيها لأصحاب العلاقات والمحسوبيات على حساب الكفاءة والجدارة والاقتدار. فما ظنكم فيما إذا عدنا إلى الوراء ألفاً وأربعمائة سنة، وقصدنا ناحية نائية من العالم القديم بعيدة عن الحضارة والمدنية، أهلها همج متوحشون لا يطاقون - حتى من قبل الحجيج القادمين من أماكن مختلفة كأفريقيا والشرق الأدنى والأوسط -، عندها سوف ندرك جيداً حجم المسؤولية التي وقعت على عاتق رجل أمّي كان يتعيّن عليه في بيئة كالتي وصفناها أن يجعل تلك العيون القاسية والقلوب الفظة تنقاد لأمر القلم وتنبهر بالكتاب.

سعى محمد لأن يستقطب اهتمام أولئك القوم الأجلاف من الأمور الغيبية والخارقة للعادة إلى قضايا عقلية منطقية علمية طبيعية اجتماعية أخلاقية. ويحوّل مصبّ اهتمامهم من العجائب والغرائب إلى الحقائق والوقائع، وليس هذا بالمهمة السهلة إطلاقاً، خاصة بالنسبة لقوم لا يؤمنون إلاّ بقدرة ما وراء الطبيعة، ومن قبل رجل يدّعي فيهم النبوة. ان من بواعث الدهشة والانبهار ادعاء المرء النبوة ودعوته الناس إلى رسالته، وفي الوقت ذاته، الاعتراف بعدم الاطلاع على الغيب.

ومع الغضّ عن القيمة الإنسانية لهذا العمل، فإن المثير في الأمر جداً, الدرجة العالية من الصدقية في سلوك محمد؛ ما يجعل الأفئدة تهوي إليه منقادة وتقرّ أمامه بالطاعة والاحترام والتقديس. يسألونه: إن كنت نبياً فنبّئنا بأسعار البضائع من قبل لكي نربح في التجارة ونجني ثروات طائلة، فيأتيه الجواب من القرآن:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

نبيّ لا يعلم الغيب، ولا يخاطب الجنّ والأشباح، ولا

(١) الأعراف: ١٨٨.

تصدر عنه كرامة كل يوم، بأيّ منظار سينظر إليه أهل الصحراء؟ محمد يدعوهم إلى التفكير في الكائنات وتدبّر معنى الطهارة والمحبّة والعلم والوفاء وفهم سرّ الوجود والحياة ومصير الإنسان، وهم يطالبونه بمعاجز وكرامات وأخبار غيبية، ويأتي الجواب على هيئة الاستفهام المتضمن للإنكار الشديد والاستغراب الأكيد من هكذا مطالبات:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (١).

ما يبعث على الحيرة والدهشة الكبيرة في سلوك محمد، هو سعيه المتواصل لكي يظهر نفسه للناس بمستوى أقلّ مما يتصورون، وهو يتعمد ذلك من خلال أقواله وأعماله وطريقة تعاطيه مع الأشياء. فبخلاف أتباعه الذين كانوا يتوسّمون فيه كائناً فوق مستوى البشر، كان محمد حريصاً جداً على التصريح بأنه ليس إلا بشر! كان يعمد إلى ذلك على قناعة فيه وليس من باب المجاملة أو التواضع الأخلاقي الذي يعدّ في بعض صوره نوعاً من التظاهر والرياء المهذّب أو الإعجاب بالنفس ولكن بأسلوب

ماكر وخدّاع. الواقع أن عبوديته الخالصة لله تدعوه لذلك إذ كان همّه الأول والأخير الدعوة للتوحيد الإلهي، وهو يدرك تمام الإدراك أن الغُلوّ فيه يعني فيما يعني التقليل من عظمة

(١) الاسراء : ٩٣ .

التوحيد وأصالة الوحي والنبوة. كان محمد حذراً جداً من مغبة بروز ظاهرة (عبادة النبي) التي يساعد المناخ الديني على رواجها ويمهّد الأرضية اللازمة لانتشارها بين أوساط المتدينين. كان محمد يغتنم كل فرصة للهجوم على هذه الظاهرة المَرَضية؛ يجالس العبيد ويجلس مثلهم، ويؤاكل الغلمان ويأكل مثلهم، لأنه كان مقتنعاً بكونه عبداً لله. هذا المضمون مرويّ عن الإمام الصادق، وهو مما يمكن إثبات صحته من خلال التأمل في دلالته، فإن إيقاع الكلام ونمط التعبير وعمق الرؤية يدلاّن أن صاحب هذه المواصفات هو القائد الحقيقي للمسلمين، وهذا أعلى وسام وإشادة وإطراء يمكن أن يناله شخص في الإسلام حتى وإن كان ذلك الشخص هو خاتم الأنبياء وأعظمهم.

المرأة في عين وقلب محمد

قيل الكثير في هذا المجال، ومازال الكثير مما يمكن أن يقال أيضاً. ما قيل؛ إمّا هو كلام الأعداء، ومن المعروف أن الكلام من منطلق عدائي يتضمن - بالطبع - الكذب والافتراء والتهمة والتهويل وتشويه حقائق التاريخ.

أو هو كلام الأصدقاء، وهو في الغالب محاولة بائسة لتبرير المواقف على النحو الذي يتسق مع قالب الزمن وأهل ذلك الزمن. وهذان الصنفان من الكلام لا يرويان ظمأ المحقق

الباحث عن الحقيقة لا غير، والمتحيز للحق دون سواه.

قضية المرأة، مطروحة للبحث على نطاق واسع في قرننا الحاضر سواء على صعيد الشعور أو علم الاجتماع. ولمّا كان العلم عاجزاً حتى يومنا هذا عن العثور على حلّ مناسب لها، فقد بقيتْ - شئنا أم أبينا - في إطارها العقيدي. وفي ضوء ذلك باتت كغيرها من المشاكل التي لم يقدم العلم لحدّ الآن أجوبة حاسمة عليها، فكان من الطبيعي أن تدلي الفلسفة والدين والعبادة والرغبة والحاجة دلوها فيها، في محاولة لتقديم تفسير للظاهرة وتوجيه لها. ومن هنا نرى أن كل منحى فكري أو حقبة زمنية أو كيان اجتماعي يتناولها من زاويته الخاصة، ومن الطبيعي أن الكتّاب والباحثين الذين تعرّضوا لهذه المسألة في سيرة النبيّ لم يسلموا من الوقوع في فخ الاستباق في إصدار الأحكام والذي هو إفراز طبيعي للعوامل المذكورة آنفاً للفلسفة (بمعناها العام الشامل لكل منهج معرفيّ ومذهب فكري - الدين والعادة والرغبة - الأذواق والمشاعر والميول النفسية والاجتماعية - الحاجة؛ فردية كانت أم اجتماعية).

من هنا فإن نظرة الرجل إلى المرأة في المجتمع، وفي الحياة، وفي الشعور، تتأثر بشدة بلون الزمان والبيئة التي يعيش فيها. ومن الواضح الجليّ أن البحث العلمي في مقولة تختلف من عصر إلى آخر ومن مصر إلى ثانٍ، سيحاط بجوّ من التعقيد،

بحيث لو لم ينجح الباحث المنصف في تحرير رؤيته من لون العقيدة والعادات والرغبات والحاجات التي تحتّمها عليه بيئته، والتخلص من نزوعه نحو إصدار أحكام مسبقة في الموضوع، فإن نيل الحقيقة على ما هي عليه سيكون من المتعسر بل المتعذّر عليه، خاصة في ضوء ما كان يؤكّده أستاذي الكبير البروفيسور (جاك براك) ويشدّد عليه من ضرورة النظر إلى كل بيئة ومرحلة زمنية بمنظار تلك البيئة وهاتيك المرحلة، ومن ثم تقييمها عبر النتائج والمعطيات الحاصلة من هذا المنظار. وإلاّ فإن الجهد العلمي سيصبح بلا طائل ولا جدوى من ورائه.

وقضية المرأة، من النواحي التي يمكن تداولها فيها، تبدو مرتبطة الى حدٍّ بعيد بالطابع الزمني والبيئي الخاص بها، لدرجة أن بعض السلوكيات التي تعدّ في مرحلة زمنية أو بيئة معيّنة، رسماً إنسانياً رفيعاً، قد تنقلب صورتها إلى جناية بحق الإنسانية إذا نظر إليها من منظار زمني أو بيئي مغاير. ومثاله تعدد الزوجات!

لا شك أن الوجدان المعاصر يشمئزّ من هذه الظاهرة ويمقتها ويعتبرها سلوكاً مشيناً بحق المرأة، بينما نجد أن هذه الظاهرة بعينها كانت في الماضي وفي مجتمعات بدائية قديمة، حلاً رفيع المستوى لمعضلة اجتماعية جادّة تتمثل في كثرة النساء اللواتي يموت أزواجهن بقتل أو بغيره ويبقين هنّ وأولادهن تحت رحمة القدر الذي لا يرحم، في مجتمع يعدّ الرجل هو

المصدر الوحيد للحفاظ على وضع الأسرة وصيانتها من الضياع والانهيار بوجه التحديات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية.

ومثاله الثاني الحجاب، الذي يعدّ اليوم عامل إعاقة لحركة المرأة ونشاطها وعرقلة لدورها المؤثر في المجتمع. ولذلك فإن روح العصر تمقته وترفضه وتعتبره أمراً منبوذاً ينطوي على إهانة للمرأة وتقييد لحريتها وغمط لحقّها في الحياة بشكل طبيعي. ولكنه فيما مضى من الزمن كان يعدّ دليل رزانة اجتماعية ومعبراً عن مكانة اجتماعية خاصة تتمتع بها المرأة التي ترتديه، يحفظ عزّها ويصونها عن الابتذال، وما زال ينظر إليه بهذا المنظار في المجتمعات القروية وكذلك الأسر المحافظة المقيمة في المدن والتي لا تزال وفيّة للعادات والتقاليد والسنن.

الكثير من المحققين بحثوا قضية حقوق المرأة في الإسلام، ولا أريد هنا تكرار ما قالوه[١]. ولكن القدر المسلّم هنا أن من بين المصلحين والعلماء الكبار على مستوى التاريخ البشري ممن لم ينظروا للمرأة أصلاً أو نظروا إليها بازدراء. . . ووحده محمد شذّ عن هذه القاعدة وكرّس جزءاً كبيراً من همّه واهتمامه لمعالجة هذه القضية واستعادة المكانة الإنسانية

(١) راجع (المرأة في الاسلام واوربا)، حسن الصدر، وخاصة المقالات العميقة والموثقة للاستاذ المطهري في مجلة (زن روز) والمناظرة التي اشتملت عليها (سنة ١٩٦٧م).

والحقوق الاجتماعية للمرأة؛ من قبيل إعطائها حق التملك الفردي والاستقلالية الاقتصادية، وفي نفس الوقت إلزام الرجل بتأمين نفقات الزوجية، على نحو يكون من حق الزوجة المطالبة حتى بأجرة إرضاع الولد، وإلزامه إيضاً بدفع المهر، وإن عاد هذا الأمر منبوذاً اليوم وبحقّ!.

هذه الأمور أمثلة وشواهد دالّة على أن الإسلام يحفظ للمرأة شخصيتها ويضمن لها رصيداً مالياً يعينها على نوائب الدهر، ما يؤمّن للمرأة حدّاً من الاقتدار أمام الرجل الذي طالما سعى لفرض هيمنته المطلقة عليها.

وما بوسعي قوله بخصوص هذه القضية الشائكة والمعقدة، وذلك في ضوء ما يمكن استنباطه من المصادر العلمية والتاريخية والحقوقية، إن الإسلام بقدر ما يناهض نزعة التمييز العنصري بين المرأة والرجل، فهو لا يساند الأفكار الداعية إلى المساواة بين الاثنين، وبعبارة أخرى إن الإسلام يرفض التمييز ولا يقبل المساواة ايضاً، بل يسعى إلى فسح المجال اجتماعياً لكلّ من الرجل والمرأة بلعب دوره واحتلال مكانه الطبيعي في عملية البناء والتطور. الإسلام يعدّ التمييز بين الرجل والمرأة جريمة وجناية، ولا يقرّ في الوقت ذاته بمبدأ المساواة بين الجنسين. وذلك ان الإنسانية تأبى الأول، والطبيعة لا تنسجم مع الثاني. المرأة في نظر الطبيعة ليست أقل شأناً من

الرجل وليست مثله ايضاً. الطبيعة تنظر إلى الاثنين (المرأة والرجل) مخلوقين يكمّل أحدهما دور الآخر في المجتمع والحياة. ومن هنا يحرص الإسلام، خلافاً للحضارة الغربية، على منح المرأة والرجل حقوقاً طبيعية لا حقوقاً متساوية ومتماثلة. وهذا أروع موقف يمكن إن يتخذ في هذا المضمار، وفيه عمق وقيمة لا تخفى على القارئ الفطن الجريء على التفكير والتأمل والتدبر في الأمور والنظر إليها، دون إذن من الغرب والغربيين

لقد سعى محمد عملياً لتأمين حقوق المرأة وشخصيتها التي قرّرها الإسلام لها كحقّ غير قابل للانتزاع، فراح يأخذ البيعة من النساء، وفسح لهن المجال للدخول في قائمة أصحاب النبي[١]. كان يجلس ابنته فاطمة على فخذه أمام أنظار الناس ويداعبها وهو يتحدث إليهم، ويتعمد المجاهرة بحبّه لها كأنه يريد أن يؤكد أن البنت عزيزة كالولد وليست عاراً على أهلها، وليرسخ هذا المعنى في أذهان قوم وصفهم القران بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

---

(١) أورد ابن سعد في طبقاته اسماء الصحابيات في كتاب مستقل (الطبقات، ج٨).
(٢) النحل: ٥٧ ـ ٥٨ .

وعندما خطبها عليّ وقف النبي على باب حجرتها، وبكل أدب وصفاء وصراحة مشوبة بالحياء، قال لها: إن ابن أبي طالب يذكرك!..

ووقف محمد بانتظار الجواب، فان هي مانعت ستغلق الباب (وهذه هي الصراحة)، وإلاّ فسكوت المرأة رضاها (وهذا هو الحياء).

ولما ذهبت إلى بيت زوجها، كان محمد يتفقّدها بين الحين والآخر، يقف على الباب ويستأذن للدخول، وهو الذي يبادرها بالسلام والتحية.

سلوكه مع زوجاته كان بمستوى من الأدب والمرونة والحنان، يأسر اللبّ ويحيّر العقول ويقارب حدّ الإعجاز في مجتمع أجلف كالمجتمع الذي ظهر وعاش فيه محمد. الرجل الذي كان كياناً تتجسد فيه - وهو خارج البيت - القوة والرجولة والصلابة، ما أن يفد على أهله حتى يتحول إلى إنسان ودود سمح يتّسم ببساطة في التعامل وتساهل جرّأ عليه زوجاته، كنّ يتشاجرن معه بصلافة وبدون تهيّب ولا يألون جهداً في إيذائه.

ذات يوم، آذينه كثيراً، وخلاف السائد فيما مضى من طرد النساء من البيت - وهي سنّة مازال يعمل بها البعض من المؤمنين اليوم!- خرج محمد بنفسه من البيت ليقيم في مذخر للدقيق كان مشيّداً على مرتفع، وكان على النبي إن ينصب جذع شجرة لكي

يصل إليه، فإذا وصل، كان عليه أن يزيح الشجرة عن الطريق لكي لا يزاحمه أحد. هجر نساءه مدة شهر. كان مغموماً لدرجة أنه أعرض عن المجيء إلى المسجد، فراود الناس قلق شديد، فانبرى عمر نيابةً عنهم ليكلّم النبي في هذا الأمر، فلم يأذن له، فقال له عمر إن كنت تظن إنني أريد أن أكلمك بشأن ابنتي فاعلم يا رسول الله أنّي ساخط عليها ولو أذنت لي ضربت عنقها، فسمح له بالدخول، فدخل عليه عمر فوجده مستلقياً على حصير ولما نهض النبي بانت آثار الحصير على جنبه فبكى عمر. وأخذ محمد يسليه بالحديث عن الزهد في الدنيا وحلاوته.

لقد كان سلوك زوجاته معه من اكبر مشكلات حياته، وهذا أمر طبيعي على اعتبار الفارق الشاسع بين محمد وبين نسائه روحاً وفكراً، ناهيك عن ان نساء ذلك الوقت اللاتي كنّ يعامَلْنَ معاملة الرقيق، لم يكنّ أهلاً لتحمل هذا المستوى الرفيع من الحرية والاحترام الذي لقينه في دار محمد، وتلك - لعمري - حقيقة اجتماعية نحن نلمسها اليوم اكثر من الآخرين واكثر من ذي قبل؛ إعطاء الشخصية لفاقدها يصاحبه - في البداية خاصة - تصرفات انفعالية وردود أفعال مريضة وأحياناً خطيرة.

الكلام الآتي المنقول عن عمر يعكس بوضوح حصول تحوّل جذريّ في المكانة الاجتماعية للمرأة وبخاصة في مضمار العلاقات بين الرجل والمرأة في زمان النبي.

يقول عمر : ذات يوم، أقبل أبو بكر وعمر على رسول الله فوجداه جالساً وقد أحاطت به نسائه وهنّ يكلّمنه بصوت عال ويشكين من جشوبة العيش مطالبات إياه بالنفقة عليهن، وهو ساكت يصغي، على شفتيه ابتسامة حزن، وما أن تقع عيناه على أبي بكر وعمر إذا به يعاتبهما أن بناتهما يطالبنه بما لا يطيق، فيقبل الرجلان على ضرب بناتهما حتى يرتدعن ويعاهدن أبويهما ألاّ يطالبا النبي بما ليس عنده. لقد كان سلوكهنّ غير مقبول حتى من قبل آبائهن ومن سائر المسلمين الذين كانوا يكابدون الألم وهم يرون معاناة النبي منهن. ولكن محمداً كان يصبر ويتحملّ لكي يعطي دروساً عملية لرجال مجتمعه الأجلاف باحترام المرأة وتقدير شخصيتها.

السبب الآخر في عدم رضا زوجات النبي عليه أنهنّ يسمعن من هنا وهناك أن زوجات أكاسرة الفرس وقياصرة الروم وحتى نساء أمراء اليمن والحيرة وغسان ومصر يرفلن في عيش رغيد في قصور فخمة عامرة بكل مظاهر الترف والرفاهية والرخاء، في حال إنهن زوجات ملك العرب وربما مرّت عليهن شهور دون أن يرتفع دخانٌ من مداخن بيوتهن، يخبزن الشعير بقشوره، ويأكلنه وهذا في أحسن الحالات. أما في السفر فطعامهن غالباً الماء والتمر ولا غير!

وتتصاعد وتيرة الشجار بين النبي وزوجاته إلى درجة

يتدخل الوحي لفضّ المشكلة، فيأتي النداء الإلهي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[١].

لكن نساء النبي آثرن محمداً والفقر، باستثناء واحدة منهن اختارت الدنيا على محمد، غير إن الدنيا لم تفِ معها ولاقت مصيراً مشؤوماً[٢].

محمد كان يقول مراراً:

(إنما حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني الصلاة)[٣].

يلتزم جانب العدالة في سلوكه مع زوجاته ويوزع أيامه بينهن بالتساوي، ولكن قلبه يميل إلى عائشة، فهي الفتاة الوحيدة التي جاءت إلى بيته بكراً، أما الأخريات فكنّ جميعاً أيامى بين أرامل ومطلقات؛ اقتضت المصلحة السياسية أو الأخلاقية زواجه منهن.

ومضافاً إلى جمالها وفتوتها، كانت عائشة تتمتع بفطنة وذكاء وحسن حديث وشمائل، وكانت مولعة بمحمد؛ الأمر

---

(١) الأحزاب : ٢٨ .
(٢) حياة محمد، محمد حسين هيكل،ج١،ص.٢٨١
(٣) الرياض النضرة، ج١، ص .٢٦٦

الذي جيّش في روحها حسداً غير طبيعي لم تقتصر فيه على سائر نساء النبيّ، بل بالغت به ليطال ابنته فاطمة وخليله علياً.

محمد كان يروّح عن نفسه هموم حياته السياسية ومتاعبها الكثيرة بواسطة الحديث مع عائشة. وكلّما تراكمت عليه الضغوطات الخارجية وضاق خناق روحه بالأفكار والتأملات العميقة، نادى على عائشة مخاطباً إيّاها: كلّميني يا حميراء!

ولطالما سعى دعاة التبشير المسيحي والكتاب المغرضون أو الجهلة المتأثرون بدعوات التبشير تلك، للعثور على نقطة ضعف في الروح العالية لمحمد، ولمّا كانت التربية الأخلاقية المسيحية تعتبر جمال المرأة فتنة من فتن الشيطان والميل إليه لوناً من ألوان الفساد والانحراف، لدرجة الحثّ على ترك الزواج جلباً لمرضاة الله وحفاظاً على التقوى ونظراً لأنّ الوجدان الاجتماعي الأوربي السائد اليوم يتحسّس كثيراً من ظاهرة تعدد الزوجات ويرفضها، فقد كانت ثمة محاولات محمومة لهؤلاء المبشّرين لإظهار محمد بمظهر «دون جوان» شرقيّ، مولع بالنساء، وحريص على أن يكون له بيت خاص بالحريم، شأنه في ذلك شأن سلاطين الشرق وملوكهم.

وفي هذا السياق، أثاروا ضجيجاً وصخباً واسعاً حيال قضيتين: إحداهما تعدد زوجات محمد، والثانية قصة زينب بنت جحش. ونظراً لوصول أصداء هذا الصخب والضجيج إلى

أوساطنا الفكرية حتى انطلى الأمر على الكثير من المستنيرين (الببّغاوات!)، فقد رأيت من المناسب إن أبيّن حقيقة المسألة في حدود إدراكي لها، خاصة وأني اعتقد أن مفردة المرأة في سيرة النبي وشعوره وفهمه ليست بنقطة ضعف، كيف؟وهي من أبهى المقاطع المضيئة في حياة النبي وروحه العالية، ما دعا الكاتب المصري عباس محمود العقاد للقول إن رجال التبشير والاستشراق أرادوا أن يوجّهوا للإسلام عبر هذا الطريق طعنة في مقتل، ولكنّ الله ردّ كيدهم إلى نحورهم، ذلك ان هذا المورد بالذات هو من الموارد التي تتجلّى فيها حقيقة النبي بوضوح تام على كل مسلم له أدنى إلمام بتعاليم الدين الإسلامي وخصال النبي وسيرته، واستحال ما أرادوه طعنةً للإسلام إلى حجّة بيد المسلم لتكريم نبيّه وتبرئة دينه من التهم الوضيعة التي تلصق به، إذ لا دليل أدلّ عند المسلم على صدق نبوة محمد من سيرة النبي في اختيار زوجاته والتعامل معهن..[١]

وهاهنا أستعرض أولاً قصة زينب، ومن ثم مقاطع من حياة سائر زوجاته، لكي ندرك حقيقة الاتهام الذي وجّهوه لمحمد بأنه زير نساء.

---

(١) عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، بيروت، ص ٢٥٥ .

زينب بنت جحش :

زينب بنت جحش، أخت عبد الله، المهاجر الكبير الذي ختم، بالشهادة، حياته الحافلة بالمفاخر والمواقف المشرفة. وآل جحش معروفون في قريش بأصالة النسب، وزينب فتاتهم الجميلة، ابنة جحش وحفيدة عبد المطلب من جهة الأم، وهي بالتالي ثمرة اقتران نسبين جليلين وهي ايضاً ابنة عم النبيّ.

أما زيد بن حارثة فهو غلام أسير في الشام، وجاء به القدر إلى دار خديجة، وهي بدورها أهدته إلى محمد. أبوه حارثة كان من أشراف الشام، وقد وفد على مكة باحثاً عن ابنه ووجده عند محمد فأراد ان يفتديه، فقبل محمد ولم يقبل زيد، وآثر الرقّ والغربة في بيت محمد وخديجة، على الحرية والوطن والعيش كريماً بجوار والديه، وبلا تردّد توجّه إلى أبيه الذي تحمّل ألوان المشقة للعثور عليه ويكاد ينفذ صبره من تحمّل فراقه، وقال: بل أقيم عند محمد.

ومحمد الذي كان عارفاً بزيد وبوفائه واكتشف الآن أنه أعزّ لدى زيد من أبيه، يبادر إلى عتق زيد ومن ثم تبنّيه ومطالبة الآخرين بأن يدعوه من الآن فصاعداً (زيد بن محمد) وليس زيد بن حارثة أو غلام محمد. وبهذه الطريقة استعاد زيد ما كان يفتقده من الأهل والوطن، فيما استطاع محمد ملء الفراغ الذي خلّفه رحيل ولديه قاسم وعبد الله (الطيب والطاهر) في

بيت خديجة الثكلى.

ولقد شكلت العلاقة الوطيدة بين هاتين الروحين الكبيرتين واحدة من اكثر المراحل توهّجاً في حياة النبي. نشأ زيد وترعرع في بيت محمد، أبوه النبي وأمه خديجة وأخته الزهراء وأخوه عليّ! وأصبح هذا الشاب الفطن الشاميّ الذي ورث اللياقة العالية من أسرته النجيبة ومجتمعه المتحضّر، خامس عضو في أسرة كان الله سادسهم. وقد أدرك زيد، بذكاء منقطع النظير، مدى السعادة والحظّ العظيم الذي فاز فيه، والباب التي فتحت بوجهه، وما أحسن اختياره لقدره ومصيره!

كان التبنّي رسماً من رسوم العرب. فكلّ سيّد عربي يشعر بالارتياح لأحد غلمانه ويميل إليه يقرّر عتق ذلك الغلام ورفع مستوى العلاقة من الرقّ إلى البنوّة. بيد إن الآثار الاجتماعية الماضوية تبقى حيّة في الوسط البيئي الاجتماعي. صحيح إن لهذا التغيير من الرقّ إلى التبني، استحقاقات على الصعيد الاجتماعي والقانوني والحقوقي، ولكن يبقى الابن الجديد ملاحقاً بوصمة العار القديمة، ولا ينظر إليه الأحرار أنه (حّر) مثلهم، كما لا يعدّه الأبناء (أخاً) حقيقياً لهم. ولا يقتصر هذا التمييز العنصري على الجوانب النفسية والمعنوية فقط، بل يتعدى إلى بعض الجوانب والأبعاد المادية والحقوقية والاجتماعية نظير كراهة أو حظر زواج الرجل من المرأة التي

كانت زوجة لأحد مواليه الذين أعتقهم.

إلاّ أن النبي كان يسعى جاداً لإلغاء جميع مظاهر التمييز الاجتماعي بين الإنسان الحرّ والإنسان المحرّر، وتأمين حقوق متساوية للاثنين. وفي هذا السياق كان حريصاً على محو هذا الخاطر المرير من الأذهان وإزالة جميع الآثار الاجتماعية المترتبة عليه، ومنح الإنسان المتحرر من الرقّ شخصيةً اجتماعية ومعنوية ونفسية كاملة، لكي يتسنّى لمن حصل على الحرية الاجتماعية أن يصدّق، هو والمجتمع المحيط به، بهذا الأمر بكل أبعاده ونواحيه؛ المادية منها والمعنوية على السواء.

ومن هنا حرص النبي على إناطة مهام خطيرة وحساسة بزيد، نهوضاً به إلى مستوى المهاجر والصحابيّ الجليل الذي لا يقلّ شأناً عن سائر صحابته الكرام. أمّره النبي في المدينة على جيش جرّار جّهزه لقتال الروم، وجعل تحت لوائه كبار الصحابة أمثال جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد. وكان يستشيره في عظائم الأمور، ووصل الأمر أن يجعل من ولده الشاب أسامة قريناً لعليّ ابن أبي طالب حينما استشار النبي الاثنين واستوضح رأيهما في قضية بمنتهى الخطورة والحساسية (حديث الإفك).

ولم يتوقف الأمر عند هذه الحدود بل أناط النبي أواخر حياته، بأسامة بن زيد، الشاب الذي لم يتعدّ عمره ١٨ سنة،

مهمّة قيادة جيش آخر جهّزه النبي لقتال الروم أيضاً، وكان أبو بكر وعمر جنديّين في هذا الجحفل الجرار.

كل هذه المساعي كان الغرض منها المساواة بين الأحرار والمحرّرين على صعيد العرف والوجدان الاجتماعي، كما ساواهم العتق على صعيد القانون.

في هذا السياق حرص النبي على أن يخطب لزيد فتاة من خيرة بيوتات العرب، وذلك لمحو الشعور بالحقارة، الراسخ في نفوس الأجانب والغرباء خصوصاً من كان منهم عبداً وأُعتق، وللقضاء على ظاهرة التعصب القبلي التي كانت تتجلى اكثر في حالات الزواج. والنبي كان يدرك في الوقت ذاته أنه لا يوجد بين أصحاب البيوتات العريقة من هو مستعد لمصاهرة شخص كزيد، لذلك عزم على أن يخطب له فتاة من أقاربه ليستثمر النبي بذلك نفوذه بين أهله لتحقيق هذا الغرض، واختار لهذا الأمر ابنة عمته (زينب). . ! ولكن وكما كان متوقعاً من ذي بدء، فإن أخاها عبد الله رغم كونه من اكثر المهاجرين طهارة وتزكية وتضحية، رفض الاقتراح رفضاً باتّاً، لما في ذلك من عار سيلحق الأسرة. غير أن النبي ظلّ يصرّ على الأمر، وذلك لكي يجتثّ جذور هذه السنّة الجاهلية التي مازالت قائمة إلى أيامنا هذه، حتى في مجتمعات متحضرة كالمجتمع الأوربي!

وفي نهاية المطاف تدخّل الوحي لحسم القضية، ولم يجد

عبد الله وأخته زينب بدّاً من الانصياع لأمر الرسالة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١).

تكفّل محمد بنفقات المهر، وحصل الزواج الذي ألغى سنّة سيئة وأقام محلّها سنّة إنسانية جديدة.

غير ان هذه العلاقة الزوجية، وبقدر ما حققت للمجتمع من سعادة وارتياح، فشلت على المستوى الداخلي في تحقيق تقدّم، ولم تتمكّن زينب أبداً من نسيان مكانتها الاجتماعية واحتواء الفارق الكبير بينها وبين زيد على هذا الصعيد، فكانت تؤذيه دائماً وتتحامل وتتطاول عليه. لم يجد زيد بدّاً من أن يشكوها إلى حبيبه وأبيه محمد الذي أوصاه بالصبر والتحمل ودعاهما إلى التسامح والمداراة. والواقع ان زينب وان كانت استجابت لرغبة النبي في الزواج من زيد إلا إنها لم ترضَ بذلك من صميم قلبها، لأن القلب عالم آخر لا أمر فيه ولا نهي إلاّ للحبّ، حتى زينب نفسها لم تكن قادرة على صنع شيء خارج هذا المدار.

الآصرة التي بذل النبيّ جهوداً من أجل انعقادها، آخذة بالارتخاء يوماً بعد آخر، صبر زينب يكاد ينفذ حيال اجتماعها

---

(١) الاحزاب: ٣٦.

تحت سقف واحد مع شخص لم تشعر به أبداً إلاّ كصخرة جاثية على صدرها، وعظم شُكّ في حلقومها لمصلحةٍ مّا. أمّا زيد فكان هو الآخر يتعذّب من ارتباطه بامرأة تنظر إليه باستعلاء وازدراء، وتبتعد عنه يوماً بعد آخر، وباتت حياة الزوجين المتنافرين مرارة تتنامى وتزداد لحظة بعد لحظة، ولا أحد قادر على وضع حدٍّ لهذا الانهيار.

أحقّاً ما يقوله شاندل : (ان القلب المحتاج إلى الحبّ والمفتقر إليه، يدفع بصاحبه نحو البحث عن المجهول، ولا يقرّ له قرار حتى يعثر عليه؛ الله، الحرية، العلم، الفن، الجمال، والحبيب؛ كلّهم ينتظرونه وهو هائم على وجهه في الصحراء، ليروا من أي نبع صافٍ سيملأ قربته الفارغة، التي يكسوها الغبار)[١].

ذات مرّة، قرأ النبي في نظرات زينب سرّاً خفيّاً أخبره به قلبه. نار كامنة في أعماق زينب بان لهيبها على محيّاها. قلق واضطراب شديدان يعصران فؤادها ويجعلان سكوتها أمام محمد أمراً بالغ المشقة. ومع أول بارقة مرّت أمام النبي أطرق برأسه وأرخى جفنيه على ناظريه، وغاص في أعماق نفسه يفكّر، وعاد بسرعة. . ولكن إلى أين ستعود زينب؟! فهي لم تعد تطيق العيش

(١) Chandel, les Causeries de la solitude p 190.

مع زيد، ولقد أطبقت السماء على صدرها وكبست أنفاسها، وبات من الصعب عليها تحمّل رؤية أي شيء وسماع أي صوت في البيت الذي يقطن فيه زوجان غريبان عن بعضهما يلفّهما صمت مرير، وآنات الزمان تمرّ ببطء بانتظار شيء، ويتعاقب عليهما غروب الشمس وشروقها في رتابة لا تطاق ومناخٍ مشحون لو ألقيت فيه شرارة طائشة لشبّت في البيت نار لا يقوىَ على إطفائها أحد ؛ لا زيد ولا زينب ولا أيٌّ كان. خرج زيد من البيت نافداً صبره والتجأ إلى أبيه العطوف محمد، طلب منه بإصرار ان يفرّق هذين المخلوقين عن بعض، إذ لم يعد بمقدور أحدهما أن يطيق الآخر. كان زيد شغوفاً بمحمد، غارقاً في بحر عطفه وإحسانه، ناهيك عن كونه رجل سيف و إباء ووفاء وايمان واخلاص، (فلماذا يتحمل عبء امرأة قلبها لم ولن يكون له)[١]، لم يكن مستعداً لكي يأسر امرأة أو يبقى أسيراً لها لمجرد الحفاظ على ارتباطه العضويّ بقريش أو الفوز بلذة جمال بارد لا روح فيه لتمثال يعيش معه تحت سقف واحد، ولا يجمعه معه في هذا الكون سوى الجلوس معاً تحت ذلك السقف البغيض.

اما بالنسبة للنبيّ فكانت القضية تمثل له (نازلة) راح يفكر بها باحثاً عن طريق للخروج من المأزق. هل وجد في قلبه ما

(١) المصدر السابق ص ٢١٣ .

لمحه في عيون زينب؟ هل انهارت تلك الروح الكبيرة التي أمضت شبابها وعمرها في خدمة الله والناس بالفكر والتقوى والجهاد والمعاناة، أمام قلب كسير يتطلّع إليها؟ وعلى الأقلّ هل لامست روحَ محمد، الحرارةُ المنبعثة من النار المضرمة في روح زينب؟

على هذا السؤال، أجيب بأجوبة شتى، وفيه ألّفت قصص وحكايات اقرب الى الخيال وأساطير مضلّلة، غير أني اتحفّظ على صيغة السؤال نفسه وأرى أنّ أية إجابة عليه ستكون بلا أساس، وذلك ان سبيل الحب خفيّ لاتصل إليه أيادي المؤرخين ولا عقول المحققين، خاصة إذا كان القلب واسعاً سعة قلب محمد وعميقاً بعمقه، وليس قلب شاعر غزليّ ينهار ويفصح عمّا في داخله بإشارة سبّابة أو لمحة طرف أو ابتسامة دافئة، إنما هو قلب بحر!... وأيّ عين يتاح لها رؤية نسمة هادئة تداعب ذوائب شعر، وتمسح وجه البحر، أيّ عين يُتاح لها رؤية ما تصنعه بقلب البحر تلك النسمة العابرة، خصوصاً إذا كان الناظر إلى البحر يقف على بعد ألف وأربعمائة فرسخ! ومن ثمّ فهناك حبّ بعدد القلوب, وكلّما توهّجت القلوب توهّج فيها الحبّ اكثر. ونحن في الشرق، نعرف أن درجات الحبّ تمتدّ من صميم قلب منوجهري[1] إلى سماء

---

(١) ابو نجم احمد بن قوص الدامغاني، شاعر ايراني معروف، توفي سنة ٤٢٣هـ. اقتبس الكثير من الادب العربي، وفي شعره مدح وغزل وخمرة.

قلب مولوي[١]، وتمتدّ في الغرب، من مستنقع بليتيس الآسن إلى ملكوت جنان بياتريس في قلب دانتي. وندرك إن من المقيت جداً ان تُقحَم كل ألوان الحب ودرجاته في قالب لفظي واحد، ولو كان هذا القالب هو كلمة الحبّ التي ما لها من حدود.

واضح جداً ان من العبث استخدامنا تعابير ملوثة وكلمات ضيقة وبالية نستعيرها مضطرين من الروائيين وشعراء الغزل والشباب الوالهين، لاستخدامها في وصف ما هو مكنون في أعماق قلب كبير كقلب محمد، وكيف سيكون بمقدورنا أو من حقّنا أن نقارن بين فوران قرص البرتقال في قدح، وبين الفوران الحاصل في مناهل الغيب وفي صميم فؤاد يقصر الكون الفسيح عن الإحاطة بجوانبه.

لن يكون بوسعنا أبداً إدراك كنه الحبّ الذي كان يعتمل في قلب محمد، فضلاً عن إدراك كيفيته. ولكننا نعلم انه عارف بالحبّ الذي يشقّ عنان السماء، وان قلبه تنّور مضطرم بهذا النوع من الحب، ليس هذا فحسب، بل هو عارف بالحبّ الذي يمرق خلسة من قلب إلى آخر، وهذا ظاهر لنا من خلال التمعّن في حديثه النبوي الطافح بالهيبة والجمال والخلاقية والذي يتغنّى به العرفاء :

(١) لقب الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي صاحب ديوان (مثنوي معنوي).

(من عشق وكتم ثم عفّ فمات وجبت له الجنة)[١].

لو كان العشق والحب قد خطرا في قلب محمد، فإنّ له قصة عجيبة، لا على النحو الذي يصفه المبشرون بالمسيحية، أو المستشرقون المرتبطون بها أو بالاستعمار نظير دوزي (dozy، أو الكتاب السوقيّون من أمثال كوندي (conde وبراس (Brass، الذي بلغت بهم الصنعة والابتذال والحقد والجهل إلى افتراء ما يشبه الحكاية التالية :

(. . . وفجأة، عصفت نسمة بستار خدر زينب الفاتنة، حليلة زيد، أحد أصحاب محمد، فانزاحت الستار جانباً عن زينب وهي مستلقية في فراشها بثوب نومها الحرير، فبدت بقوامها الممشوق نصف عارية أمام ناظرَي محمد، فلم يصمد قلبه عن الانهيار وأمسى لا يقرّ له قرار. . . وزينب لم تقدر على كتمان الخبر عن زوجها، فصارحته بذلك، ومن أجل ذلك ترك زوجته للنبي لكي تكون من نصيبه!)[٢].

لقد تصوّروا وصوّروا عشق محمد على نحو حالات العشق التي تحصل بين الفينة والأخرى في زوايا الأديرة وأروقة الكنائس بين الأخوات المقدسات (الراهبات) والآباء المقدسين

---

(١) رسالة عشق عين القضاة الهمداني، من مجموعة رسائله، ص ٢١٨ .

(٢) Conde, mahomet, ses femmes et ses amours,p 190 .

(الرهبان)، والتي أماط اللثام عنها وكشف أسرارها الخفية فيكتور هيجو![١]

النبيّ الآن في غاية الحزن الاضطراب، لقد وقع في مأزق لا مخرج منه. لقد بات من المستحيل استمرار الحياة المشتركة بين زينب وزيد، والطلاق هو الحلّ المنقذ للاثنين، ومن جهة أخرى هو يشعر بالمسؤولية الثقيلة حيال زينب وأهلها، فلقد ضحّى النبي بأقربائه من أجل المصلحة العامة، فهل يسوغ له ان يبقى غير مكترث بالمصير المؤلم الذي يسحق زينب بلا رحمة، وهو يعلم انه هو المتسبّب في هذا المصير. كيف له أن لا يفكر بها وبمصيرها بعد الطلاق من زيد؟ هذه الأمور واقعيات اجتماعيّة واجهها محمد، ولا مجال لإنكارها وتجاهلها، خاصة من قبل محمد؛ الأكثر واقعية بين جميع قادة البشر؛ إن على الصعيد الأخلاقي أو الاجتماعي أو السياسي. أبداً لم يكن يتجاهل الحقيقة الواقعية، ولم يكن يتجاوزها، كيف؟ وأبرز خصائص الإسلام ونبيّه هو الاعتراف بالواقع والواقعيات ؛ من حرب وغضب ونزعة انتقام ولذّات جسمية وجمال وافتنان وثروة وإقامة علاقات وانهيار أخرى. وحتى الانحراف عن إطار توحّد الزوجات، ظاهرة واقعية يواجهها الإنسان دائماً سواء على

(١) انظروا (الخطابة) لفيكتور هيجو وكلياته (Oeuvres comples) في أكثر موضع.

الصعيد الفردي أو الاجتماعي، وقد حاولت كثير من المذاهب الفلسفية والعرفانية والدينية، التنكّر لها، وقاموا بمحاولات كثيرة للقضاء عليها، ولكنّ تلك المحاولات باءت بالفشل جميعاً، لسبب بسيط؛ هو أنّنا كلما أنكرنا الاعتراف بقضية واقعية، فإنها تتجلّى لنا على صورة أخطر وأبشع، واذا حاولنا الهروب من مواجهتها تأتينا الضربة من الخلف، وهذه حقيقة طالما جرّبها التاريخ بعمره الطويل جداً.

الإسلام لا يتهرّب أبداً من مواجهة الواقعيات، إنه يعترف بوجودها أولاً، ممهّداً الطريق بذلك لترويضها وتوجيهها بالاتجاه الذي يريد، ويحول دون تفاقم المشكلة وتفجّر الموقف؛ فإن اكثر الخصوم الداخليين للمجتمع، خطورة، هي الواقعيات التي لا يعترف بها رسمياً، ولا يسمح لها بممارسة دورها الطبيعي في نظام الحياة.

وبتشريعه للجهاد والطلاق وتعدّد الزوجات والقصاص وحق التملك، والتمتع (بالموائد الأرضية)[١] واللذات الجسمانية، سعى الإسلام للجم الواقعيات المتمرّدة، عبر الإقرار بما هو موجود في كل مكان وفي كل زمان ولا مهرب منه بأيّ حال.

(١) الاسم الرائع الذي استعاره آندريه جيد من القرآن، يراجع مقدمة كتاب (سلمان باك) لكاتب السطور.

والحبّ أيضاً واقعية من هذا القبيل ؛ شأنه شأن الحقد والانتقام والحرب التي لو يوصد الباب في وجهها كما تصنع المسيحية فإنها تتسوّر من فوق الجدار. لن يَفهم كلامي هذا، من لا يفقه معنى الحبّ والقوة العجيبة الخفية التي تربط بين روحين منسجمتين، أو يعتبر هذه القوة شهوة مادية عارمة واندفاعاً غريزياً نحو قضاء الحاجة، وكل ما عدا ذلك فهو في نظره وهم، حتى العلاقة بين الإنسان وربّه لا معنى لها إلاّ في نطاق الخوف من النار والأفاعي والعقارب أو الطمع بالحور والغلمان والكواعب الأتراب و. . . و. . .

ولكن ما هي مشكلة محمد؟ لماذا يتهيّب من الاعتراف بهذه الحقيقة التي تجلّت خطواتها أمامه بكل وضوح. لماذا لا يحرّر زينباً من القيد الذي تورّط فيه زيد أيضاً ويسعى هو وهي للخلاص منه، ولماذا لا يفتح بوابة القفص بوجه طير جريح يطوف حوله ويضرب أجنحته بجدرانه، لعلّه يجد ملجأً من مخاطر التيه والضّياع الذي يهدّد كل متحرّر لا هدف له.

القلب الذي لم يعرف الخوف إليه سبيلاً، هو الآن يكابد الخوف والقلق والاضطراب. والواقع ان محمداً كان يخشى من أمرين آخرين : الأول كراهة أن يسيء الناس فهمه، والخشية من أن يصبح شعوره الزاكي المهذّب عرضة لتفسير من هبّ ودبّ، ولاشيء أشدّ وقعاً وكراهةً على روح ظاهرة مرتبطة بالسماء من

أن تُصبح ضحيّة الفهم القاصر والنظرة الضيقة لطحالب المجتمع التي تكثر في مستنقعاته الآسنة.

إن ما يعتبره كتّاب المدنية الأوربية اليوم حبّاً سينمائياً وشعوراً عاطفياً من النوع الذي يزخر به الأدب الأجنبي، كيف كانت صورته في عيون عرب الحجاز ونجد وتهامة الذين كان شعورهم وإحساسهم لا يعدو كثيراً ما لدى إبلهم من شعور وإحساس، وأنّى لقلبٍ طاهر طهارة السماء، وفيه تتدفق المئات من ينابيع الإعجاز الغيبي أن يقدم على عمل فيه مخاطرة بهذا المستوى؟

مضافاً إلى ذاك، فأمام محمد معضلة أخرى من نوع المعضلات التي تشيّد جدراً تطوّق المجتمع وسدوداً تقف بوجه السائرين، وتلك هي السنن والعادات والتقاليد القديمة والمتجذّرة في عمق وجدان الأمم، يحيط بها سور من التعصّب البغيض.

التبنّي مرحلة برزخية بين الرقّ والحرية، والولد المتبنّى نصف حرّ ونصف عبد. وإحدى مواصفاته القانونية التي تميّزه عن سائر الأحرار أنه لا يحقّ لسيّده السابق الذي هو الآن أبوه بالتبني، ان يتزوج من المرأة التي كانت زوجةً له في يوم من الأيام، فالعرب تعتبر ذلك عاراً كبيراً. ولكن لماذا هذا العار؟ لماذا تحرم المرأة من حقّ تتمتع به سائر النساء، وليس ذنبها

سوى أنها تزوجت برجل متحرّر! أو ليس المتحرّر حراً؟ إنه رسم وتقليد جائر لا يستند إلى أساس إنساني، انه تركة مشؤومة لأيام الرقّ التي تصرّ على ملاحقة المتحررين وزوجاتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه. وبالتالي لابدّ من صنع شيء يقود إلى إلغاء هذا الرسم وتحرير الإنسان المحرّر وزوجته من كل الأواصر والقيود التي تربطهما بالماضي المرير وتصنع حواجز تفصل بينهم وبين الأحرار. وجاء الوحي الذي ما كان ينزل إلاّ استجابة لحاجة اجتماعية ملحّة، جاء لرفع هذا التقليد وإماتة هذه السنّة الخطأ:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

الآن تحررت زينب من فخ الزواج المصلحي، وتحرّر زيد من عذاب الزوجية مع زينب التي كان يفصلها عنه جدار غير مرئي، إلاّ ان زينب والحال هذه - لم يبقَ لها من رأسمال سوى خواطر وذكريات مريرة، وهذه الطريقة في التحرر من القيود جعلها تتوق اكثر للالتجاء لكهف قريبها العزيز الكبير.

ومحمد ما يزال خائفاً متردداً: ماذا سيقول للناس؟ كيف

---

(١) الاحزاب : ٥ .

سيفسرون الأمر؟ وهل سيصبح الشعور الطاهر كنسيم الصباح عرضة لأيادي الملوثين؟

إن هذه الروح العظيمة الرائعة، عظمة طلوع الشمس وروعته، لن تستوعبها عقول قاصرة وأدمغة غارقة في الظلام. لقد استولى الخوف والقلق والتردد على روح محمد، وعجنها بالآلام، وعلى هذه الحال مرّت على محمد أيام مظلمة وليالٍ حالكة تقبض الروح وتعذّب السريرة، ومحمد يخفي في صدره سراً يعتمل في قلبه ناراً مضطرمة لكي لا تراه عيون بلهاء حولاء لا ترى الحقيقة كما هي. وآثر الصمت على الكلام، إلى أن أثقلت السماء وتفتّقت فجأة ليهبط منها نداء الوحي حاداً، وبلهجة فيها تقريع وعتاب: «وتخفي في صدرك ما الله مبديه وتخشى الناس».

لقد أزاح الله النقاب عن سرّ محمد، ولا معنى بعد الآن للخشية من الناس، وما قيمة رضاهم - والحال هذه - وهم نتاج السنن القديمة وإفراز التقاليد التي لا يقبلها عقل!

ما قيمة رضا هؤلاء حيال تحرير انسانين غير منسجمين اجتمعا في فخ واحد غير راغبين بالبقاء معاً، وكانت السعادة تنتظر كلاً منهما خارج هذا الفخ. ما قيمة رضا هؤلاء إزاء انتصار حبّ امرأة حرّة لم تكن تتمنى اكثر من الكون إلى جوار رجل لم تعدْ تطق الحياة بجوار غيره، وما قيمة رضا هؤلاء أو سخطهم إذا

كان في هذا الأمر تحطيم لسنّة زائفة ليس فيها من جدوى سوى تذكير المجتمع بعبودية رجل وهوان امرأة!

مع كل ذلك، فما زال الزواج بالمرأة التي كانت فيما مضى زوجةً للابن بالتبني يعدّ أمراً نكيراً في المجتمع العربي آنذاك، وان أجازه الشرع والقانون، فمن يتصدى لكسر هذه السنّة المستحكمة ويخطو الخطوة الأولى التي عادةً ما تكون الأصعب والأشدّ خطورة ؟

فجاء الجواب وحياً؛ لقد اختير النبيّ لهذه المهمة الصعبة:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[1].

هذا هو ما يتبلور في الذهن الخالي من كل ألوان التعصّب والالتزام والأحكام المسبقة بعد مراجعة الأخبار والروايات الواردة في كتب السيرة والحديث والتفسير.

وهاهنا أيضاً يقودنا الفضول وحبّ الاستطلاع لتوجيه

(١) الأحزاب : ٣٧ .

السؤال التالي: هل وقع محمد حقاً في أسر الحب؟ وهل يمكن التصديق بأن قلب محمد انهار ذلك اليوم في اللحظة التي وقعت عيناه فيها على عيني زينب وقرأ فيهما رسالة الحب الصامتة، فقال: سبحان مقلب القلوب! ؟

هل صحيح ان محمداً كان ضيفاً عند زيد فدخلت عليهما زينب وهي لا تعلم بوجوده فوقعت عينه فجأة على محاسنها ومفاتنها، (قوامها وشعرها وذوائبها) وأسر جمالها فؤاده؟ وهل علم زيد حقاً بأن محمداً وقع في حبّ زينب ومن أجل ذلك تذرّع بفظاظة زوجته وطلّقها لكي تتزوج من محمد؟

من يستطيع إن يجيب على هذه التساؤلات التي وقعت أحداثها في عمق روح محمد وزينب وزيد وصميم أفئدتهم؟ لو كنّا نعيش في عصرهم، ونجاورهم في المدينة، لكانت أجوبتنا مجرد استنتاجات مبنية على الحدس والشعور والتصوّر الذي نحمله حول محمد، ثم من يقدر على استنطاق قلب محمد ومعرفته ماذا يدور فيه وكيف؟ غير أن ما يحمل المرء على التفكير مليّاً، ومحاولة فتح ثغرات في سور التاريخ الذي أطبق على هذه الواقعة ولفّها بظلامه الدامس، هو معلومات متناثرة تتوفر لدينا عن سيرة حياة محمد ممّا لا يخلو من ارتباط بهذه القصة، وقد يعيننا ذلك في النظر إلى ما وراء السور واستجلاء كنه القضية في حدود ما نتّسم به من قدرة على التحليل والاستنتاج:

ان حكم الحجاب شرّع بعد هذه الواقعة (في السنة الخامسة للهجرة بعد الخندق) وفي تلك الأثناء يفترض ان كل رجل كان مطّلعاً على محاسن نساء المدينة من قوام وشعر وذوائب[١].

ان زينباً ابنة عمة النبي وكانت منذ الطفولة معه وأمام عينيه.

ان محمداً هو الذي اختار زينباً لزيد، وبإصراره قبلت زينب الزواج من زيد، فلو كان قلبه يميل إليها، كان الأحرى به أن يخطبها لنفسه، وهي ما زالت حينها فتاة بكراً، وبطبيعة الحال، اكثر جمالاً وصفاءً، وكان الأمر بالنسبة إليه أسهل بكثير من هذه الجلبة والضوضاء والأخذ والردّ ومظنّة السوء!

تذمّر زيد من فظاظة زوجته وعدم انسجامها معه لم يكن أمراً غريباً حتى يتردد الباحث المنصف في قبوله، كيف؟ وزينب وأهلها كانوا معارضين لهذا الزواج من البداية ولم ينفع حتى إصرار النبي في إقناع زينب لولا أن تدخّل الوحي فرضخت امتثالاً لما هو أصلح بالتقدير الإلهي.

بعد زواجها من زيد، ظلّت زينب على مقربة من النبي، إذ هي، مضافاً إلى صلة القرابة بينها وبين محمد، زوجة ابنه

(١) يروى عن عائشة ان الحجاب لم يفرض على النساء حتى غزوة الخندق.

بالتبنّي، وأحد أعضاء أسرته، والواقع ان زوجة زيد كانت كنّة بيت محمد.

كان محمد في نظر زيد نبيّه وأباه بالتبنّي، والمضطلع بهمّة تزويجه، وتعتبر زوجته كنّةً للنبي، و إذا كان الأمر كذلك ألا يخلّف هذا السلوك من النبي أثراً سلبياً في نفس زيد، بل في نفس أسامة الشاب اليافع؛ ألم يكن النبيّ ليصغر في عينه إلى حدّ كبير؟!

لاريب أن سلوكاً من هذا القبيل كان سيترك أثره غير المطلوب على الاثنين، زيد وابنه أسامة، الأمر الذي يكذّبه افتنان الاثنين بمحمد وحبهما الشديد له وإيمانهما المطلق به إلى درجة تثير دهشة القارئ لسيرة النبي محمد.

ثم ان قصة زينب وقعت في أيام تعلّق محمد بعائشة، ولم ينس محمد حبّه لعائشة في غضون الأحداث التي حصلت لزينب وزيد وطلاقهما وزواج النبي من زينب؛ وما يؤيد ذلك ان عائشة لم يبدر عنها أيّ رد فعل بهذا الشأن، وهي المعروفة بالغيرة الشديدة على النبي والذكاء والحساسية والتمرد. أنّى لعائشة ان تصبر وتصمت لقاء هيام محمد بامرأة غريبة، وهي التي لم تتحمل الاهتمام القليل الذي أبداه محمد لزوجته ماريا بعد ولادتها إبراهيم، فأقامت الدنيا وأقعدتها ودبّرت الدسائس والمؤامرات، وبلغ بها الحسد درجة تجرأت على إهانة النبي! :

كيف يمكن أن تمرّ عائشة مرور الكرام على قصّة حبّ ساخن تحصل بين محمد وزينب مع ما في ذلك من تبعات إجتماعية على اعتبار أن زينب امرأة مولى محمد، إلاّ أن نفرض أن عائشة وسائر زوجات النبيّ لم يكنّ على علم بشيء مما جرى من عشق وغرام مزعوم بين محمد وابنة عمته، بينما اطّلع على ذلك السيد دوزي والسيد كوندي وغيرهما من القساوسة والمبشرين والمستشرقين، بالتفاصيل وبدقة بالغة شملت وصف ثياب زينب، والكلمة التي فلتت من لسان محمد لا إرادياً حينما جمعه القدر ذات يوم مع زينب بغياب زوجها!

أليس من المذهل حقاً افتراض أن محمداً لم يمارس العشق في سنيّ شبابه وكماله، ولمّا ناهز الستين عاماً جاء ليمارسه بهذه الحرارة وعلى أثر طرفة عين واحدة من ابنة عمته؟!:

إنّ ما يثير حفيظة الباحث المحقق ويزيد من شكوكه في صحة هذه القصة، ويعزّز الاعتقاد بأنها مختلقة من الأساس، وأنّ زواج محمد من زينب كان بدافع مصلحة الدين - على غرار زيجاته الأخرى بل هنا الأمر أوضح - هو غياب أيّ مؤشر موضوعي على استمرار هذه العلاقة الخاصة بين النبي وزينب حتى بعد مجيئها إلى دار النبي، حيث لا ينقل التاريخ شأناً خاصاً لزينب بين زوجات النبي. ومن الواضح ان حضور عائشة بل

وحضور حفصة وأم سلمة كان أبرز من حضور زينب التي تفترض هذه القصة ان بينها وبين النبي أعلى حالات الحبّ والهيام! :

لو تساهلنا كثيراً وقبلنا أن عائشة لم تكن على علم بشيء من (ملحمة) الحب التي بلغ خبرها الآفاق بعد أن نقلت تفاصيلها السماء وأنيط بجبرائيل مهمة التدخل فيها. لو قبلنا ذلك، فهل يعقل القبول أن محمداً كان يتبادل الحبّ مع المرأة التي بذل ثمناً باهضاً لانتزاعها من بيت ابنه بالتبني، دون أن تشعر بذلك عائشة المعروفة بحسّها المرهف في هذه الأمور! أتصور ان قلب عائشة كان المرآة الحساسة التي تلتقط أمواج العشق مهما كانت ضعيفة إذا تلاطمت في أعماق قلب محمد، ومن ثم تعكسها بالطبع مع تهويل وتضخيم لا حدّ له، في حال ان عائشة كانت صامتة مطبقة في صمتها، ولم يعلُ لها صوت في هذا الصدد، بما يشير إلى أن قصة محمد مع زينب ليس على نحو قصته مع الحميراء.

أنا الذي لم أكن ملتزماً منذ بدأت التحقيق في هذه القضية بتبرئة محمد من هذا الاتهام ولا متعصباً لاعتبار أنه أجلّ من الحب والعشق، أجدني أميل في نهاية البحث والتأمل والتفكير إلى القول بأن قصة (محمد - زينب) من أبرز الموارد التي تجلّت فيها الروح القيادية في شخصية محمد إذ بلغ الأمر به

التضحية بحيثيّته ووجاهته من أجل الحق. الكثير من القادة والزعماء قدّموا حياتهم من أجل مصلحة المجتمع أو العقيدة التي يؤمنون بها، ولكنهم كانوا يحصلون لقاء ذلك على الجاه والسمعة الطيبة ويعلو شأنهم ويسجّل اسمهم في تاريخ الأمم، أما التضحية بالاسم والسمعة من أجل الحق والناس، فهو قمة في الإخلاص والفداء والتضحية لا يدرك معناها إلا ذو حظ عظيم.

تعدّد الزوجات

أشرنا سابقاً أن التاريخ يغيّر معنى الكثير من القضايا الإنسانية. فالقضايا الأخلاقية والاجتماعية تواجه تاريخياً مصيراً يشبه المصير الذي تواجهه الألفاظ والكلمات بمرور الزمن من تحوّل وتبديل. ومعروف أن روح الكلمات ومعانيها وحتى طريقة تلفظها تخضع لتأثير عاملين أساسيين؛ الزمن والبيئة.

(البركة) مثلاً، تعني في أصلها، فضلات الإبل بعدما يمرّغها الرمل والتراب، ولكنها اليوم تدل على معان ومضامين يعجز عن دركها العقل والشعور الإنساني، إذ البركة اليوم هي حصيلة العناية الإلهية بشيء حتى انها تستخدم صفة من صفات الله (تبارك)! . . .

الكلمات كائنات حيّة لها ولادة وممات، وطفولة وشباب ونضج وكمال وهرم وشيخوخة، وعزلة ووفاة. ولكن أنصاف الأدباء عندنا جهلوا هذا الأصل الحيوي في اللغة، . . ولم يعلموا بحصول تغيّر وأحياناً انقلاب وتبدّل في روح الكلمة ومعناها وتلفظها. فيتفضلون علينا بالقول أن التلفّظ لهذه الكلمات كذا وكذا، وأن المعنى الأصلي لتلك الكلمات كذا وكذا، وأن الكلمات الفلانية أغلاط مشهورة! والكلمة الفلانية

تلفظ بالفتح لا بالكسر، غافلين عن ان لغة المجتمع شيء حيّ ومتحرك ومتحول من الكلمات، ولا يمكن إجبار الكلمات على الاحتفاظ بقالبها وزيّها وعلاقاتها مع الكلمات الأخرى على نفس النمط الذي كان موجوداً أيام البيهقي والفردوسي ونصر الله المنشي(١).

كما ان الكثير من المسائل الإنسانية والأخلاق الاجتماعية كذلك أيضاً، أي انّ لها في كل حقبة زمنية معنىً وأثراً وروحاً خاصة قد تفتقر إليها أو تتغيّر في حقبة أخرى، وربّما يصل الأمر إلى أن تُناقض معناها الأول، ومن هذه المسائل مسألة تعدّد الزوجات. . .

في ما مضى كانت ثمة ظاهرة اجتماعية تدعى (تعدّد الزوجات) في مجتمع قبليّ وبدويّ وأبويّ تفصله مسافات شاسعة جداً عن المجتمع البرجوازي والمدنية المعقدة وقانون الزوجة الواحدة. ولو نظرنا إلى تلك الظاهرة بمنظار معاصر، وقارنّاها بما هو قائم الآن في المجتمع الأوربي، فمن الطبيعي أن تأتي أحكامنا قاسية على الظاهرة فنعتبرها مدانةً ومستنكرة ولابدّ من القضاء عليها. بيد إنّ هذه الطريقة في النظر والتحقيق بقدر ما تكون مجدية على صعيد الدعاية والتهريج، فإنها تلحق أضراراً

---

(١) شعراء إيرانيون.

فادحة بمناهج التحقيق والبحث العلمي، وتحول دون إبصار الحقيقة كاملة. والأمر لا يقتصر على تعدد الزوجات، بل الزواج بذاته كان يحمل مفهوماً مغايراً لما عليه اليوم، وقلّما كان يُنظر إليه كممارسة تعبيرية عن الحبّ والعشق الذي ينشأ بين الرجل والمرأة، بقدر ما هو نوع من الطقوس الاجتماعية ؛ الغرض منها استحداث علاقات وروابط ومواثيق جديدة، وبالتالي يكون للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الأخلاقية، تأثير أكبر من تأثير عامل الحب أو اللذة.

ففي اليونان القديمة ورغم ما كان يمثله المجتمع اليوناني من مرحلة حضارية متطورة قياساً بغيره من الأمم والشعوب، مع ذلك كان الزواج يُنظر إليه كآلية للتناسل وحفظ النوع الإنساني، والمرأة هي أم الأولاد، أما اللذة فيجري إشباعها خارج البيت دائماً. في ذلك العصر كانت المرأة وسيلة للإنجاب، ودورها أن تكون سيّدة المنزل لا أن تلبّي رغبة الرجل»[١] الذي كان غالباً ما يقضي أوقات المتعة مع الجواري والغانيات.

هذه القضية، لا نعثر عليها فقط في النصوص الدينية (قصة لوط) ولا الأدبية (أشعارنا الغزلية)، بل في سيرة شخصيات معروفة مثل سقراط الذي كانت له علاقة حميمة مع

---

(١) قابوسنامه، ص٧٨ .

الكبيادس إحدى الشخصيات العسكرية والوطنية اليونانية وتعدّ من طلاّبه البارزين، مع ذلك فقد كان المجتمع يتلقّى الأمر بصورة طبيعية بحيث يعلن عن تلك العلاقة جهاراً، حتى ان الكبيادس تشكو من برود سقراط الحكيم، فيعلن الرجل بصراحة ان وقتها قد انتهى![1]

وفي الأدب الفارسي نجد الشيخ سعدي، مصلح دين ودنيا، ومعلم أخلاق ورجل عرفان ودين ومنبر ومؤلف كتب في الأخلاق، ومع ذلك قد نعثر في نفس كتابه الأخلاقي والتربوي بين حين وآخر على إشارة إلى أنه هو أو قاضي همدان أو فلان أو فلان، كان له غلام يتسامر معه، أو أن الشخصية العلمية أو الدينية يفد على المسجد الجامع في المنطقة الكذائية فيستدرج أحد الطلاب ليداعبه باللمس والتقبيل، وقصص اخرى غريبة في هذا المجال.

أل(قابوسنامة) كتاب في الأخلاق يتضمن نصائح رجل لابنه، ونجد أن الأب يعظ ابنه في هذا الكتاب بالقول: «لا تقصر رغبتك على جنس واحد من الجواري والغلمان وحاول التمتع بالاثنين لكي لاينصب أحدهما لك الخصومة»[2].

---

(١) الضيافة، افلاطون.

(٢) قابوسنامه، ص٦٧ .

وتستطيع العثور على نماذج كثيرة من هذا النمط في تواريخ الأمم وآدابها، مما يسلّط الضوء على طبيعة النظرة السائدة آنذاك حول الزواج على النحو الذي يثير دهشتنا وذهولنا، ويهيؤنا نفسياً لفهم الظاهرة الواقعية التي كان لها فيما مضى روح ومعنى آخر، ألا وهي ظاهرة (تعدد الزوجات).

هل حقاً ان محمداً كان شخصية «دون جوانية» ؟ ان من يريدون وصم رجل ما بأنه زير نساء، يعمدون في الغالب إلى قراءة وقائع حياته أيام الشباب والفتوة حيث تتنامى هذه النزعة في سنيّ الشباب، غير أن التاريخ الذي يروي لنا تفاصيل جزئية عن حياة النبي وسيرته مع زوجاته لا يتوفر على مفردة واحدة تعكس شيئاً من هذا القبيل في سلوك محمد أيام شبابه. فالرجل كان حليف الفقر والبؤس والمعاناة إلى سنّ الخامسة والعشرين من عمره، وأول امرأة تعرّف عليها في حياته وتزوّج بها هي خديجة المرأة الثيّبة البالغة من العمر أربعين ويقال خمساً وأربعين عاماً، والمتزوجة من قبل مرتين، ولها أولاد بعمر محمد! لقد قضى محمد سنيّ سنوات شبابه بل وكماله مع هذه المرأة. وعلى مدى ثمانية وعشرين عاماً أمضاها معها لم تدخل حياته أية امرأة أخرى. وما لا يجب التغاضي عنه هنا ان الرجل حينما كان في عنفوان شبابه، شأنه في ذلك شأن سائر شبان قريش؛ لم يكن مكبّلاً بوجاهة اجتماعية أو محاذير أخلاقية أو مسؤوليات سياسية أو عسكرية، والأهم من ذلك كلّه أنه لم يكن يتحمل آنذاك

مسؤولية الرسالة الخطيرة، ولا هو بكهل أو شيخ أو غيرها من المواصفات التي توالت عليه لاحقاً، وكبّلته بقيود وأغلال لم تكن موجودة فيما سبق. من المدهش حقاً، ان فتى عبد الله، الشابّ العاري عن أي مسؤولية والتزام، يمضي حياته مع أيّم عمرها أربعون ومن ثمّ خمسون وستون وحتى سبعون عاماً، دون أن يحدّث نفسه بهوى امرأة أخرى.

لحسن الحظ أن أكثر المبشرين المسيحيّين تعصّباً يقرّ ببراءة محمد من هكذا اتهام طيلة مكوثه في مكة. فما عدا مما بدا؟!

ما الذي دهى الرجل حينما هاجر إلى المدينة فصار يعشق النساء وتستهويه الفتيات بعد أن جاوز عمره الخمسين عاماً وارتقى إلى مقام النبوة وتضاعفت مسؤولياته الدينية والسياسية والأخلاقية، وصار فكره وروحه وسيرته وسلوكه وعمره وموقعه الاجتماعي والأخلاقي، يلهم الناس الالتزام والتقوى والورع والجدّ والمكابدة. فأنىّ له والحال هذه أن يركب شهوته وينجرف بالكامل مع تيار اللذة والأهواء.

حتى دون جوان الذي نسمع به، لمّا كبر وهرم وتجاوز سنّ الشباب نسي النساء ولازم الورع والعفة والأخلاق، فأنّى لمحمد؛ هذا الفتى العربي الذي قضى سنوات شبابه مع امرأة هرمة أن يعود ليصبح (دون جوان) بعد بلوغه مقام النبوة وانهماكه إلى أذنيه في مشكلات الحرب والسياسة.

إن المؤاخذة التي سجّلها المبشّرون وأثاروا حولها ضجيجاً واسعاً هي التغيّر الذي طرأ في حياة محمد بالمدينة في عدد الزوجات، ناسين أو متناسين أنّ ما يلبّي طموح الرجل وشهوانيته هو جمال النساء لا عددهنّ!

الرجل المولع بالنساء يحبّ من الفتيات، ذوات الطراوة والنداوة، لا أيامى النساء اللاتي أكل الدهر عليهن وشرب، أمثال ابنة عمر ممن ليس لهن من الجمال والطراوة وحسن الهيئة والتركيب نصيب، .وإن كان فقدنه في بيت زوجهن أو أزواجهن الأوائل، وبدلاً من حيوية الشباب وأنس الفتوة وإثارة الليل، سيواجه محمد وقار العجائز وبرودة العوانس!

لحسن الحظ أن بوّاب (دارة الحريم) في (بلاط) محمد هو التاريخ الذي يعرف جيداً خصائص كل واحدة من زوجاته بالتفصيل؛ كيف وفدت على هذا البيت وكيف عاشت فيه. . . والتاريخ بالتالي يعرف عن زوجات محمد اكثر مما يعرف عنهن القساوسة المبشرون والباحثون المستشرقون:

عائشة :

توفّيت خديجة ولها من العمر ثلاثة وسبعون، وكان محمد حينها يناهز الخمسين عاماً، ويعيش في قمة القلق والاضطراب ومرارة العيش بمكة. الكثير من أنصاره واصحابه هاجروا إلى الحبشة، وبقي هو ونفر قليل من أصحابه الأوفياء

أسرى في قبضة بلدة تنصب لهم العداء. وفي هذه الأثناء توفي ناصره القوي الوحيد أبو طالب، وبقي محمد لوحده؛ يواجه خارج البيت حقد وضغينة المكيين، وداخل البيت يرى فاطمة الصغيرة ويتذكر أمّها. رقّ الأصحاب لحاله وحملوه على الزواج من امرأة أخرى، غير ان حبّ خديجة التي لم ينسها لساعة وفاته - والهمّ السياسي والاجتماعي والرسالي الذي يحمله لم يدعا له مجالاً واسعاً ومساحة رحبة للتفكير بامرأة. عائشة بنت أبي بكر الفتاة الوحيدة التي ولدت في الإسلام، وهذه الخصوصية شجّعت بعض أصحاب محمد على التفكير بأن تكون أول امرأة تولد في الإسلام ولم ترَ الجاهلية، زوجةً لنبي الإسلام. الشعور والإحساس المرهف وحده قادر على إدراك مغزى هذا الإقدام وجانب الرقة واللطف فيه. أول زهرة تورقِ وأولى الثمار التي تنضج في البستان تهدى لزارعه! القلب والوجدان يشهدان بصحة هذا الإجراء وشفافيته، وهل هناك من أحقّ بها منه؟!

أبو بكر ذو الإحساس الرقيق، كان وجوده طافحاً بحبّ محمد فضلاً عن الإيمان به، فتقدم بنفسه بهذا الاقتراح إلى النبي، غير أن عائشة ما تزال صبية لم تتجاوز السابعة من عمره، ومحمد رجل كهل يعدو على الخمسين عاماً، وفي بيته فاطمة المحتاجة إلى رعاية وأمومة، وفي خارج البيت يتربّص به أبو جهل وأبو لهب؛ حياة عصيبة وطريق محفوف بالمآسي والأخطار، محمد بحاجة إلى من يواسيه! وواضح ان صبية أبي

بكر لا تصلح زوجةً لمحمد في مثل هذه الظروف، غير ان محمد يخطبها وذلك لكي تنتسب إليه أول وليدة في الإسلام، طليعة الجيل الإسلامي الواعد، هذا أولاً، وثانياً: لكي يوثّق عرى الصداقة مع شريكه أبي بكر عبر تحويلها إلى عرى قرابة ومصاهرة! وهي أقوى العرى في ذلك الزمان والمكان بين شخصين؛ الأمر الذي يدركه جيداً علماء الاجتماع المتخصصون بدراسة المجتمعات البدوية والقبلية.

عائشة الفتاة البكر الوحيدة التي وطأت بيت محمد، وهي المرأة الوحيدة التي كان لجمالها وطراوتها تأثير في قلب محمد. لكن هذا الجمال والطراوة ليس هو السبب في زواج محمد منها، لوضوح ان جمال طفلة لا يؤثر في إحساس رجل كهل جاوز الخمسين.

ان زواج محمد بعائشة زواج رمزيّ تعبيري لوحظت فيه أبعاد موضوعية ومصلحية، وهاهنا لا مجال للحديث عن عشق وحبّ، لم يأخذ محمد عائشة إلى بيته وهو في مكة، ولم يتزوجها إلاّ بعد سنتين. وكان خلال هذه الفترة قد هاجر إلى المدينة.

يقول الكاتب المصري المعاصر محمد حسين هيكل: «إن المحبة التي كانت تحظى بها عائشة لدى النبي تولّدت بعد الزواج لا قبله ولا أثناءه، ومن هنا لا مجال للقول ان هذا الزواج حصل لدواع غِريزية أو عاطفية. . . بل لا يعقل ان محمداً كان يحبّها

وهي ذات سبع سنوات»[١].

وفي ضوء ذلك يتضح ان الزواج الوحيد لمحمد بفتاة بكر لم يكن هو الآخر بدافع الحبّ والميل إلى النساء. واليك حكايات زيجاته الأخرى:

سودة:

بنت زمعة، وكانت زوجة ابن عمها سكران بن عمرو، من أوائل المسلمين، اعتنق وزوجته دعوة محمد في أيامها الأولى التي تمثل الظرف العصيب من الرسالة. وقد عانيا كثيراً من اجل العقيدة وهاجرا إلى الحبشة بأمر النبي، وبعد عودتها من الهجرة فقدت زوجها وبقيت بلا ملاذ، وما عاد بانتظارها سوى القدر المحتوم والمصير المشؤوم، بعد أن لم تكن لديها من خيارات سوى العودة إلى أجواء الجاهلية الحمقاء أو الزواج برجل ليس كفؤاً لها ولا لزوجها المجاهد الكبير في سبيل الإسلام. لم يكن أمام محمد سوى إن يؤوي تلك المرأة الطاهرة الشريفة الأبيّة التي تكاد حياتها تؤول إلى خراب بعد كل ما تحملته من جهاد وعناء.

وبزواجه منها ردّ النبي كثيراً من اعتبارها بأن جعلها زوجة له وبديلة لخديجة.

(١) عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٦٥، بيروت.

هند (أم سلمة) :

بنت أبي أمية، وزوجها عبد الله المخزومي (أبو سلمة)، المجاهد الكبير الذي أصيب بجراح في أحد وتوفي متأثراً بجراحه بعد عودته ظافراً من القتال مع بني أسد. وقف محمد على فراش الموت لصاحبه الوفيّ ودعا له، وبعد وفاته حزن عليه حزناً عميقاً وبكى عليه بكاءً شديداً. زوجته أم سلمة كانت مسنّة وقد خلّف لها زوجها الشهيد أولاداً، صغاراً وكباراً.

مرّت أربعة أشهر على شهادة (أبي سلمة) وأم سلمة تعيش مأتم زوجها وغمّ أولادها الذين بقوا بلا معيل ولا ملجأ آمن، وكبار الصحابة كانوا يستشعرون المسؤولية حيال هذا الوضع، تقدم أبو بكر لخطبة أم سلمة لكنّها اعتذرت متذرعة بكثرة أولادها وفوات شبابها، لحَقه في ذلك عمر فجاء الجواب نفسه، أخيراً تقدم النبي بنفسه لخطبتها، فقالت : كيف بي ورجالي بمكة؟! فقال النبي: يزوّجك ابنك ويشهد لك رجال من أصحاب رسول الله، فاجتمعوا لذاك فخطبها إلى ابنها، فقال ما تسوق إليها من الصداق؟ فقال: كما أصدقت عائشة؛ صحفة كثيفة وقدحاً كثيفاً وفراشاً حشوه ليف[١].

وكانت هي المرأة الوحيدة التي استطاعت ان تعوّض النبيّ

(١) المنتخب من كتاب أزواج النبي، ج ١ ، ص ٤٢ .

عن بعض ما فاته بفراق خديجة، على اعتبار ما كانت تتصف به من مواصفات قريبة لمواصفاتها في السلوك والشخصية والرزانة.

رملة (أم حبيبة) :

بنت أبي سفيان التي أقدمت على عمل تضحويّ كبير حين آمنت بمحمد في قمة صراعه في مكة مع أبيها، ومن ثم هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، وهناك تنصّر زوجها متأثراً بالمناخ العام، بينما صمدت رملة على دينها فتركها زوجها وحيدة في ديار الغربة، لم تكن قادرة على البقاء بالحبشة وحدها ولا على العودة إلى مكة بعد أن هجرها محمد والمسلمون إلى المدينة، وحتى لو كان أبو سفيان مستعداً لإيوائها فلاشكّ أن ذلك سيكون مشروطاً بتخلّيها عن عقيدتها؛ الأمر الذي لم تكن تتحمل الهوان الذي فيه. وجزاءً على هذه التضحيات ومن اجل إسعاد المرأة الشريفة التي بات كابوس البؤس يهدّدها جرّاء ايمانها بدعوته، ولما في الزواج من ابنة خصيمه اللدود (أبي سفيان) من مغزىً لا يخفى على الحصيف، قرّر محمد خطبة رملة، وذلك في مراسيم (فاخرة) إذ تولّى النجاشي ملك الحبشة عقدها وكيلاً عن محمد ودفع لها الصداق.

جويرية :

بنت الحارث كبير قبيلة بني المصطلق، صارت في الحرب سهم ثابت بن قيس، فجاءت إلى النبي وقالت له إن ثابتاً

يريد ثمناً باهظاً لفديتها وهي لا تملكه، وطلبت من النبي أن يساعدها في هذا الأمر، فقال لها النبي: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: أقضي كتابتك وأتزوجك.

قالت: نعم يا رسول الله.

قال: قد فعلت.

وخرج الخبر الى الناس ان رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس : أصهار رسول الله.. فأرسلوا ما بأيديهم[(١)]!

وبهذا التدبير، استطاع محمد ان يحلّ الحبّ والمودة بدل الحقد عليه في نفوس بني المصطلق وخاصة زعيمهم، وحثّ المسلمين على إطلاق سراح أسراهم، إذ بعد زواج النبي من(جويرية) صار أسرى بني المصطلق أصهاراً للنبي، ويشقّ على المسلمين ان يأسروا أقارب النبي، فأطلقوا سراحهم، ودخلوا في الإسلام جميعاً، وها هم بنو المصطلق الذين كانوا بالأمس من أعدى أعداء محمد، أصبحوا اليوم أقرباء له، وجاء

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص.٦١٠

زعيمهم إلى المدينة وخيّر ابنته بين المكوث عند محمد او الرجوع معه فآثرت المكوث.

صفية :

ابنة زعيم بني قريظة التي وقعت في سهم النبي من غنائم الحرب، فخيّرها بين العودة إلى أهلها أو عتقها والزواج منه فاختارت الثاني.

ميمونة :

أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، بعد صلح الحديبية بعام، قصد النبي مكة معتمراً ولم يكن يحق له - بموجب المعاهدة - المكوث فيها اكثر من ثلاثة أيام، وكان يحرص خلال الأيام الثلاثة على استمالة قلوب الناس بأخلاقه والتقليل من درجة الحنق والحقد عليه التي زرعها في النفوس زعماء الكفر، وكان يتوخّى الذرائع لكسب رضاهم في تمديد مدة إقامته هو وأصحابه في مكة لكي يكون بمقدوره التأثير في أهلها أكثر.

وفي غضون ذلك، عرّف العباس عمّ النبي الذي كان آنذاك في صفوف المشركين، ميمونة على النبي، فخالطت المسلمين فأثّر فيها سلوكهم خلال الأيام التي قضوها هناك فاعتنقت الإسلام. وكانت أخت زوجة العباس وخالة خالد بن

الوليد الفارس المعروف في قريش وبطل معركة أحد. ناهيك عن أن لقاءها بالنبي على مدى ثلاثة أيام وتعرّفها على شخصيته وأخلاقه وسيرته قدح في قلبها شرارة حبّ بلغت حرارته تخوم السماء، وقد أثنى الوحي على هذا الشعور البريء، وكانت زوجة العباس قد وكّلته لكي يختار زوجاً مناسباً لأختها، فلم يجد الرجل أفضل من ابن أخيه محمد، فعرض الأمر عليه.

إسلام ميمونة وانتماؤها لسادة قريش، وقرابتها من خالد الذي غيّر سيفه مصير المعركة في أحد من نصر إلى هزيمة للمسلمين؛ كلّها عوامل حملت محمداً على القبول بهذا العرض، خاصة وانه سيستفيد من هذا العمل دعائياً عبر إقامة مراسيم الزواج في آخر أيام إقامته بمكة؛ الأمر الذي يمكّنه من دعوة قريش كلّها لوليمة بالمناسبة، ولماّ لم يكن إسلام ميمونة معلناً عنه إلى ذلك الحين فإن زواج محمد منها وحضور المسلمين والمشركين في حفل واحد، واجتماع من رفعوا السيوف بوجه بعضهم في بدر وأحد على مائدة واحدة، سيكون له أبلغ الأثر في نفوس العرب ويزيل كثيراً من الحواجز والبرود القائم بين الفريقين، ويقرب من الهوّة الفاصلة بينهما. وهو عدا ذلك كلّه ذريعة للمكوث في مكة لأطول وقت ممكن.

ومضافاً لما في ذلك من فوائد دعائية وروحية واضحة، فإن من المحتمل ايضاً وقوع او افتعال أحداث تخدم توجّه

النبيّ، وتتيح له كسب امتيازات جديدة علاوة على ما حصل عليه من صلح الحديبية.

وقد أدرك زعماء قريش خطة محمد والهدف من وراء هذا الزواج، فعارضوه بشدّة ورفضوا اقتراح النبي بعقد مراسيم الزواج في مكة، فاضطر النبي لإقامتها في طريق عودته إلى المدينة. ومع ذلك، فإن هذا الزواج الذي حقق له - لا محالة - صلة قرابة مع بعض وجهاء قريش، لم يخل من تأثير في نفوسهم، ونرى ذلك واضحاً فيما بعد، في لجوء خالد بمعيّة عمر بن العاص وعثمان بن طلحة إلى المدينة ليشهروا إسلامهم على يد النبيّ.

حفصة:

ابنة عمر، مات عنها زوجها، ورغم شخصية أبيها عمر، لم يتقدم أحد للزواج منها. فاضطرّ عمر للتدخّل بنفسه، فعرض على أبي بكر الزواج منها لعلّ صداقته معه تدفعه في هذا الاتجاه، ولكنّ أبا بكر التزم السكوت. توجّه عمر نحو عثمان وعرض عليه الأمر أيضاً فجاء الجواب نفسه، حزن عمر من الموقف (الصامت) لصديقيه الحميمين فشكاهما إلى النبيّ، فقال له: زوّجها ممن هو خير لها من أبي بكر وعثمان!

وبهذا الأسلوب قوّى النبي محمد علاقته بعمر الذي يعدّ من الشخصيات النافذة والمؤثرة كثيراً في الإسلام، وذلك على

غرار ما فعله مع أبي بكر وعثمان وعليّ من إيجاد علاقات مصاهرة.

من خلال سعي عمر وجواب كل من أبي بكر وعثمان يمكن للمرء أن يحدس كيف كان جمال حفصة! ولكن الأفضل أن نصغي في هذا المجال إلى كلام والد العروس نفسه! وذلك لنعرف من هو (محمد) الذي يطعنه المستشرقون والمبشرون بأنه زير نساء مفتون بالمرأة وجمالها، والذي اختار وهو في عنفوان مجده وعظمته امرأة من هذا النوع! فبعد أن سمع عمر بأنّ حفصة ابنته تتواطأ مع عائشة الفتاة الجميلة في إيذاء محمد، وتتشبه بها في سلوكها مع النبيّ، قام على رأسها يصيح بها غاضباً، ويحذرها من مغبة مقارنة نفسها بعائشة!

زينب:

بنت خزيمة وزوجة عبيدة بن الحارث الذي استشهد في بدر، وكانت زوجته مسنّة وعجوزاً للغاية. وقد اختار محمد هذه المرأة الواقفة على حافة القبر، زوجة له، لأنه لم يكن يريد لزوجة شهيد أن تذلّ في آخر أيام حياتها. وكانت زينب ذات ورع وتقوى وإحسان، وقد وقفت حياتها على كفالة الأيتام وإعانة الفقراء والمساكين، وبالغت في هذا الأمر حتى لقّبت بـ (أم المساكين)!

هاتين سيّدات بلاط محمد!

وأدناه ملاحظات أرى من اللازم التطرق لها في ختام هذا البحث، **الأولى** : إن حكم تعدّد الزوجات وجعل الحدّ الأعلى أربعة، نزل في العام الثامن للهجرة، ومن الطبيعي أن عاقلاً لا يطلب من محمد في هذه الحالة تطليق أربع من نسائه والإبقاء على أربع!

والملاحظة الثانية : والتي غالباً ما تغيب عن الأذهان أن الإسلام لم يشرع تعدد الزوجات، إذ لم يكن هناك حدود للزواج قبل الإسلام، الإسلام جاء ليحدّد الزوجات، فهو لا يقول: خذوا أربع زوجات، بل يقول: لا تأخذوا أكثر من أربع! وشتّان بين الأمرين!

إن التمعن والتأمل الدقيق في الآيات المتعرضة لمقولة (تعدد الزوجات) يوضّح لنا فلسفة التعدد وشروطه الموضوعية. فالقرآن يلزم الرجل أولاً بمراعاة العدل بين النساء ولا يلبث أن يعترف بأن ذلك غير ممكن: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1].

إن هذا البيان الفني البديع لا يدع مجالاً للعارف بمبادئ اللغة وروح القرآن وفنون التفسير وغير المغترّ بأحدوثة (تعدّد

---

(١) النساء، ٢٩ .

الزوجات)، لأن يفكر بشيء سوى الإقرار بأن هذه الشروط التعجيزية والثغرات الضيّقة جداً لا يمكن أن يمرق منها إلاّ حالات نادرة وبظروف استثنائية جداً وفي موارد فردية واجتماعية لا يسع الإنسان العاقل إلا القبول بمبدأ تعدد الزوجات فيها، مراعاة للضرورة الروحية أو الأخلاقية. ويمكن استشعار الموارد الفرديّة للقضية من النص القرآني نفسه، حيث جاء هذا الحكم في سياق الكلام عن أحكام اليتامى[١].

ومعروف أنّ الأرامل واليتامى تواجه في المجتمعات المتخلفة التي تفتقر إلى الدولة والمؤسسات الحكومية والاجتماعية، مصيراً حالكاً ومستقبلاً أسوداً.

أما الموارد الاجتماعية، فقد اطّلع الجيل المعاصر لحسن الحظ على كثير منها في قرن الحضارة والمجتمعات المدنية المتطورة وعصر الاستقلال الحقوقي والاقتصادي والنفسي للفرد واحترام شخصية المرأة والمساواة بينها وبين الرجل.

فبُعَيْد الحرب العالمية الثانية برزت أزمة حادّة جداً بسبب هلاك ملايين الذكور في قارة أوربا وعلى وجه التحديد في ألمانيا والنمسا وبولندا، وقد انتشرت موجات البغي والفساد والابتذال

---

(١) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ (النساء: ٢، ٣).

والأمراض النفسية والعصبية بين أوساط النساء الأرامل والأطفال اليتامى، وكانت المشكلة على مستوى من الجدية ترك آثاراً بارزة على روح المجتمع الأوربي وأخلاقه التي تعرّضت لانحطاط شديد، وصاحب ذلك تظاهرات واعتراضات نسوية واسعة احتجاجاً على المذهب الكاثوليكي الذي لا يبيح تعدّد الزوجات ولا الزواج المجدّد.

وقد نبّهت هذه الاحتجاجات أوساط المؤمنين الذين كانوا يحسبون أن الدافع لتعدد الزوجات هو دافع شهواني فحسب، وكذلك النخبة المثقفّة التي كانت تعدّ تعدد الزوجات سلوكاً لا إنسانياً، نبّهتهم إلى فلسفة تعدّد الزوجات وموارد الحاجة إليه.

عام ١٩٥٨م عمّمت جبهة التحرير الوطني الجزائرية (n.l.f) بلاغاً على منتسبيها توصيهم به بتزوّج نساء إخوانهم المجاهدين الذين يستشهدون في ميادين الكفاح مع العدو، وذلك لكي لا تكون الشهادة سبباً في تعاسة أسر الشهداء وتشريد أطفالهم[١].

والذي أبغي قوله هنا إنه لا ينبغي ان تؤخذ قضية تعدد

---

(١) Algere par le textet,ll.

وكذلك نشرة (المجاهد) الناطقة باسم جبهة التحرير الجزائرية، عدد يوم ١٤/١٢/١٩٦٢ ، وعلى هذا الاساس كان زواج خميستي اول وزير خارجية في الجزائر، وكان شاباً.

الزوجات في الماضي وفي مجتمعات بدائية وينظر إليها بعين معاصرة وبالمعنى الذي يفهم منها اليوم. والملاحظة الأخرى التي تجب الإشارة إليها بشأن حياة محمد الخاصة، وهي قضية نفسية غريزية، ان النبي لم يرزق بولد في المدينة من أي واحدة من نسائه اللواتي كنّ جميعاً - باستثناء عائشة - أيامى وقد ولدن لأزواجهنّ السابقين، وهذا من الأمور الملفتة للنظر في حياة محمد.

أحد الأمور التي يمكن أن تخطر في الذهن فيما يرتبط بتعدد الزوجات، ان النبي شأنه شأن أي رجل خصوصاً إذا كان في النصف الثاني من عمره - يتطلع بطبيعة الحال إلى أن يكون له ولد؛ الأمر الذي لم يتحقق له إلاّ على مستوى ماريا القبطية التي ولدت له إبراهيم ولم يلبث أن مات. وقد بدا هذا الميل لإنجاب الولد واضحاً على النبي في حزنه الشديد على إبراهيم، ولكن شاء القدر أن لا يكون لأكبر شخصية في المجتمع العربي المتفاخر بكثرة الأولاد خاصة الذكور منهم، سوى طفل واحد وأن تكون أنثى لا ذكر، ما أروع مشيئة القدر وإن أحزنت محمد وآلمته!

ولنتساءل: كيف كانت دار حريم محمد؟ إنها غرف مبنية من الطين متصلة بالمسجد سقفها من جريد النخيل وسعفه، أما بيت عائشة التي كانت سيدة القصر! فنصفه مفروش بقطعة جلد ونصفه الآخر بالرمل (الناعم جداً)، وقناديل هذا القصر عبارة عن جريد النخل المشتعل، أما مطبخه وطعامه فيمكن أن نستوحيه من

وصف أبي هريرة للنبي بأنه لم يشبع من خبز الشعير، وربما لم يكن في بيته قدر على نار شهرين متتاليين، فلا يأكل سوى التمر والماء، وقد يشدّ الحجر على بطنه من ألم الجوع!

أنا كلّما يخطر في بالي دار محمد وأسلوب معيشته وكيف انه قضى عزّ شبابه مع أرملة تراوح عمرها بين الخمسين والسبعين عاماً، وقضى كهولته مع أيامى وأرامل أكل الدهر عليها وشرب، أمثال أم سلمة وزينب بنت خزيمة (أم المساكين)، وبالذات مع حفصة! وكانت تلك داره وذاك طعامه، أجد الحسرة تطبق عليّ أن محمد كان بمقدوره ان يحظى بنساء اكثر جمالاً وحياة أوفر رخاءً، وكلّما سمعت أحاديث من يصفون محمد بالشبق والشهوانية، يستولي عليّ الشعور بالخجل وأتساءل مع نفسي: إلى أي مدى يكون الكاتب والباحث حقيراً ووضيعاً كي تسوّل له نفسه تشويه وجه الحقيقة إلى حدّ يلوّث صورة فخر التاريخ ومعجزة الإنسانية!

أخلاق وطباع محمد

لم يكن محمد بالرجل الذي يتفاعل الناس مع أفكاره فحسب، فمضافاً إلى كونه رجل حرب وسياسة وسلطة، كانت الصفة الأبرز فيه هي التقوى والمعنوية والوداد. النزعات السياسية والعسكرية التي غمرت أرجاء حياته، لم تقف حائلاً دون أن يتمثل الناس في محيّاه الطمأنينة والصفاء المأمول من نبيّ. لم يكن ثمة رجل أكثر منه نفوذاً ومحبوبية في مجتمعه، حتى انه ظلّ حيّاً ينبض في جسد الأمة بعد رحيله بقرون، وظلّت أقواله وأفعاله آيةً يتغنّى بها أبناء أمّته فكرياً وسلوكياً، وما زالت سنّته إلى اليوم منهلاً رئيساً للإلهام الفكري لدى المسلمين؛ بمعيّة القرآن طبعاً.

كأن حديثه إلهام، يستعرض فكرته بهدوء ويتجنب الخوض في المراء والجدل المنطقي والفلسفي، يكتفي بتلاوة آيات من القرآن في جواب من يتوثّبون لمعارضته ومجادلته، ويحرص على عرض معتقده ببيان سلس منساب خالٍ من

التعقيد. لحديثه طعمٌ خاص يختلف عن القرآن اختلافاً جليّاً، بحيث يمكن لأيٍّ كان تشخيص الفارق بين الحديث والقرآن، فحديث محمد يتّسم - خلافاً للقرآن - بخلوّه من فنون التعبير والتعقيد اللفظي أو المعنوي بينما يتصف بسحر وجاذبية خاصة، يؤثر في قلب السامع وشعوره قبل إن يمرق من قنوات الفهم والتفسير، الفطرة الإنسانية هي وجهته الأولى، لم يكن يهدف إلى تعليم الناس بقدر ما هدفه توجيههم وإيقاظهم من السبات الذي هم فيه. كلامه يستهوي السامع ويدعوه للتأمل وجدانياً اكثر من دعوته إلى التفكير العقلي: «تركت فيكم واعظين : ناطقاً وصامتاً ؛ الناطق القرآن والصامت الموت».

ولأنه هكذا كان، فقد كانت كلمة واحدة تصدر منه في لقاء واحد تكفي لكي ينهار أمامه رجال كانوا مؤهلين للثبات على عقيدتهم حتى الموت، لا يمكن افتراض أن هؤلاء الرجال صدّقوا بسرعة لأنهم سذّج وبسطاء يمكن إقناعهم بسهولة، وذلك ان هذا النمط من الناس إن وجد فهو دائماً كذلك وليس في حال دون حال. ولا يمكن أن نقول أيضاً إن انقيادهم السريع لمحمد يعود إلى جهلهم وضعف اطلاعهم كونهم مجتمعاً بدوياً، وذلك أن العلماء والمثقفين مؤهلون اكثر لقبول الكلام الجديد خاصة ما يتعلق منه بشأن الدين بخلاف البدو والناس الجهلاء حيث يتعصّبون ويعاندون أكثر.

محمد كان يحبّ الشعر، ولكنه يأبى إنشاده. كأنه يعدّ الشعر نقطة ضعف على شخصيته، ولذا كان يتفادى قول الشعر مطلقاً وإذا اضطر إلى الاستشهاد بكلام فيه وزن أو قافية، فانه يتعمد التقديم والتأخير في الكلمات، ولعلّه كان يعتقد أن احتواء الكلام على تصنّع وتكلّف في الألفاظ والعبارات يقلّل من قيمتها. وهو يرى نفسه وكلامه اكثر جدية من أن يشغل نفسه بمثل هذه الأمور.

لم يتوانَ محمد لحظة واحدة فيما أنيط به من مهام. فكان يعرض على الناس ما يريده منهم بأسلوب بسيط يتواءم مع سلامة الفطرة. ولم يكن في كلامه مسائل فلسفية معقدة ومغلقة يعجز عن استيعابها المرء ما لم يتفرغ لدراسة العلوم والفلسفة والمفاهيم المعقدة. والواقع ان سعادة الإنسان ونجاة المجتمع تتوقف على هذه المبادئ الفطرية الواضحة: اعبدوا الله وحده، ولا تخضعوا لأيّ شيء سواه، ولا تخونوا بعضكم بعضاً، ولا تقتلوا بناتكم خشية الإملاق، ولا تقتلوا بعضكم بعضاً ظلماً وعدواناً، ولا تصغوا لأراجيف شعرائكم الذين يهجون فريقاً ويمجّدون بآخر، زوراً وتزلفاً وتحقيقاً لأغراض دنيئة، ويثيرون مكامن الشهوة والحضّ على الفساد والتمرد والكبر والتفاخر العرقيّ والأسري، بِرّوا باليتامى، وأطعموا الجياع، واجتنبوا الكهنة والسحرة والمشعوذين، ولا تتوغّلوا في مشاغل التجارة إلى حدّ الغرق، وجرّدوا أنفسكم عن حبائل الظلم والجور

والكذب والربا والخيانة والخرافة والنفاق والقسوة وسفك الدماء والحقد والغرور. كان محمد ليّن العريكة وطيّب القلب مع الناس، يتصرف مع اتباع الأديان الأخرى بأدب واحترام مادام الاختلاف في إطاره الإنساني والأخلاقي، أما في موقع المواجهة وعندما يتوقف على الأمر مصير مجتمع بأسره، نجده قاسياً شديداً عنيفاً لا يساوم ولا يداهن. كان يحبّ الصلاة ولكن لا يُفرِط فيها، ولا يطيلها كثيراً، ويوصي الآخرين بذلك أيضاً.

تقول عائشة: كان يحب الصلاة في جوف الليل، وربما استيقظت من النوم فلم أجده، فوقع في نفسي ما يقع في نفوس النساء فأطلبه فألقاه في زاوية من المسجد يناجي ربّه ويتضرّع إليه.

حياته تذكّر بالأولياء والزاهدين. حين توفي كان درعه مرهوناً عند يهودي، ومن ثمّ تولّى أبو بكر فكّ الرهن واستعادة درع النبي. يحبّ الجوع ويتمرّن عليه. وأحياناً يشدّ على بطنه صخرة لكي تخفّف عنه ألم الجوع، وكأنه بذلك يختبر مواضع قوته وضعفه، وبذلك يحول دون تطبّع روحه على الأمور اليومية، ويترفّع بنفسه عن «الحالة الرسوبية» و«الروح المتوسطة» المعدودة من معالم الحياة الفارهة، كان يؤدّب نفسه بسياط العذاب لكي يسمو بها عن الأرض.

وعلى ما تنقل عائشة؛ لم يجمع النبي إدامين على مائدة، فإذا وجد تمراً لم يأكل الخبز، وإذا عثر على الخبز تجنّب أكل

التمر. ومع ذلك كان يتحفظ كثيراً، ويناوئ شيوع ظاهرة التصوف والعزوف عن الدنيا والإغراق في الرياضيات الروحيّة. ذات مرة سمع بأن عثمان بن مظعون اتخذ منحى الرهبنة فامتعض النبي من ذلك كثيراً ووقف يقول: أنا نبيّ وآكل الطعام وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني.

وكان له مزاج سليم ومرهف، فلا يأكل حتى يجوع ولا يشبع عندما يأكل، اعتقاداً بأن السلامة في ذلك. لم يمرض أبداً إلاّ من لحم معزى ديث فيها السمّ من قبل امرأة يهودية من أهل خيبر. ورغم انه أحسّ بذلك فور وضع اللحم في فمه إلاّ ان السمّ الزعاف أثّر فيه بعد أن قتل زميله الذي تناول منه لقمة! ولقد ظلّت آثار ذلك السمّ تفعل فعلها في النبي حتى ان بعض الأصحاب اعتبروا وفاة النبيّ نتيجة لتلك الواقعة فكانوا يعدّونه لذلك شهيداً.

ينقل عن علي أن في ساعة الاحتضار خرج الدم من حلقوم النبي، وكان هذا مؤشراً على ان وفاة النبي لم تكن طبيعية، ولعلّه عزّز حدس أصحابه الذين علموا بمسمومية النبيّ، فرجّحوا أن تكون القضية مدبرة. . .

بسلوكه وتصرفاته، يضفي روحاً وحيوية على ما كان يدعو الناس إليه، ويجتهد عملياً في الدنوّ من البؤساء والمساكين، ومواساة الغرباء من الناس، ومن كانوا يضطهدون

منهم أو يعدّون مواطنين من الدرجة الثانية، من قبل وجهاء قريش ومتعصّبي العرب. كان يتعمّد الظهور بمظهر المتواضع الزاهد بحياة الأعيان، والساعي لزعزعة القيم التي تستند إليها رسومهم وعاداتهم وتقاليدهم.

يأمر بتقصير الثياب خلافاً لهؤلاء، ويؤكد أن لا تتجاوز الركبة، ويوصي أيضاً بتقصير الأكمام وخياطتها ضيّقة.

كان يبغض إطالة اللحية كثيراً، ويقول ما زاد على قبضة اليد فهو في النار!

ربما ركب الحمار بلا سرج، وقد يركّب شخصاً آخر وراءه. يجلس على قارعة الطريق ويؤاكل المعدمين، وإذا اقتضى الحال القيام بعمل جماعي، نلاحظ ان المسلمين كافة من قريش وغيرها، أحراراً وعبيداً، وجهاء ومغمورين، يجتمعون على ذلك العمل لإنجازه، ولم يكن ليستثني نفسه ويميّزها عنهم، فنراه يعمل على غرار الآخرين، بل أكثر منهم.

ومن الملفت هنا؛ الانشداد الأكيد والمودّة الخالصة التي يوليها النبي وأصحابه للآخرين ؛ عروة بن مسعود عاد إلى قومه بعد مهمة تفاوض مع النبي فأخبرهم بأنه اطلع على الأكاسرة والقياصرة فلم ير مثل محمد بين أصحابه . . .

ومضافاً إلى مقام النبوة الذي كان يعظم مكانته ويعزّز احترامه في قلوب وعيون أصحابه، فقد كان يأسر القلوب

بسلوكه الودّي المتواضع وطهارة روحه وجمالها وعظمتها، وكذا الجذابية في إيقاع كلامه وبريق عيونه ونمط حركته. الناس يعتبرونه صديقاً حميماً وأباً رؤوفاً. كان لوقاره وقوة شخصيّته وقع كبير عليهم يقودهم تلقائياً للانقياد والخضوع والتواضع أمامه. وبخصوص علاقته مع الناس ونظرته إليهم بوسعنا القول: ان الحرية التي كان يتمتع بها المسلمون في إبداء وجهات نظرهم حتى على خلاف رأي النبي، مثار إعجاب أكبر لنا، نحن الذين جاوزنا قرنين على الثورة الفرنسية الكبرى، وأمسينا نعدّ الديمقراطية مفخرة عصرنا ونتخذ من الإنسانية مذهباً لنا، ونزعم أننا اكتشفنا حقوق الإنسان وصار لدينا مكتبات ضخمة حول الحرية والليبرالية والحقوق السياسية والاجتماعية للفرد وحرية التعبير عن الرأي والحقّ في انتخاب العقيدة.

ولعلّ الأمر أقل إثارة للدهشة والإعجاب بالنسبة لنا نحن المؤمنين بنبوة محمد وبأنه رجل زهد وتقوى وأخلاق، أما أولئك الذين يعدّونه إنساناً عبقرياً ونابغة فلا يقدرون على كتم دهشتهم وإعجابهم حيال سيرة هذا الرجل؛ السلطان الشرقي الذي يمثل في ذهنية الغرب مظهر العنف والقسوة والاستبداد، وحيث نزع الجلود ودبغها والتعليق على بوابة المدينة أو قصر الإمارة وسمل العيون والرمي في التنور وحمل الرؤوس على الرماح وإبادة أسرة بكاملها بذنب أحد أعضائها وشرب النبيذ في جمجمة انسان، وغير ذلك من ممارسات القمع والتنكيل تعدّ مظاهر يومية لسياسة

هذا السلطان. إلاّ أن محمداً أسّس في شبه جزيرة العرب موطن المجتمع البدوي والقبائل الوحشية العربية، دعائم سياسته القائمة على أسس الحرية والاخوة والمساواة، ومنح أبناء المجتمع حق التعبير عن الرأي ومخالفة رأيه بل وقراره، وإذا رأوا في رأيه نقصاً أو ضعفاً فإنهم يصارحونه في ذلك دون شعور بالوجل أو التهيّب منه، بل لا يقرؤون في وجهه علامة على غضب أو استياء. وما أكثر المرّات التي ووجه فيها من قبل أصحابه أو من قبل أشخاص عاديين في المجتمع، وقد يعارضونه في مسائل حساسة وخطيرة لها صلة بمصير الأمة ومستقبلها.

في بدر اختار نقطة لكي تكون موقعاً للقتال، فلم يرتضها أحد جنوده واقترح نقطة أخرى فوافق النبي. وفي أُحد، نعلم جميعاً، أن النبي مال إلى البقاء في المدينة والدفاع عن حياضها؛ الأمر الذي أثار حفيظة الشباب من أصحابه وجنوده فعارضوا هذا الرأي بشدّة - لما فيه من ذلٍ وهوان بزعمهم - وفرضوا رأيهم عليه، ورضخ النبيّ لحكم الأغلبية، ومع إن نتيجة المعركة عزّزت صحة ما ذهب إليه، ومني المسلمون بأفدح الهزائم وفقد النبي أعزّ أنصاره وأقربائه، وتعرّض الوجود الإسلامي الفتيّ لمخاطر جادة، مع ذلك كله لم يقرّع النبي الأصحاب ولم يُبدِ لهم على وجهه أثراً من عدم الارتياح.

وفي الخندق، دخل النبي في مفاوضات رسميّة مع بني

غطفان ليوجد خرقاً في صفّ العدو عن طريق الترغيب والتطميع، وذلك بأن وعدهم بإعطائهم نصف تمر المدينة في حال تحالفوا معه، وقد قبل العدوّ الصفقة وعقد محمد كزعيم للمسلمين اتفاقية معهم بهذا الصدد، ولكنّ الأنصار عارضوا الاتفاق بقوة، فأعطاهم النبيّ مسودة الاتفاق ليمزّقوها.

وفي الحديبية، وحين كان النبيّ يملي شروط الصلح على عليّ، وثب بعض الصحابة معترضين وانتقدوا بنود الصلح بصراحة، حتى إن عمر كان يعمل جاداً لإلغاء المعاهدة من أصلها. وكان يصرّح بأنها مجلبة للعار، وأن قرار محمد أذلّ المسلمين، ولكنّ محمداً تمالك أعصابه أمام هذه العبارات الجارحة ولم ينفد صبره، وأجاب والبسمة الدافئة على شفتيه وبلهجة وديعة واثقة: لن يخزينا الله!

لم يكن سلوكه أبداً على نحو يجعل أصحابه والأفراد العاديين في المجتمع يخشونه ويهابون إبراز رأيهم بحضوره. إن ولههم وإيمانهم العميق به لم يستدرجهم أبداً إلى أن يصبحوا متملقين او متزلفين إليه بالمديح الفارغ، كانوا يحافظون على شخصيتهم إزاءه ولا يفقدونها، ويتعاملون معه بودّ وحرية وصراحة.

وفي طريق عودته من خيبر إلى المدينة، قال النبي لأصحابه: مَن رجلٌ يحفظ علينا الفجر لعلّنا ننام؟ فقال بلال: أنا يا رسول الله أحفظ لك. فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناس،

فناموا وقام بلال يصلّي، فصلّى ما شاء الله أن يصلي، ثمّ استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه، فنام فلم يوقظهم إلاّ مسّ الشمس، وكان النبي أول أصحابه هبّ من نومه، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟ فقال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك. قال: صدقت، ثم اقتاد رسول الله غير كثير، ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى بالناس، فلما سلّم أقبل على الناس، فقال: إذا نسيتم الصلاة فصلّوها إذا ذكرتموها، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: (وأقم الصلاة لذكري)[١].

كان سلوكه مع النساء، وديّاً للغاية ومن دون تكلف، وفي هذا، تروي امرأة من بني غفار تقول: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار، فقلن يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: على بركة الله. . .

قالت: فخرجنا معه وكنت جارية حدثة، فأردفني رسول الله على حقيبة رحله، فوالله لنزل رسول الله إلى الصبح وأناخ، ونزلت عن حقيبة رحله وإذا بها دم منّي وكانت أول حيضة حضتها، فتقبّضت إلى الناقة واستحييت، فلمّا رأى رسول الله ما بي ورأى الدم، قال ما لك لعلّك نفست؟ قلت: نعم، قال:

---

(١) السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٧ .

فأصلحي من نفسك ثم خذي إناءً من ماء، فاطرحي فيه ملحاً ثمّ اغسلي به ما أصاب الحقيبة من الدم ثم عودي لمركبك. قالت فلما فتح رسول الله خيبر رضخ لنا من الفيء وأخذ هذه القلادة في عنقي فأعطانيها وعلّقها بيده في عنقي فوالله لا تفارقني أبداً. . . فكانت في عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تدفن معها.

كان النبي يعاشر الفقراء والمعدمين وعوام الناس حتى لم يعد بينه وبينهم من حاجز، فربما تطاولوا عليه أحياناً. . .

ذات يوم وقف الوليد بن المغيرة مع الرسول يكلّمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك إذ مرّ به ابن أم مكتوم الأعمى فكلّم رسول الله، وجعل يستقرئه القرآن فشقّ ذلك منه على رسول الله حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه. فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فأنزل الله تعالى عليه فيه:

(عبس وتولّى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكّى أو يذّكّر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى، فأنت له تصدّى، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهّى، وما عليك ألاّ يزّكّى، وأمّا من جاءك يسعى، وهو يخشى فأنت عنه تلهّى، كلاّ إنها تذكرة)! (١)

(١) السيرة النبوية، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

لقد آلم محمداً هذا العتاب الشديد كثيراً، وسرعان ما وثب من مكانه ليبحث عن صاحبه الأعمى حتى وجده واعتذر منه. ولم ينس محمد هذه (القصة - العبرة) أبداً وراح يتذكرها على الدوام، وصار يكنّ احتراماً فائقاً لابن مكتوم، حتى خلّفه على المدينة بدلاً عنه!

ليست قليلة تلك الآيات القرآنية التي تنتقد النبي وتسجل عليه أخطاءً وملاحظات، بل هي أكثر من الآيات التي تمدحه وتشيد به، وهذا في نفوس من يرون الحبّ أرفع منزلة من المدح والثناء، هو من أرفع سمات محمد وأحلى ما قاله الربّ فيه، يقول شاندل: الحبّ في درجاته العليا يتحول إلى عتاب مرير[١]، وأبهى صورة للمعشوق عند العاشق هي أن يغرق في بحر من الملامة والشكوى، ولعلّ هذا هو تفسير المقولة الرائعة: حسنات الأبرار سيئات المقربين!

ومحمّد كان يتلقّى هذه العتابات برحابة صدر واستئناس منقطع النظير، ويظلّ يردّدها في كلّ مكان، ويكأنه يفتخر بها!

تعامله الحسن مع الأسرى، شيمة أخرى من شيمه الكبيرة، فقد أمر المسلمين في بدر بأن يقتسموا ما عندهم من كساء وطعام مع أسراهم، - ولعمري - ما كان عندهم إلاّ

---

(١) Shandel : les Cahiers gris, Tunisie, P 517 .

اليسير. . ورغم ان النبي لم يكن يعرف القراءة والكتابة إلاّ انه سعى لترويجها في مجتمعه، واغتنم فرصة وجود الأسرى ليقوم بمناورة كبرى في هذا الاتجاه. . لقد شرط على كلّ أسير لكي يفدي نفسه من الأسر، أن يعلّم عشرة من المسلمين.

عدا ذلك، كانت له في الحرب مواقف مشهودة، حتى نقل عن عليّ؛ الفارس المغوار، قوله : كنّا إذا حمي الوطيس، لذنا برسول الله!

يقابل الإساءة بالإحسان، والأذى بالعطف والحنان، حتى لَيستحي المسيء ويرعوي من يتعمّد الأذى. .

كان هناك يهودي من أهل المدينة يتعمد إلقاء طست من الرماد الحارّ على رأس النبي كلّما مرّ بالقرب من بيته، وكان النبي يكتفي في كل مرة، بنفض الرماد عن بدنه وملابسه. ومضى اليهوديّ يكرّر هذا العمل يومياً، إلى أن مرّ النبي ذات يوم من نفس المكان، فلم يكن ثمة طست ولا رماد. تعجب النبيّ من ذلك واستغرب أمر صاحبه! فسأل عنه فقيل له إنه مريض. . . إذن لابدّ من عيادته! عزم النبي على عيادة اليهودي، وأترك لك أن تتصور موقف اليهودي وهو يراه!!

كان متواضعاً جداً إلى درجة تبهت العربيّ المملوء غروراً وأنفة وكبرياء. حياته وسيرته وخصاله وأخلاقه، كلّها كانت تورث الصبر والإخلاص وتلهم علوّ الهمة وبعد النظر وصفاء الروح.

على مدى عشرة أعوام أمضاها في المدينة، جّهز ثماني وثلاثين سرية وجرّد سبعاً وعشرين حملة وغزوة اشترك فيها بنفسه، وهي كما يلي: الأبواء، بواط (في منطقة الرضوان)، العشيرة، بدر الأولى (في مطاردة كرز بن جابر)، بدر الكبرى، الكدر (بني سلم)، السويق (ملاحقة أبي سفيان)، ذو أمر (مع غطفان)، البحران (منجم في الحجاز)، أحد، حمراء الأسد، بنو النضير، ذات الرقاع، بدر الأخرى، دومة الجندل، الخندق، بنو قريظة، بنو لحيان، هذيل، ذوقرد، بنو المصطلق، الحديبية، خيبر، عمرة القضاء، فتح مكة، الطائف، تبوك.

قاتل في تسع غزوات؛ هي بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف.

وفي ضوء ذلك يكون الرسول قد دخل خمساً وستين معركة في غضون عشر سنوات فقط. ما يكشف من ناحية، مدى قابليته واستعداده للمواجهة وهو في العقد السادس من عمره، ومن ناحية يسلط الضوء على طبيعة شخصيته.

تزوج ثلاث عشرة مرة، وتوفي عن تسع نساء، كان قد ساوى بينهن في المهر وهو أربعمائة درهم، باستثناء خديجة التي كان صداقها عشرين ناقة. لم يفرّق بين قرشية وغيرها ولا بين حرّة وأَمة، فكان صداق عائشة نفس صداق زينب بنت خزيمة، وصداق هذه نفس صداق صفية بنت حيي بن أخطب كبير بني

النضير، ولنستمع إليها تروي قصة زواجها من النبي:

لمّا سبي بنو قريظة عرض السبي على رسول الله، فكنت فيمن عرض عليه فأمر بي فعزلت، وكان يكون له صفيّ من كلّ غنيمة. فلما عزلت خار الله لي فأُرسلت إلى بيت أم المنذر بنت قيس أياماً حتى قتل الأسارى وفرّق السبي فدخل رسول الله عليّ فاختبأت منه فدعاني فأجلسني بين يديه فقال: إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه. فقلت: فإني أختار الله ورسوله. فلمّا أسلمت أعتقني وتزوّجني وأصدقني اثني عشرة أوقية ونشاً كما كان يصدق نساءه وأعرس بي في بيت أم المنذر، وكان يقسم لي كما كان يقسم لنسائه وضرب عليّ الحجاب(١).

شخصيته البارزة وشمائله الأخلاقية السامية وصلابته وقوة روحه الممزوجة برقة ولطافة وجاذبية خفية في كلامه ومقامه، أمور أفضت إلى نفوذه في قلوب هاتيك النسوة اللاتي صِرن يحملن إزاءه مشاعر حبّ ممتزج بالإيمان، وعقيدة إيمان ممزوجة بالحبّ.

جماله الروحي الغزير ورصيده المعنوي الوفير، يجعلان المرء كلما ازداد منه قرباً، يشتدّ اشتياقه إليه ويقوى انشداده إليه. ورغم ان نساءه كنّ يؤذينه أحياناً إلاّ ان هذا لا يعني أنهنّ لم يكنّ

(١) المنتخب من كتاب أزواج النبي، ج ١، ص ٤٧ .

مغرمات فيه متيّمات بحبّه، بل ذلك الأذى بنفسه، كان تنفيساً عن شعور عارم بالحب والغيرة والحسد. إنّ حبّ المرأة الرجل وإيمانها به، دليلان صادقان على سموّ شخصيته وعظمتها. وفي سيرة حياة محمد نجد أن خديجة كانت مثالاً للمؤمن المحبّ، وعائشة مثال للمحبّ المؤمن. وعلى المسافة بين هذين الحدّين تتوزّع نساؤه الباقيات.

التاريخ يحدّثنا عن قلوب طاهرة لم تطق عليه صبراً، ولم تتمكن من الصمود أمام سطوة روح محمد وصولاتها الخارقة، فانهارت مستسلمة وانمحت في قهر جلاله وجماله.

ميمونة بنت الحارث؛ فتاة لم تجاوز بعد ربيعها السادس عشر، رأته في مكة على مدى ثلاثة أيام، فاستولى على قلبها الرجل ذو الستين عاماً، وقد بلغها وهي راكبة على بعير، أنّ النبي يريد خطبتها، فلم تلبث، من شدة الوله، إلاّ أن قالت: البعير وما يحمل، لله ورسوله!!

وحين أراد أن يحتفي بالزواج منها وهو في مكة (بعد الحديبيّة وقبل فتح مكة)، مانعت قريش من ذلك، لما في هذا من مردودات إعلامية على قريش وجبهتها، فاضطرّ النبي لإقامة مراسيم الزفاف في طريق العودة الى المدينة، وذلك في مكان يقال له (سرف). وبعد ذلك بثلاث سنوات توفي محمد، وظلّت بعده ميمونة ذات العشرين ربيعاً، وحيدة فريدة مدّة خمسين سنة

دون أن تنسى النبي بل ولا أن تنسى ذلك المكان، فأوصت ليلة وفاتها أن تدفن هناك.

القرآن والسيرة يتحدثان عن نساء وهبن أنفسهنّ للنبيّ، ومنهنّ ميمونة هذه؛ المرأة التي نفذ الإيمان بمحمد إلى أعماق وجودها وهيمن على وجدانها، والأخرى زينب بنت جحش التي مرّت الإشارة إلى قصّتها المثيرة. والثالثة أم شريك واسمها غزية بنت جابر بن وهب. وإلى ذلك أشارت الآية القرآنية: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[1].

تعامله وسلوكه مع النساء، كان من اللطف والظرافة ما يبعث في حينه على الدهشة والحيرة. فمع ما كنّ يغضبنه ويؤذينه كثيراً لم يقدم في يوم من الأيام على رفع يده بوجه واحدة منهنّ أبداً، في حال أن الكثيرين كانوا وما زالوا يعتقدون أن دواء المرأة ضربها، وأنه يجب أن تلامسها العصا بين الفينة والأخرى وإلاّ تخرج زمام الأمور من يد الرجل!

---

(١) يميل المفسرون عادة إلى افتراض ان واحدة من هؤلاء النسوة فقط هي المقصودة من الآية، وأتصور أن الذي حملهم على ذلك مجيء لفظ (امرأة) في الآية بصيغة النكرة، بينما أشعر أن إرادة معنى الجنس أبلغ فيكون المقصود كل من أحبّت النبي وآمنت به من زوجاته، سواء هي ميمونة بنت الحارث او زينب بنت جحش أو غزية بنت جابر أو خويلة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون الصحابي الجليل وكانت من أجلّة نساء ثقيف، كما في (مجمع البحرين - مادة وهب).

هذه القناعة ليست حكراً على رجال المجتمعات البدائية وغير المتحضرة، بل نسمع هذا الكلام حتى من أمثال أرسطو الذي يوصي الرجل بأن لا يتحدث الى المرأة إلاّ والسوط معه!

وعندما أراد بوذا البدء برسالته، بقي متردداً، لسنوات، أن المرأة تستحق الهداية أم لا! وهل تصحّ دعوة النساء إلى الدين؟ وقد اختار الصمت بادئ ذي بدء، حتى راجت دعوته، فسئل عن هذا الأمر فاستقرّ رأيه في النهاية على السماح للمرأة باعتناق الدين!

لكن محمداً لم يكن يحبّ من دنيانا هذه غير الطيب والنساء وقرة عينه الصلاة!

كان يرغب بوضع اسم لكلّ شيء، فكانت ثمة أسماء لمركبه وسلاحه وملابسه.. وكان ينتخب الكنى والألقاب لأصحابه حسب مناسبات معينة تعكس الحالة الودّية بينه وبينهم. ذات يوم دخل المسجد فوجد علياً نائماً على التراب فأيقظه وكنّاه بأبي تراب. ومن ثم صار معاوية لاحقاً يعيّر علياً بهذه الكنية، بينما يفتخر بها أبو تراب!

وذات مرة جاء إلى النبي رجل يقال له زيد الخيل فلقّبه بـ(زيد الخير)، بينما كنّى أبا العاص بأبي مطيع، وفي مرة أخرى رأى أحد صحابته ومعه هرّة، فسمّاه أبا هريرة، وخلد الرجل بهذا الاسم.

يحبّ ممازحة أصحابه، ولكن بالحدود التي لا تذهب

ببهائه، وذات يوم كان متكأً على شجرة فوضع إحدى ساقيه على الأخرى وسأل أصحابه: أيّ شيء أشبه بساقي هذه؟! ذهبوا في أجوبتهم يميناً وشمالاً، وشرّقوا وغرّبوا، فما كان منه إلاّ أن وضع ساقه ليضع مكانها الأخرى وقال: ساقي هذه!

يسامر نساءه ويلاطفهنّ كثيراً، وبالذات عائشة . . ولكن هذه البساطة والودّية لم تقلّل أبداً من هيبته وجلالته بين زوجاته أو أصحابه، فكان كل غرور ينكسر أمام هيبته، وكل قلب ينهار أمام جلالته. لقد كان الأرفع منزلة في كل جمع. من يدنو منه ويقترب إليه يراه أكبر وأكبر، فإذا ما زاد المرء تعرّفاً عليه، ازداد شوقاً له وتطلّعاً إليه.

يرغب بارتداء القميص، ويلبس البردتين يرمي واحدة على كتفه ويشدّ بالأخرى ظهره، وربما ارتدى العمامة أو القلنسوة، يحب النظافة والطهارة، ويلبس للجمعة ثوباً خاصاً بها. يكثر من الطيب ولا يستعمل منديلاً مرتين. يستاك قبل النوم وبعده، قليل الكلام والضحك. ضحكه لا يجاوز التبسّم. رأسه مطأطئ الى الأرض، و . . . و . . .

وأخيراً؛ هذا عليّ أقرب المقربين إليه وأكمل العارفين به، يصفه بكلمات بليغة ترسم له في الأذهان صورة حيّة، يقول:

كان رسول الله أبيض اللون مشرباً حمرة، أدعج سبط الشعر دقيق المسربة سهل الخدّين، كثّ اللحية، ذا وفرة، كأن

عنقه إبريق فضة، كان له شعر من لبته إلى سرته، يجري كالقضيب، لم يكن في إبطه ولا صدره شعر غيره، شثن الكفّ والقدم، إذا مشى كأنما ينحدر من صبب، وإذا مضى كأنما ينقلع من صخر، وإذا التفت التفت جميعاً، ليس بالقصير ولا بالطويل، ولا العاجز ولا اللئيم، كأنّ العرق في وجهه اللؤلؤ، ولَريحُ عرقه أطيب من المسك، لم أر قبله ولا بعده مثله[١].

. . . . .والسلام

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٢١ .

الفهرس

المقدمة الناشر ٥
كلمة الناشر ـ الطبعة الفارسية ٩
كلمة المترجم ١١
مع القارئ ! ٢١
تمهيد: الغرض من دراسة التاريخ الإسلامي ٣٣

القسم الأول

ما هو الإسلام؟ ٤٩
الأركان الرئيسية للإسلام الأول . ٥٦
١. إيجاد علاقة مباشرة بين الله والإنسان : ٥٦
٢. المساواة العامة : ٦٦
٣ ـ الشورى في الحكومة : ٧٤
٤ ـ السعادة والشقاء مرهونان بأعمال الإنسان وصفاته الذاتية
لا بالقرابة والشفاعة : ٧٧
٥ – العقل والعلم : ٧٩
٦. الانسجام بين الدين والمدنية : ٨٣
٧ ـ الإنسان جارٍ على سنّة لا تتبدل : ٨٧

٨ ـ اهتمام الإنسان بنظام الطبيعة وأسراره : ١٠٤

٩ ـ الإقرار بوجود الغرائز والميول الإنسانيّة : ١١٣

١٠ ـ الاعتراف بحقوق الشعوب والأديان الأخرى : ١١٦

١١ ـ الإقرار بناموس التكامل : ١٢٠

١٢ ـ الدين جاء لتأمين مصالح الإنسان لا لاستغلاله وإذلاله : ١٢٣

١٣ ـ حرية التعبير عن الرأي : ١٢٦

١٤ ـ التوحيد : ١٣٦

الجهل . الخوف . الانتهازية ١٦٢

الجهل : ١٦٣

الخوف والنفعية : ١٧٣

شعار التوحيد ١٨٨

القسم الثاني

بطل نهضة الإسلام ورمزها ٢١٩

معرفة محمد ٢٣١

خمسة عشر عاماً من الصمت ٢٥٥

المسلمون الأوائل ٢٨٦

محمد والمعجزة ٣٠٠

المرأة في عين وقلب محمد ٣١٠

تعدّد الزوجات ٣٤٥

أخلاق وطباع محمد ٣٦٧

نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية

نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية

[illegible]

۱- الیناسیون که [illegible] این اصل را طرح میکند که در برابر طبیعت، انسان [illegible] میشود که [illegible]

[illegible] جن یا دیو [illegible]

انسان [illegible] جن یا دیو را [illegible] اصلی و حقیقی [illegible] احساس میکند. (از فیلم [illegible])

«مسخ شدن». خود را [illegible] حس میکرد [illegible]

[illegible]

[illegible] و الیناسیون [illegible] واقعیت [illegible] اما [illegible]

[illegible] اسلام که [illegible] اتهام [illegible] عوامل دیگری را کشف

[illegible] جن [illegible] انسان [illegible] حقیقی و فطری انسان را

[illegible] در کالبد انسان [illegible] «[illegible] انسان» [illegible]

انسان است [illegible] خود را [illegible] احساس نمیکند، بلکه [illegible] آن [illegible]

[illegible] آن را [illegible] حس میکند. [illegible]

[illegible]

[illegible] عوامل [illegible] جن یا دیو [illegible] چه چیزی

هستند؟

[illegible] اقتصادی (ایدئولوژی ها) و نیز علم [illegible] عوامل مختلفی را نام میبرند [illegible]

[illegible] عوامل [illegible] الیناسیون [illegible]

[illegible] شناخت [illegible] الیناسیون و نیز شناخت حالات [illegible] و عوامل [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

۱- الیناسیون را [illegible]

[illegible]

[illegible]

نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية

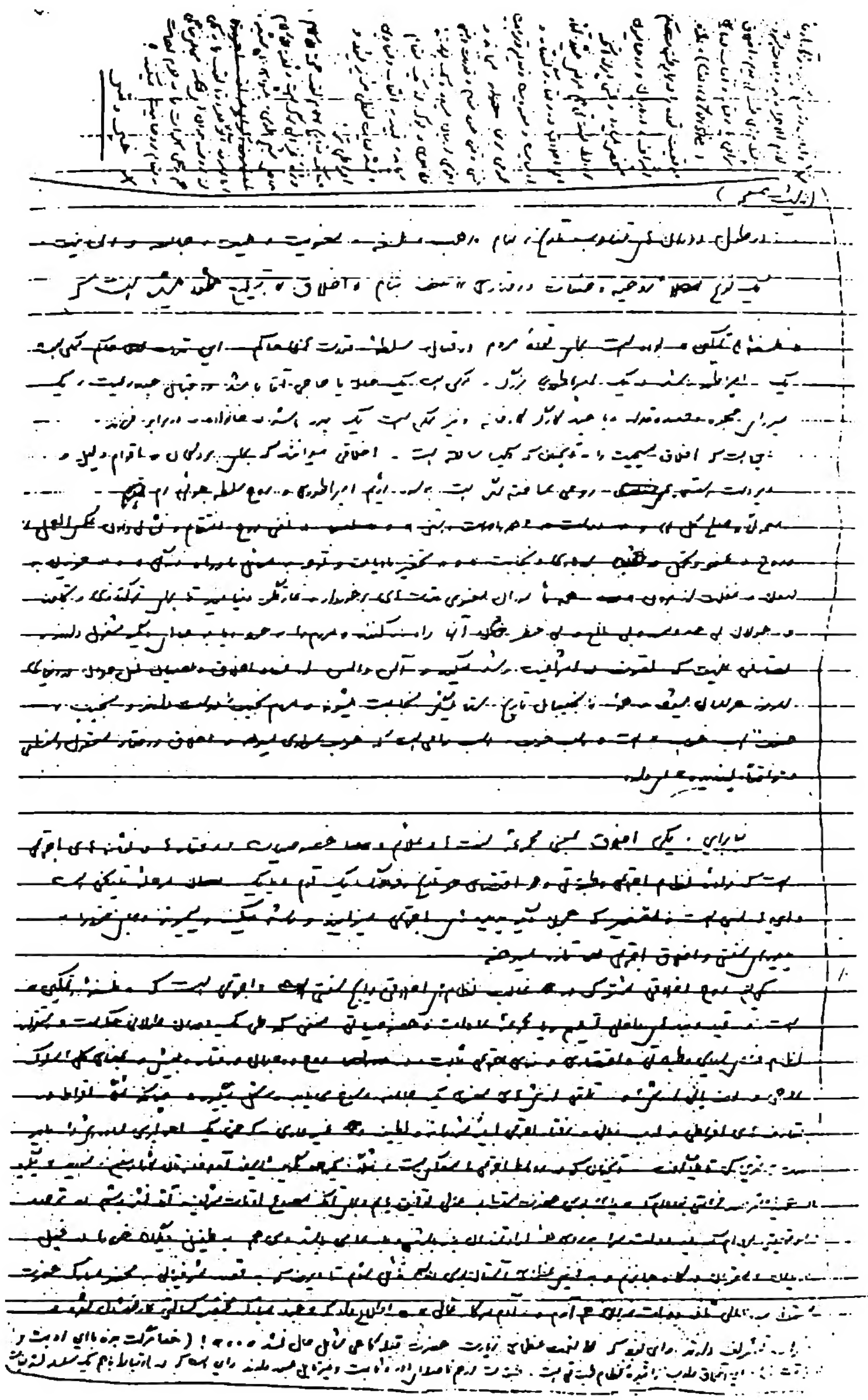
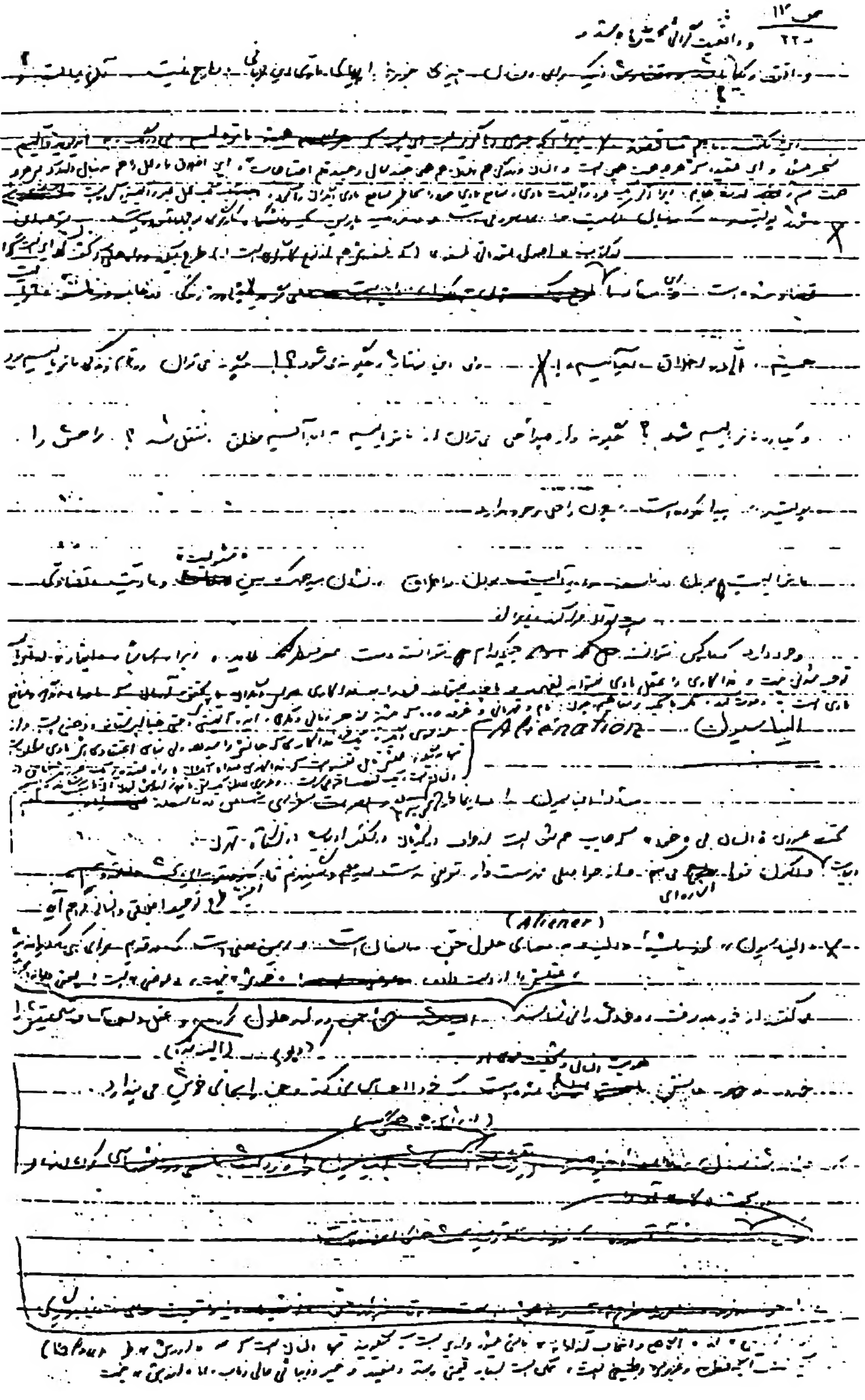
نماذج من تعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الفارسية